مخاطرات الشباب

أو

الأميرة الهندية

«كنت أود بعد ليالٍ أن أقدم إليك غادة فيها جمال يوم الربيع!»

باشنوى

تأليف

حسن رشاد

obeikan.com

مخاطرات شاب

أو

الأميرة الهندية

رواية مصرية غرامية أخلاقية اجتماعية
وقعت حوادثها فى أوروبا والهند

تأليف

الاستاذ مصطفى رشاد

بمعهد التربية

مصححة ومنقحة ومصدرة ببحث قيم فى أدب القصة وتطورها

بقلم الكاتب المحقق

الاستاذ عبد العزيز الاسلامبولى

رئيس تحرير مجلة « المعرفة »

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م

obeikandl.com

تصدير

أدب القصة وتطورها

بقلم الكاتب المحقق

الدكتور عبد العزيز الدسوقي
رئيس تحرير مجلة « المعرفة »

تمهيد

لعل كاتب هذه السطور من أزهد الناس فى القصة ، وأقلهم عناية بها ، وتعلقاً بأمرها، لا عن تصغير لشأنها كما يبدو لأول وهلة ، ولا عن قلة إيمان بأثرها فى الثقافة ؛ ولكن لأنه يذكر منذ سنوات معدودات ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى أحد الناشرين حاملا مسودات رواية له أسماها « فى ظل الغرام » ، وقد كانت قطعة من النفس هو ، وعصارة من صميم حياته هو ؛ فلم يعد إلى منزله بتلك المسودات ، وإنما عاد وكله آمال وأطماع وأحلام ، أو قل عاد وكله زهو وخيلاء ؛ أليس الناشر قد قبل طبعها ونشرها فاشتراها منه ليطبع منها آلافاً وآلافاً ؟ وينشرها فى جميع أرجاء المعمورة متوجة باسمه « الكريم » ! وأى فخر يسمو على هذا ؟ بل أى سؤدد ينزه ؟ ثم أليس قد عاد وملء نفسه يقين بنزاهة الناشر ، وملء يديه جنيه مصرى هو عربون الصدق فى القول والاخلاص فى العمل !

لكن قدر فكان ، وذهبت أحلام صاحبنا هباء ، فقد كان ذلك الجنيه

المتدس الأول والآخر من نوعه فى تلك الصفقة ، كما كانت روايته الأولى والأخيرة من محاولاته ، إن جاز لنا التنبؤ . وماذا يعمل بإزاء الناشر وهو ذو الحول والسلطان ! اللهم لا شيء ، فلتذهب النفس إذاً بما تحمل من آلام حيث شاءت ، وعلى الثقافة العفاء والفناء .

هذه الرواية التى مثلت معى ، والتى اقتضبتها اقتضاباً ، كانت كافية لتصدنى عن التفكير فى معالجة هذا النوع من الكتابة الذى كنت أحب ، بل كانت كفيلة بصرف الجهد إلى غير ما كنت أحب ، وما أحسبنى بالنادم على ذلك بالغ الندم ، ولكن أحسبنى حرمت لذة التفكير فى الخلق والابتداع والابتكار ، بل لذة التخيل والمبالغة والتهويل ، بل لذة الاختلاق . . . الذى أراه من الدعامات الأساسية فى خلق القصة .

أغراض القصة

ما الحياة الانسانية فى مختلف أطوارها وتعدد اتجاهاتها إلا قصة من القصص ، فهى لا تخرج عن أن تكون مجموعة من الحوادث ، آخذ بعضها برقاب بعض ، إن تآلفاً وإن تنافراً ؛ وهى إن ائتلفت أو تنافرت فسبيلها فى النهاية إلى غرض واحد ، وإن تعددت ألوانه ، ذلك هو إبراز كثير من المثل العليا للانسانية فى شخص البطل الواحد أو الأبطال المتعددين .

ولا يفيد قولنا هذا أن القصص لا يقصد بها إلى تسلية النفوس وتلهية القلوب وتزجية الوقت ، وصرف الشعب عن الشغب أحياناً ، أو دعوته إلى الثورة أحياناً ، وإنما يؤدى قولنا معنى ذلك كله ، كما يؤدى معنى اتخاذها سبيلا لى بث الآراء العلمية ، أو المذاهب الاجتماعية ، أو النزعات الدينية ، و وصف الحوادث والسير والتاريخ ، وشرح العوامل النفسية لكل عصر وجيل .

وما أظنك تجهل تلك القصص الشعبية التى ذاعت فى آخر العصر الأموى، وفى غضون العصر العباسى، مما امتلأ به كتاب «ألف ليلة وليلة» من قصص: قمر الزمان بن الملك شهرمان، والسندباد البحرى، وعجيب وغريب، ومدينة النحاس. ثم فيروز شاه وأضرابها مما أخذ عن أصل فارسى، أو ما جاء فى قصص عنترة، وبكر، وتغلب، والزباء، والزير سالم، وسيف بن ذى يزن، وعلى نور الدين، وذات الهمة، وحسن البصرى، وسلطنة دياب، وأبى زيد الهلالى، والزناتى خليفة، وغيرها مما أخذ عن أصل عربى، ثم ما جاء فى «كليلة ودمنة» مما أخذ عن أصل هندى.

والكتب المقدسة عامة والقرآن خاصة، خير شاهد عدل على هذا، والقرآن نفسه زاخر بقصص الأنبياء والمرسلين وغيرهم، على لا تغيب عن ذهن القارىء أسماؤهم

كان الغرض إذاً من جل هاتيك القصص الشعبية الوضعية، المحتوية على روائع الأسمار، وبدائع الأخيلة، وعذب الأحاديث، وبلاغة المحدث، تخدير أعصاب الشعب، واتخاذها لعقوله سحراً، وبثها فى أعصابه سكراً، وفى قلوبه فتنة، وإرسالها للسواد شاغلا عما يدور فى قصور الخلفاء والأمراء حول الخلافة والامارة، وما يجرى مجراهما من أمور، وعما كان يدبر فيها من مكائد ومؤامرات، ومجون ومهازل، مما تراه مبسوطاً فى عيون كتب الأدب العربى وموسوعات السير والتاريخ.

كما كان الغرض من بعضها — وهذا قليل — صوغ العلوم والفنون والآداب والفكر الدينية والنزعات الفلسفية فى أساليب مشوقة، وعبارات سهلة سلسة، تحمل فى غضونها الحكمة العالية، والمأثورات المختارة، والمذاهب الجديدة. مما كان لوجوده فيها أثر وأى أثر فى نفوس

العرب ، بل فى نفوس الأمم جمعاء ، مصبوغة بصبغة البيئة ، مطبوعة بالطابع الزمانى والمكانى لكل أمة من الأمم ، خضوعاً لقانون الوجود الذى لازمته هذه الظاهرة الطبيعية ، وأعنى بها ظاهرة القصة ، التى لا يمكن تحديدها بعهد ، أو إرجاعها إلى عصر ، فقد لازمت الانسان فى جميع عصوره وأطوار حياته منذ الخليقة حتى الآن .

وما قصة آدم وحواء إلا دليلا نسوقه فى التدليل على صحة ماتقول .

مزاعم بعض المستشرقين

وهذا نفسه نسوقه دليلا فى تفنيد مزاعم بعض أولئك المستشرقين ، الذين يرون أن القصة لم توجد فى الأدب العربى ؛ وهذا زعم يحمل أدلة تكذيبه بين طيانه ، فان القرآن حافل بتلك القصص ، وهى وإن كانت لا تمثل القصص الحديث ، فقد كانت قصصه نموذج القصة العربية الاسلامية الأولى ، كما كانت هذه القصص نفسها وظيفة للقصاصين المسلمين ؛ ككعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، والحسن البصرى ، ووهب بن منبه ، وتميم الدارى ، وغيرهم ممن كانوا يجلسون إلى الناس فى المساجد مفصلين مجملين ، مفسرين مسرفين ، مهولين ابتغاء العبرة ، متمثلين رجاء الموعظة .

وفى كتب التاريخ والأدب الشىء الكثير من أخبار القصاصين الرسميين ، الذين كانوا يعينون بأمر الخليفة أو الوالى ؛ وهذا سليمان بن عنتر التجيبى يتولى القص الرسمى فى عام ٣٨ للهجرة ، فأين كان القصاص الغربى ؟ وأين كانت القصة الغربية فى ذلك العهد ؟

ثم أليست قصص ألف ليلة وليلة من صنع العرب ، أو من آثار من اندمجوا فى العرب ؟ ثم أليست هى بنفسها التى ظلت قروناً طويلة حتى عهد قريب ذخيرة

القصص الغربى ومعينه ؟ فان أبيت إلا الجحود والانكار فاسمع إلى براون يقول فى كتابه (تاريخ الفرس الأدبى) : «ولدت القصة فى الهند ، ودبت فى فارس ، وترعرعت فى بلاد العرب التى وجدت مرعى خصيباً فيها ..... ثم انتقلت إلى الغرب بفضل العرب الذين يعتبرون بحق أساتذة هذا الفن وشيوخه »

وهذا (جين فرى) يقول : « لست أعرف كم يكون مدى جهلنا بأساليب الحياة الاجتماعية ، لو لم تصلنا القصة التى تعلمنا أصولها على أيدى العرب » .

وهذا (هاردى) يقول : « كلما تخيلت ذلك الرجل البدوى جالساً إلى قبيلته فى خيمته ، يحمل الرباية التى ينطقها ببديع ألحانه ، وطيب أسماره ، وحلو حديثه ، ورائع قصصه ، وددت لو دار بى الفلك فرجع إلى تلك العصور السحيقة ، لأمتع النفس بجمال الفن القصصى الساذج الذى لا تكلف ولا تعمل فيه » .

أدب القصة الدرامى فى أوروبا

وجدير بالذين ينكرون على الأدب العربى وجود القصة وأدبها الدرامى بالمعنى المفهوم اليوم ، أن يعلموا أن ذلك النوع نفسه لم تعرفه أوروبا إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، أى منذ نصف قرن تقريباً .

فقد « كان المبدأ الأدبى السائد قبل أواخر القرن التاسع عشر ، هو المذهب الرومانتيكى ، ذلك المذهب الذى أعفى الأديب من التقيد بالأوضاع والمقاييس الكلاسيكية ، ودفع به إلى تفضيل الشعور على العقل ، والغريزة على الثقافة ، والعاطفة على التمييز وحسن الادراك ، وغير المحتمل على المحتمل ، بل ذهب به إلى الاعتقاد بأن الفرد أهم من الجماعة ، وأن الفضيلة والعقل فى الأدب لا يفضلان الشعور والهوى .

ونستطيع أن نلخص ذلك المذهب الرومانتيكى فى أنه يدعو إلى شيئين اثنين : الشخصية Individualism والمثالية Idealism .

أما الحالة الاجتماعية فلم تكن قد تطورت إلى ماهى عليه الآن . فالمرأة كانت ولاتزال معتكفة فى دارها، تقوم بشئونها المنزلية، خاضعة تمام الخضوع لزوجها ووالديها . كذلك كان الأبناء لا يستطيعون الخروج عن طاعة والديهم، بل كثيراً ما يتحكم الأخيرون فى إرادة أبنائهم ويطبعونهم بالطابع الذى يريدونه ، غير حاسبين لميولهم ونزعاتهم أى حساب . ولم يكن الناس قد نبذوا بعد الدين ظهرياً فى شئونهم المدنية والاجتماعية ، فكان لابد لكل زواج أن يعقد فى الكنيسة ، وأن يبارك القسيس العروسين ، ويقوم بكل مايتطلبه هذا الحفل من طقوس دينية . هذا علاوة على أن الأدباء قلما كانوا يطلقون لأقلامهم العنان ، ويخوضون فى المواضيع التى كانت تعتبر خارجة على الناموس الأخلاقى لذلك الوقت .

بدأ المجددون أمثال بردسلى وابسن وبتلر ونيتشه حملتهم على تقاليد ذلك العصر وابتدأوا عصر الهدم الذى انتهى تقريباً بنهاية القرن التاسع عشر . فثار هؤلاء على مساوىء المذهب الرومانتيكى وما يتطلبه من إغراق فى الخيال وبعد عن الحقيقة ، وما ألقاه فى روع الناس من تعلق بالمثالية ونزوع عن الصدق فى تصوير الحياة الانسانية كما هى، دون مغالاة أو إغراق، فكان (جوستاف فلوبير) و (اميل زولا) فى فرنسا و (تشيكوف) فى روسيا ، يمهدون السبل أيضاً لنشر ذلك المذهب الجديد مذهب الواقعية Realism .(١)

ومن هنا يتضح للقارىء أن أدب القصة الدرامى لم يكن معروفاً فى

(١) مجلة «المعرفة» ج٨ ص٩٥٦ ديسمبر سنة ١٩٢١

أوروبا أيضاً إلا منذ عهد قريب. وأنها سبقتنا خاصة فى هذا الميدان منذ قليل.

أما قبل أن يعرف هـذا النوع، فقد كانت القصة العربية موجودة فى الأدب العربى ، فى جميع عصوره ، وفى مختلف دويلاته ، كانت موجودة فى الرسائل القصار ، وفى الرسائل الطوال ، تدرجت من المثـل الجاهلى إلى الحـكمة العربية ، ومن الحـكمة العربية إلى الأقصوصة الاسلامية ، ومن الأقصوصة الاسلامية إلى القصة الشرقية العامة التى تتلون فى كل بلد تحل فيه بلون أهله وتتأثر بعاداته وتقاليده ، وتنطبع بالطابع الزمانى والمكانى الخاص .

وذلك حق لا مرية فيه ، لأنه منطق للحياة البشرية ، وهو لا يقصر على لغـة دون لغة ، ولا على أمة دون أمة ، وإنمـا يختلف باختلاف العقلية والجنسية ، ما دامت القصة تؤلف من حوادث الأفراد الذين يعيشون فى المجتمع ، فتربط بين أمسهم ويومهم ، لتلائم بذلك بين ماضيهم وحاضرهم ، فيخذون من الأول معياراً للمستقبل ، ويعدون من الثانى عدة للغد القريب .

القصة المصرية

والآن وبعد أن انتشر فى أوربا ذلك الأدب القصصى الدرامى ، فقد بدأت النهضة الأدبية فى مصر تخطو خطوات نحوه تبشر بمستقبل باهر ، لأنها نتيجة جهود الشباب المثقفين ، الذين نهلوا من مناهل الغرب ، وتأثرت مشاعرهم بمشاهد الحياة فيه ، وكان لتوفرهم على الدرس والاشتغال بمختلف فنـون الأدب أكبر الأثر فى ازدهار النهضة بما أدخلوه عليها من تجديد وثروة .

وإنك لتلمس آثار هذه الجهود فى البحوث والترجمة والتعريب ، مما يعطينا الدليل على أننا لم نصل بعد إلى حد التطور الفـكرى الذى وصلت إليه

أوروبا ، ومما يساق دليلا على أن العقلية المصرية التى طغت الثقافة الغربية على تفكيرها، لم يحن لها الوقت بعد لتبدع وتبتكر ، وأن نهضتنا الفكرية تقف من نهضة الغرب موقف التابع للمتبوع ؛ وتعتمد كل الاعتماد على الانتاج الغربى والثقافة الغربية .

لسنا ننكر ما للترجمة من قيمة وفضل ، ولكننا نرى لها فى مصر آثاراً أبعد ما تكون عن الذوق وعن الخير والجمال ، وأقرب ما تكون إلى التشويه والنقص والجمود ، ولعل أكبر ما خلفته الترجمة والتعريب فى النفوس هى تلك العقيدة الراسخة التى تدفع المصريين إلى أن ينظروا إلى المؤلفات القومية تلك النظرة التعسفية ، وتحميلها أعباءاً من الزراية والتحقير والاستهتار .

فالأديب المصرى لم يرزق الخصال التى تؤهله للاضطلاع بأعباء التأليف والابداع الموقوفة على أدباء الغرب ؛ ممن اجتمعت لهم مواهب خاصة وألوان من الذيوع والشهرة متعددة ، مما لم يتح لمصرى مناحتى اليوم .

وتبدو هذه الظاهرة بارزة قوية فى الأدب الروائى والمسرحى ، فما من مؤلف إلا وهو ناقل أو محاك ، ومن حق القراء علينا أن نستثنى فئة من القصصيين تعد على أصابع اليد ، كما نستثنى مثل عددهم من المسرحيين ، ممن انطلقوا ـ فى حرية واستقلال ـ يحاولون تمهد هذا الجانب المقفر بشىء من الخصب والانتاج ، ولكن جهودهم فى الحق جهود محدودة لا تتعدى دائرة ضيقة مثقلة بأعباء وتقاليد صارمة ؛ فكثيراً ما تسقط الرواية المحلية سقوطاً شنيعاً لتفاهة موضوعها ، وإذا قدر لها النجاح فنجاح مؤقت لا يدوم طويلا، ذلك لأن الرواية المحلية لتفاهة موضوعها وتزعزع حوادثها لا تستطيع أن تؤثر فى الجماهير التأثير الذى يمكنها من العيش فى قلوبهم

طويلا ، ومن ثم كان كساد روايات الأدباء من الكتاب البارزين ، ومن ثم استقر فى الأذهان أن العقلية المصرية لم ترزق القدرة على الخلق والابتكار ، وأنها فقيرة فى تخيلها وتفكيرها ، فقيرة إلا فى الغوص وراء الألفاظ الجذلة ، والتعابير المنمقة ، والأساليب الممتعة الطلية .

والواقع أنك حين تقرأ الرواية المحلية تشعر بشىء من التذمر ، وبشىء آخر من الملل ، رغم متانة الأسلوب وروعة الانشاء التى يبتدعها الكاتب ويتعهدها بالترويق والتنميق والحلية اللفظية ليغطى بذلك كله ضعفها فى الخلق والابداع والحبك وهى محاولة خاطئة نتيجتها انصراف الجماهير عن المؤلفات المحلية والنظر إليها فى غير اهتمام ، فيلحق بها البوار ويصيبها الكساد ، والواقع أن المؤلف واضح العذر ، لأن عاداتنا وتقاليدنا لا يمكن أن تنتزع منها ما يصلح أساساً لأدب القصة ، ومن هنا نرى ضعف الأدب الروائى وفتوره وتفاهة موضوعه فى مصر بخلاف الحال فى الروايات الأجنبية ، لأن فى مكنة المؤلف الغربى أن يضيف إلى الحقائق المتشعبة ومظاهر الحياة وصورها المتعددة ، ألواناً مختلفة مما يجود به عليه خياله من الوقائع والظروف المتنوعة المحيطة به ، فتظهر روايته مملوءة بما يجتذب إعجاب الجمهور وينال تقديره واستحسانه .

ولقد حاول بعض أدباء مصر النابهين النهوض بالأدب الروائى ولكنهم باءوا بما لم يكن أحد يتوقعه لهم من غير العارفين بالحقيقة ، فتحطمت جهودهم وجهود الذين عملوا على إخراج إنتاجهم على الشاشة البيضاء على صخرة الحقيقة التى كان لامفر لهم من الاصطدام بها ، ذلك لأنهم حاولوا وسط دائرة ضيقة محدودة تحوطها اعتبارات وتقاليد لاسبيل إلى الخروج عليها أن ينتجوا لجاء إنتاجهم مقفراً من كل مظاهر الفن الروائى ، فاتراً ضعيف الحبك والتصرف . ضائع العقدة ، مفتعل المفاجأة .

فمهمة المؤلف المصرى عسيرة كما ترى، لأن عقله وتفكيره يجب أن يوفق بين رغبة الجمهور والناشرين، وبين الواقع الذى لا يمكن أن يتخطاه.

لذلك لم يجد مؤلف روايتنا هذه غضاضة فى أن يطلق نفسه من هذه القيود ومخالفة السنة التى جرى عليها أكثر المشتغلين بالأدب الروائى.

فاذا كان لنا ما نقوله فى هذه الرواية فهو أنها وإن كانت تتفق وميول الكثيرين وأمزجتهم، فقد حرص المؤلف على ألا يخل بواجب الأدب النزيه الشريف الذى يعف عن تملق الجماهير أو إرضاء فئة دون أخرى، وهو إذ يتقدم بها إلى حضرات القراء، لا يقدمها لهم على سبيل اللهو بما فيها من حوادث ومواقف، أو تزجية الوقت بما ضمنها من مفاجآت، وإنما يفعل ذلك ليكشف لهم بين ذلك كله عن المثل العليا للانسانية فى ناحية من نواحيها السامية.

وما على القارىء إلا أن ينضم إلى المثل الأعلى الذى تضطرم به نفسه ويملؤها بنفحات الحرارة والحماس.

وإذا كانت ظروفنا وتقاليدنا قد ألجمت المؤلف وغلته عن خلق الحوادث تحت سماء مصر، فقد حرص على أن يضمن هذه الرواية ما يعلى من شأن مصر ويظهر بجلاء ووضوح صفات أبنائها وحميد خصالهم ونبيل شعورهم وسامى عواطفهم.

ومن اليوم إلى أن يعمل الكتاب الذين يتصدرون لزعامتنا على كسر هذه الأغلال الثقيلة وتشجيع الخلق والابداع ورفع مستواه، وإلى أن تنقى فهم القائمين بالنشر الذين لا يرقبون إلا ولا ذمة، أو تتولاه فئة مثقفة رائدها المنفعة العامة وخدمة الأدب لذاته، من اليوم إلى أن تتحقق هذه الأمنيات سيظل الأدب الروائى على ما هو عليه مريضاً مقعداً لا يتقدم إلى الأمام خطوة.

وأريد أن أنتهى من هـذا التصـدير إلى تقرير أمر واقع ، هـو أن النهضة الأدبية فى مصر ـ رغم ذلك كله ـ قد بدأت تؤتى ثمارها ، وأن من الحق علينا أن نشجع الناشئين فى الأخذ بتلك السبيل ، حتى يتم لنا أدب حى ، نفاخر به ونباهى .

وإنه لمن حسن الحظ ، أن أقرر أيضاً أن مؤلف هذه الرواية أطلعنى على رواية له من قبل تسمى « فاجعة فوق كنز » طبعها منذ سنوات معدودات ، فلمست بوناً شاسعاً بين هذه وبين تلك ، ورأيت تقدماً محسوساً فى التفكير والانتاج والخيال البديع والمنطق المتزن .

وإذا كان من الواجب على أن أقرر شيئاً آخر فى صدد هذه الرواية ، فهو أن بها عيباً واحداً ، ذلك هـو الغموض والابهام فى الفصل الأول وبعض الفصل الثانى ، وهو العيب الذى أراه جديراً بتقدير المؤلف لأنه لم يقصد منه إلى تلهية القارىء ، دون ما تفكير أو إنعام نظر ، أو إعمال روية كما قدمنا ، وإنما قصد أن يترك للقارىء الاستنتاج والاستنباط ، وهو ما أعده تجديداً فى كتابة القصة المصرية ، ومحاولة موفقة فى إدخال هـذا العنصر إلى ثروتنا العربية ، مما تدعو الحاجة إليه .

وآخر شىء أقرره للحق والتاريخ ، هو أن يعتقد القراء أن ليس لى مطلقاً فى هذه الرواية أى فضل سواء أكان ذلك متصلا بالتأليف أم برسم الفكرة ، وإنما كان كل عملى قراءتها وتصحيحها دون المساس بفكرة المؤلف أو طريقته الشائعة فى أسلوبه ، وقد كنت أرى أثناء قراءة الرواية ما يدفعنى إلى الظن بأنى قرأت هذا الجزء أو ذلك الفصل فى إحدى الروايات الافرنجية فأعود إليها ، فاذا وجدت اتفاقاً أو تشابهاً فى الفكرة دعوت المؤلف

الفاضل إلى تغيير ذلك الجزء ، بعد إرشاده إلى ما وقفت عليه ، فكان عجباً أن أراه يغيره فى الحال بأروع وأحسن من سابقه .

والخلاصة أن الرواية مصرية لحماً ودماً ، مبرأة من كل ترجمة أو مما يشتم منه رائحة النقل أو التعريب ، وهذا ما أقرره مهنئاً الكاتب الفاضل بما بذل من جهد ، سائلا الله أن تكون جهود الشباب من أمثال المؤلف الفاضل أقوى عامل على إعادة مجدنا الأدبى وتاريخنا المجيد .

عبد العزيز السلامبولى

شكر

لا يسعنى إلا أن أسجل شكرى لحضرة الأديب الكبير وزعيم فلسفة الشباب المحقق الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى صاحب « المعرفة » ـ مجلة الثقافة العالية ، وفخر الصحافة المصرية ـ على ما حباني به من حسن الظن والتشجيع فى كلمته القيمة الجليلة التى حلينا بها جيد هذه الرواية فخورين ، ولن أنسى ما غمرنى به من جميل العطف وصادق العون اللذين تجلت مظاهرهما فى تصحيح الرواية تصحيحاً دقيقاً ، وتنقيحها تنقيحاً صحيحاً ، مما عرف عن دار « المعرفة » وصاحبها الفاضل ، ومما لا يكاد يوجد فى غير « المعرفة » من دور الطبع والنشر . وفق الله صاحبها الفاضل فيما يبذله من جهود فى سبيل العلم والأدب والفن والمضى بها صوب الرقى والنجاح .

وأنتهز هذه الفرصة لأسجل الشكر الأجزل لأستاذى الأكبر حضرة صاحب العزة أحمد فهمى العمروسى بك ناظر معهد التربية الذى قدمنى إلى الأستاذ الاسلامبولى مزكياً ومشجعاً .

* * *

هذا ولن أنسى ما حييت ما حباني به والدى البار « سيد افندى مصطفى » وكيل بريد زفتى ، الذى كان له الفضل الأكبر فى إبراز هذه الرواية من حيز التأليف إلى حيز النشر ، فله شكرى وخالص تقديرى لأبوته البارة الرحيمة الشفيقة .

محمد سباعى

الإهداء

إلى كل نفس منكودة منكوبة بمن لهم حق الولاية عليها، يسومونها الخسف والعذاب، ويغرقون فى التعسف والاضرار بها، ولا تقوى على دفع الايذاء عنها حتى تخر صريعة شاكية، وتأبى مع ذلك أن تنزل عند إرادة من يريدون لها الهوان والاتسام بميسم المذلة والعبودية .

وإلى كل نفس بريئة تدس لها الدسائس، وتنسج حولها الشباك والحبائل، فتعمل جاهدة لدفعها عنها، والخروج منها إلى الناس طاهرة الذيل موفورة الكرامة فى ثوب الحقيقة، فلا تلبث أن يأخذها القانون بما يودى بها فى مقابر الوجود وسجونه، فتصبح وقد فقدت شرفها وكرامتها وعزتها وكل ما تملك من ثمين .

وإلى النفس المتجردة من عوامل الهوى ونزعات الشهوة، التى رائدها إسعاد الغير والوقوف فى صف الحق والواجب، ولو أدى ذلك إلى تلفها وتحطيم كيانها وانتكاث الأمر عليها .

إلى النفس البشرية فى كل مظهر من مظاهرها، وعلى اختلاف ما ركب فيها من نزعات وأمزجة وطبائع: أقدم روايتى الثانية «مخاطرات الشباب» ؟

محمد سعيد

الفصل الأول

في الطريق إلى ميناء بومباى

عند ما آذنت الشمس بالمغيب، واخضل قرصها بلون قرمزى، هو لون الدم الأحمر القانى الفوار، الذى ينساب فى مسارب حس العروس ليلة زفافها السعيد، كانت ستائر الليل تتحرك لتحجب لون الطبيعة المشرق، وتجر ذيولها على سهول (البنجاب) الفسيحة، ثم تتدرج فى بسطها، حتى خيم على أرجائها سواد حالك، جعل الفضاء الشاسع ـ المملوء بشجيرات القطن والقنب ـ يشبه عالم الاشباح والاوهام، وإذا حدق الرائى بصره إلى شريط سكة الحديد ـ الذى يخترق السهول من الشرق إلى الغرب ـ رأى حركات قوم يفترشون الثرى على امتداد الشريط، وعلم أن المكان ـ رغم وحشته والظلام الدامس المخيم عليه ـ عامر بأناس يهمسون

أولئك قوم جاءوا من أقصى البنجاب ـ من مزارع المواشى العظيمة وحقول القمح ـ وتقاطروا من كل حدب وصوب انتظاراً لمرور القطار المقل للأميرة (نوليات) كريمة الأمير (سريار) أغنى أمراء (البنجاب) وأوسعهم جاهاً وأكبرهم نفوذاً.

أناس من جميع الطبقات وذوى العقائد المتعددة وأصحاب الأعمال المتباينة، همهم أن يروا الأميرة (نوليات) معبودة (البنجاب)، لتحيتها ووداعها والهتاف بحياتها فى الطريق.

هنا همس رجل فى أذن صديقه الذى بجواره يقول :

ـ يصل القطار إلى المحطة المجاورة فى تمام الساعة السابعة ، ولم يكن مقرراً أن يسير وئيداً فى هذه البقعة ، لولا أن الجموع هنا أرسلت تلتمس سيره على مهل ، لتتاح لهم رؤية الأميرة ، فلما أن علمت الأمر أمرت باجابة ملتمسهم.

ـ حسناً فعلت ، ومن أولى من الاميرة بهذه المحبة ؟ ألست ترى أنها الانسان الوحيد الذى سيطر على قلوب الجماهير بسجاياه ومواهبه ؟ انها طيبة القلب ، سجية الخلق ، ولذلك أخلص لها الشعب الاخلاص كله ، وأحبها المزارعون ـ من شيوخ وشبان — حباً كاد يكون عبادة . إننى لا أعرف لها عدوا فى الممور .

قال الآخر بعد صمت :

— أو نسيت ما لجمالها من سحر جذاب وفتنة آخاذة ؟

— أعرف أنها مليكة الجمال الأسمى ، فهى ذات دل وسحر ، وقد كانت — منذ سنوات معدودات — دائمة البشر والمرح والايناس ، ضاحكة السن والقلب ، تميل إلى المسرات والجلوس إلى الأمراء فى مجلس والدها ، تصغى إلى أحاديثهم ، وتشاركهم آراءهم فى تصريف الامور ، فى عقل راجح ولب رصين ؛ أما الآن فهى — على التحقيق — ميالة إلى العزلة والبعد عن الناس أجمعين ، ولذلك تقضى أوقاتها منعزلة فى قصر أبيها ، لا يغشى صفحة هدوئها هم منتظر ، ولا نكد مفاجىء .

ـ وهل علمت السر فى هذه العزلة ؟

ـ أعلم أنها ـ ككل فتاة مقدمة على الزواج ـ ركن إلى الاحتجاب عن المجتمعات ، والنأى عن الناس ، على أنها ـ إلى ذلك ـ لا تنسى نصيبها أحياناً من الحفلات والمآدب .

— لم نسمع بعد بهذه الزيجة ، وكل ماوصل إلى أنها لم تختر - حتى الآن - الرجل الذى يصيب حبة قلبها ، أو الزوج الذى تنشد فيه المثل الأعلى ، من بين جموع الأمراء ، الذين يتهافتون عليها تهافت الفراش على المصباح ، والذين يتدلهون بعشقها ، ويتوسلون إلى خطب ودها . وذلك راجع الى قوة إرادتها وشرف نفسها .

ولكم أطفأت همسات المعجبين بها بيسماتها المتكلفة وكلماتها التقليدية (اتيكيت) ، مما سبب انفضاض الكثيرين عنها ، ولم يبق غير ابن عمتها (فيجايا) الجبار ، والأمير الشاب (جوجايت) حاكم المقاطعة المجاورة لمقاطعة الأمير (سريار) ؛ كل يعيش فى روض الأمل وجنة الرجاء .

أما (فيجايا) فان ماضيه الاجرامى الأسود لم يكن ليسمو به الى هذا الشرف الرفيع ، ولذلك فقد أخذ يحيطها بنسيج من مكره وخبثه ، ويحيك لها الشباك ليرغمها على الزواج منه ، ويدور اليوم ذات اليمين وذات الشمال ليطعن كل مزاحم متصد له ، وليس فى أعماله من شىء إلا وهو خفى مستور ؛ وهى لبأسه تخشاه ، ولا تقوى على صده أو رده عن سبيله ، على الرغم من قبح وجهه وثقل دمه ، وفظاظة خلقه ، وشراسة طباعه .. وأما (جوجايت) فيمتاز عن سائر أمراء الهند — كما تعلم — ببياض بشرته ، وجمال وجهه ، وخفة روحه ، وأناقة ملبسه ؛ ومع ذلك فانه لم يفاتحها فى أمر حبه ، ولم يدل اليها بخفايا قلبه الواضحة فى نظراته المتوسلة ، وأستطيع أن أقول لك إنها لم تعلق بعد بالشاب الذى يصلح ليكون لمثلها زوجاً .

هنا أقبل عليهما ثالث يقول :

— (أسكالا) ! أتعلم أن (بيتو) و(زامورا) و(فيداس) و(نصرتا) وغيرهم من أعوان (فيجايا) ضمن الحاشية المرافقة للأميرة فى رحلتها ؟ لقد

سمعت ذلك من ناظر المحطة المجاورة ، أثناء حديثه فى (التليفون) مع عامل الاشارات ، ولقد دهشت لعلمى أن وجودهم معها فى أوربا سيعرقل كثيراً من المهام التى استدعت قيامها بالرحلة ، ويعكر عليها صفوها وأمنها هناك .

فقال (أسكالا) فى شىء من الدهشة :

— إننى أخشى أصبع (بيتو) يا (منسيوكا)! ولكن وجود (ياغوس) فى لندن يبعث إلى نفسى الطمأنينة. صه ! لقد أقبل القطار، انظر اليه ، إنه يسير على مهل . إنه يزخر بجماهير المزارعين المرافقين للأميرة إلى (بومباى) لوداعها على الشاطىء ... هيا أسرعا لنراها ، فان الجماهير تتدفق صوب القطار.

واندفعت مئات من الناس نحو (الصالون) المقل للأميرة وحاشيتها ، هاتفين بحياتها فى روعة وحماس ، وما هى إلا لحظة حتى أطلت عليهم من النافذة بطلعتها المشرقة الوضاءة ترد عليهم تحياتهم بوجه باش يملأ العين والنفس بشراً ، والناس يتزاكضون ويتزاحمون ليظهروا لها محبتهم وإعجابهم فى هتافات حماسية رائعة ، وهى تصغى اليهم وتجد فى حركاتهم وأقوالهم لذة وابتهاجاً ، يبعثان فى نفسها برد الراحة .

وسار القطار يشق سبيله وسط الجماهير الهاتفة المتراصة على الجانبين تودعه بالتصفيق والدعاء حتى غاب عن أنظارهم واختفى وراء حجب الظلام.

* * *

كان صوت القطار يمتزج فى ذلك السكون بأصوات راكبيه من جماهير المزارعين، وبحركات الحراس، وبأنغام الموسيقى المنبعثة من عربات الدرجة الاولى . وكان الزحام فى عربات الدرجة الثانية والثالثة بالغاً أشده ، بينما كانت عربات الدرجة الاولى المجاورة (للصالون) تضم الطبقات الراقية من الهنود رجالا ونساء ممن قدموا لوداع الاميرة على شاطىء بومباى فى الصباح .

وحيثما أدرت بصرك فى (الصالون) أبصرت شخصيات بارزة . فمنها الأميرة (توليات) صاحبة الشخصية المترامية الافق، ترتدى القبعة والثياب الافرنجية، وهى معتدلة القامة، هيفاء بيضاء البشرة، لايخالها الرائى إلا حسناء من غوانى باريس ، وإلى جانبها الأمير الشاب (جوجايت) ثم (فيجايا) صاحب الوجه الداكن والجثة الضخمة وأمامه رجل كانت الاميرة ترمقه شذراً بين فترة وفترة ؛ وكذلك (جوجايت) فقد كان يختلس اليه النظر — فى اهتمام — مع أن الرجل لم يكن فيه ما يلفت الانظار ، بل كان منظره — بثوبه المزركش وجلسته المحتشمة — منظر تابع فى الحاشية . غير أن هذا الرجل كان يبدو من حركاته أنه زميل (فيجايا) أكثر مما هو تابع له . أما هذا الرجل فهو (بيتو) جابى الضرائب، ويد (فيجايا) العاملة.

وهناك أربعة رجال امتازوا بثيابهم الهندية الموشاة، وعماماتهم الكبيرة، وبجانبهم فتاة سمراء ترتدى الثياب الافرنجية ، هى وصيفة الاميرة ، وتدعى (ناديا)؛ وهؤلاء الرجال الاربعة هم: (زامورا) بطل الهند السابق فى المصارعة الحرة وسائق خاص لسيارة الاميرة، ثم (فيداس) وهو أخبث رجل عرفته الهند بعد (بيتو) وهو حديث العهد فى الخدمة، وقد اشتهر فى القصر بنزعته إلى الدس ، ويليه فى ذلك (مانجو) ؛ أما (نصرتا) فعلى الرغم من قبح منظره ودمامة خلقته وانضوائه تحت لواء (فيجايا) فقد كان من أقرب المقربين إلى الاميرة وأحب الأتباع اليها.

* * *

كان حديث الأميرة وأفراد حاشيتها لايعدو السباحة وأبطالها، وكثيراً ما كان يمتد الى أكثر نواحى الحياة المتباينة فى (لندن) وضواحيها وما فيها من مباهج وضروب اللهو وما احتوته من مرح وطرب .

هذا ما كان يجرى فى الصالون ، ولم يكن حديث باقى ركاب القطار ليتناول غير الاميرة (توليات) وحاشيتها ، وكانوا كلما ذكروها ذكروا معها صفاتها الممتازة، من طيبة قلبها، الى حسنها وجمالها، ومن بياض بشرتها، الى بطولتها ورجاحة عقلها.

ويأتى بعد الاميرة فى الحديث الامير (جوجايت)؛ فمن قائل انه أشجع شجعان (البنجاب) وأغنى أمرائها، إلى قائل انه الامير الوحيد صاحب البشرة البيضاء ومحل التقديس لدى رعيته، إلى متنبىء بأنه سيكون زوج الاميرة الحسناء فى المستقبل القريب، إذ ليس هناك من يليق للأميرة غيره؛ فكما انها اكتسبت من أمها الانجليزية كثيراً من صفات الغرب، فقد اكتسب هو الآخر من أمه الفرنسية قدر ما اكتسبت .

كذلك كانوا يذكرون من أفراد حاشيتها (فيجايا) و(بيتو) و(فيداس) و (زامورا) وكانوا يقرنون أسماءهم بأحط الصفات من الجور ، الى الاستبداد ، ومن الضرائب المرهقة والاختلاس ، الى ابتزاز الاموال والاجرام الخفى...

ووصف أحد الفلاحين كيف ذبح ابنه أمام عينيه بيد (بيتو) وبأمر الرئيس (فيجايا) لالشىء غير أنه استمهلهما دفع الضريبة أياماً معدودات .

وقال آخر : إن أباه اختطف ليلا من فراشه منذ أشهر قلائل ، ولم يعثر له على أثر ، وكان اختطافه المفاجىء إثر منازعة مع أحد أقارب (فيداس) على رقعة من الارض ، وقد وجدت جثته بعد ذلك ملقاة خارج المدينة؛ ولم يشأ هو ولا إخوته رفع شكوى الى الأمير (سريار) خشية تنكيل (فيجايا) واتباعه بهم.

وتلاه شيخ وقور طفق يسرد عليهم — فى حزن بالغ — كيف ساومه (بيتو) فى استباحة عفاف ابنته، وكيف أنه حينما هم بطرده هدده بأنه إنما يعرض عليه

أمر رئيسه (فيجايا) ؛ ولا بد من التنفيذ — سواء أرضى أم لم يرض — وقال إنه حينما توجه إلى قصر (فيجايا) فى اليوم الثانى ليرفع إليه شكواه لم يكن نصيبه منه غير الضرب المبرح ، والاهانات البالغة ، وقد ثارت ثائرة (فيجايا) لرفضه أوامره الدنيئة ، ولم يمض على ذلك دقائق معدودات حتى رأى بعض الحراس يدخلون غرفة (فيجايا) حاملين ابنته صارخة مولولة ، ولم يلبثوا قليلا حتى ألقوها على الأرض موثقة بالحبال فى حال تتقطع من هولها نياط القلوب ، فأغمى عليه ، ولم يدر ماذا كان نصيبه أو نصيب ابنته من ذئاب البشر ، على أنه حينما أفاق من غشيته وجد نفسه فى فراشه ، وسمع صوت ابنته بجواره ، ورآها فى حالتها الطبيعية تحادث الأميرة (نوليات) عن الحادث ، وقد أخبرته ابنته بعد خروج الاميرة كيف أن سموها أنقذتها من الهلاك المحقق ، فأنقذت بذلك شرفها وشرف قومها الأبرياء المساكين

وانتقل حديث القوم بعد ذلك إلى رحلة الاميرة والغرض منها ، فذكروا أنها تقضى زمناً طويلا فى زيارة عواصم الأقطار الاوربية لاسيما (باريس) وذلك قبل استقرارها فى (لندن) ويرافقها فى رحلتها الرئيس (فيجايا) وبعض الأتباع من الحراس ؛ أما (جوجايت) فيعود إلى مقاطعته بعد وداعها على شاطىء بومباى . وكانوا يرددون بين كل فترة وأخرى اسم (ياغوس) و (جوجر) ، وكانو يقرنون اسم الاخير بلفظ « المغفور له » أو يشفعونه بقولهم : « رحمه الله » ، واتفقوا على أن الغرض من رحلة الأميرة هو عبور (المانش) مع بعض أبطال السباحة الذين تحدوها من الجانب الفرنسى والانجليزى ؛ وعندما تناول حديثهم أفراد الحاشية اختلفوا كثيراً فى تحديد الأطوار التى تقلب فيها (فيجايا) حتى صار إلى ماينعم به الآن من سطوة وسلطان ، كذلك اختلفوا فى تحديد العلاقات بين (جوجايت) و (فيجايا) من

جهة ، وبين الأول والأميرة ووالدها (سريار) من جهة أخرى ، وبقوا كذلك زمناً غير قصير الى أن تطوع شيخ كانوا يطلقون عليه فيما بينهم اسم (جوسبار) المخضرم - بتوضيح ما خفى عليهم من الأمر .

قال جوسبار : القصة طويلة ... طويلة للغاية ...

فأخرج أحدهم ساعته ونظر اليها ثم قال : « قل كل شيء ... كل ما تريد ، فالوقت متسع »

وخاطبه آخر يقول: ياجوسبار! اذكر أننا سننام الليلة فى أخر فنادق بمباى على حساب أميرتنا المحبوبة ! أحسب أن بدنك لم يلمس غير الاخشاب وأعواد القطن والقنب ، فما بالك واليوم فراش وأثاث ورياش ؟ ثم نزهة على الشاطىء ، ومظاهرات طرب وابتهاج وحماس وساعات سعيدة. ولاشك ياجوسبار فى أن ذلك كله سيسلينا كثيراً عن كوارثنا الشداد وأيامنا السوداء ، وتسرى عنا آلام النفس وزفرات التأسى واللوعة. سيرحل (فيجايا) ياجوسبار ، وسيرحل برحيله شبح الشدة والعنف والجور والابتزاز ، ألا ترى أنه كابوس مزعج مخيف ؟... ولكن... أواه... إن غيبته لن تدوم طويلا! ليته يقضى نحبه ويلقى فى بلاد الانجليز حتفه ...!

ومرت فترة صمت تكلم على إثرها جوسبار فقال : « ولكن القصة محزنة يارنجو »

وسكت قليلا ثم استأنف يقول : دعونى أقرأ لكم مذكرات شقيقى (نياسوما) فان فيها الكفاية ...

قال أحد الجالسين : قتل (نياسوما) فى العام الماضى وقد كان خادماً أميناً للأمير (سريار). وتمتم (جوسبار) فى أسف : قتل لأنه مخلص أمين... والآن فاسمعوا مذكراته ...

وأخرج من بين طيات ثيابه ملفاً من الورق نشره أمامه وقرأ مايلى:ـ

« مات الراجا (بوهيمل) الطيب القلب فى اليوم الرابع عشر من شهر يونيو عام ١٨٨٠ وخلفه فى الامارة ابنه الأكبر (سريار) وكان فى سن الثلاثين، وعهد إلى أخيه الأصغر (سابا) بادارة الأملاك الخاصة بالعائلة ، وتزوجت شقيقتهما الكبرى السيدة (نارجين) بعد وفاة الراجا بعام واحد، وسكنت أحد القصور بجوار قصرى شقيقيها، ثم رزقت السيدة (نارجين) بالطفل (فيجايا) وقد ماتت بعد أشهر من ولادته فكفله خاله (سريار) وعنى بتربيته ، وحين بلغ الثامنة من عمره بدت عليه أمارات الذكاء فأرسله خاله إلى إلى إحدى مدارس دلهى الابتدائية ضمن الطلبة الداخليين، ولكنه رفت على عجل لعبثه وسوء سلوكه ، وبعد أعوام ثلاثة أشركه (سريار) معه فى إدارة بعض أعمال المقاطعة ، فأظهر من الذكاء والنشاط ما جعل الأمير يفخر به وسط الأمراء والأعيان ويسوقه دليلا على حسن التربية والتهذيب. كان الصبى شعلة من الذكاء، وكان كالنحلة حركة ودأبا ونشاطا، يأوى إلى قصر والدته فى الساعة العاشرة من كل ليلة عقب الانتهاء من تفتيشه على الزراع ، وكانت العادة أن يمر على كل من خاليه الاثنين فى قصرهما فيحييهما تحية المساء ثم ينصرف إلى قصره . وبعد خمسة أعوام تزوج خاله الأصغر (سابا) من كريمة أحد الموظفين الانجليز ، وانقاد (سريار) لنصائح شقيقه فتزوج بعد عام من شقيقة زوج أخيه ، ورزق (سابا) بالطفل (ياغوس). أما (سريار) فقد رزق بمولود ذكر أسماه (جوجر) ، ثم بطفلة هى (نوليات) ، وكان الأطفال الثلاثة يخالفون (فيجايا) فى لون البشرة ودقة التقاطيع ، ولذلك كان الحقد بالغاً من نفسه أشده ، فراح يضمر لهم السوء، وأخفى فى نفسه أمراً. ومرت الأيام ونفوذه يزداد رويداً رويداً حتى صار القابض

على زمام الأمور فى المقاطعة ، وكان خاله لسلامة نيته يفرط فى إعطائه أكبر قسط من السلطة بين رعيته اعتماداً على أمانة موهومة لاتبررها إلا الظواهر ،وهكذا أصبح (فيجايا) المرجع الأعلى لجميع الموظفين والزراع يعزل منهم من يشاء ويدخل غيرهم ممن يشاء ،مما مهد له سبيل التمادى فى طغيانه وجوره وتلاعبه بالأموال والأرواح ، وأصبح الناس إزاء بطشه وبطش أتباعه وخدمه أمثال (بيتو ، وفيداس، وزامورا) لايهابون شخص سريار، الذى صار لكثرة احتجابه عنهم شخصاً عادياً لاقيمة له ولاخطر ،فكانت الأوامر أوامر (فيجايا) والنواهى نواهيه ، وكانت الطاعة والتقديس لشخصه فرضاً على الجميع ، ولقد تمادى أتباعه فى التجسس على الابرياء والحجر على حريتهم حتى بلغ به الأمر أن نصبهم عيوناً على خاليه، يرصدون حركاتهما وسكناتهما ويبعثونها فى تقارير إلى ولى الأمر فيهم، ورأى (بيتو) من جانبه أن المجال ـ أمام ماطبعت عليه نفسه من الشر ـ واسع طلق ، فأطلق لها العنان تفسد مابين المرء وسيفه وتدبر المؤامرات لقتل من يحرض عليه حتى خيم على المقاطعة شبح مخيف يهدد حياة الجميع بالخطر وينذرهم بالموت لأية تافهة، وكثيراً ما تمكن (فيجايا) بواسطة (بيتو) من القضاء على معارضيه وأنداده تارة بالقتل فى الطريق ، وتارة بالخطف المفاجىء، ثم السجن المزمن، حتى يقضوا نحبهم ،وكثيراً ماأشبع شهوته بهتك عرض الحسان من بنات قومه من زراع وموظفين ،وكثيراً ماسفكت دماء الآباء وأحيكت مؤامرات لمن يدافعون عن شرف قريباتهن، وكثيراً ما هوجمت الدور واختطفت الفتيات بارقة الدم وفعل الحديد ، وكثيراً ما ضج الأبرياء المنكوبون بالشكوى فلم يصل منها الى مسامع (سريار) خبر ما، وذلك لضعفه واستسلامه لابن شقيقته الجبار العاتى الذى أفلح فى قطع الصلة بينه وبين خاله وبين شعبه، وأضحى الناس حيارى

من فرط مامم فيه من كرب وعذاب وشدة ، فاستكانوا للظلم ، وحسبوا أن الحياة على هذه الوتيرة هى الارهاق والاعنات .

«وكان أبناء خاليه فى هذه الأثناء قد شبوا عن الطوق ، فقاسوا الأمرين من شدته ومكره ؛ وشبوا وفى نفوسهم عوامل الحقد عليه لايذائه إياهم تحت ستار التربية ايذاء ترك فى قلوبهم الطاهرة أثاراً تذكيها الأيام اشتعالا ونمواً ، ولم يشأ الآباء إرسال الأبناء إلى المدرسة بعد خيبة (فيجايا) ؛ لذلك اكتفيا بتخصيص بعض كبار الأساتذة ليثقفوهم فى قصورهم ؛ فكان ذلك مدعاة لنمو مداركهم على أساس صالح رشيد ؛ ولما بلغ (ياغوس) الرابعة عشرة من عمره عول أبوه على إرساله إلى جامعة لندن ؛ غير أن (فيجايا) اقترح إرساله هو و (جوجر) إلى دلهى ليتشربا بروح القومية بين أبناء جنسهم نظراً لطول احتجابهم فى القصر ، وحاز اقتراحه القبول لوجاهته فسافر الغلامان إلى دلهى ، ولم ينقض شهر على رحيلهما حتى توالت النكبات فى صورة غريبة مفزعة ، ابتدأت بغرق (سابا) عقب تردى عربته فى النهر ، ثم بمقتل السيدة (نارجين) ليلا فى قصرها ، ثم باختفاء السيدتين الانجليزيتين فجأة أثناء جولة لهما فى الحدائق ، وتلا ذلك مرض (سريار) مرضاً تركه قعيد الفراش بين الحياة والموت ، ولم يجرؤ واحد على التكهن بالحقيقة القاسية وظروفها الاليمة ، وكل ما استطاع الجميع ان يرجحوه هو أن تلك المآسى قد تكون من عمل الذين فصلهم (فيجايا) وأنزل بهم الشر والهلاك ، وقد أرادوا الانتقام لأنفسهم بنفس الشدة ونفس الاجرام والعنف ، وهكذا ذهب الجميع فى تعليل الكارثة ، وهكذا أسندوا الجرائم إلى مجهولين من إخوانهم الذين ذاقوا الويلات من (فيجايا) وأتباعه ، وهكذا حفظت الجرائم فى سجلات (البوليس) حتى يظهر فيها أمر جديد .

« رجع (ياغوس) و(جوجر) على أثر علمهما بالنكبة الكبرى فأورثتهما حادثة والديهما وما تلاها ألماً أذبل شبابهما وحطم فتوتهما تحطيما، ورأى (ياغوس) أن قصره بعد غرق أبيه وفقد أمه بات موحشاً قفرا ، وفوق ذلك فان (فيجايا) شرع يسيء معاملته ويضيق عليه الخناق حتى بلغ جداً اضطر معه الفتى المسكين إلى الاسراع بالرحيل إلى انجلترا، فأغلق قصره وعزل خدمه وصفى له (فيجايا) نصيبه من الثروة وترك المقاطعة خافض الجناح كسير القلب حزين النفس ، وعز على (جوجر) أن يغلب (ياغوس) صديق طفولته على أمره، فراح يكيد لفيجايا غير أنها كانت فى الواقع تدابير صبيانية مكشوفة أدت بفيجايا بعد أن استمال اليه (سريار) إلى إلحاقه بياغوس ليأخذ نصيبه من العلم العالى هناك ، ورحل (جوجر) بعد أن ملأ جوانح شقيقته الصغرى بالكراهية لمضطهدهم الأكبر، واستقبله فى لندن ابن عمه وحميمه (ياغوس) فطاب لهما العيش مدة عامين انتهت بموت (جوجر) بالسكتة القلبية، ورحل (فيجايا) لاحضار جثته تمهيداً لدفنها فى المقبرة العائلية .

بقيت (نوليات) فى الميدان وحيدة، غير أنها ذكية عنيدة؛ ومن ثم اشتد النفور بينها وبين (فيجايا)، وبعد قليل سطع كوكب بطولتها فى السباحة وأشرق نجم جمالها، فألوت كشحاً عن ميدان المنافسة العائلية، وعنيت بصقل ميزاتها التى سمت بها الى الذروة التى تتسنمها اليوم فى قلوب أبناء الهند أجمعين. أما (فيجايا) فلم يلبث حتى تحول مقته لها الى حب قاهر جبار؛ والغريب أنه لم ير منها صداً حينما فاتحها بحبه، بل لم يلمس ازدراء فى معاملتها له، غير أن الأيام وقسوتها ما لبثت حتى أرسلت اليه المزاحم العنيد فى شخص الأمير (جوجايت) حاكم المقاطعة المجاورة، الذى أفلح إلى حد بعيد فى توثيق عرى

الصداقة بينه وبين محبوبته، حتى أيقن الجميع بأن زواجها منه قد أصبح وشيك التحقيق ، غير أن الواقفين على الحقيقة كانوا يعتقدون أنه من الاستحالة بمكان ،ان ينال واحد من جيش العشاق المدلهين من قلبها الصخرى ماتصبو إليه نفسه وماشقت دونه نفوس كان لها كبرياؤها وجبروتها حتى (جوجايت) نفسه الذى لم ينل بعد كلمة الرضا وهو صاحب البشرة البيضاء والجاه العريض ... »

وماكاد (جوسبار) ينتهى من تلاوة الكلمة الأخيرة من المذكرات حتى صاح أحد الجالسين بفزع :

— « أخف الورقة ياجوسبار ، أسرع إن فيجايا قادم من العربة المجاورة ، انظر ها هوذا شبحه يقترب ناحيتنا».

الفصل الثانى

(بعد ثلاثه شهور)

كانت الغرفة ساكنة وقد انقضى من الليل هزيعه الأول، وما زال الشاب يحاول عبثاً مغالبة قلقه القاتل واضطرابه المميت تارة بالكتابة وطوراً بتقليب صفحات كتبه الدراسية ببصر زائغ ولب مشدوه ، وكان هناك شخص آخر يحاول وهو ينظر خلال النافذة أن يخترق ببصره أستار الليل تكسو الشارع الكبير ، وتحول من مكانه وأقفل مصراعى النافذة بهدوء وهمس ، وأخذ يقول لصديقه فى نبرات خافتة:

— أليس لهذه الليلة من نهاية ؟

وظل الآخر صامتاً ثم قال : « إنها ختام الشهور القاتلة » .

وتأثر الأول من لهجة صديقه وأمارات الحزن المرتسمة على وجهه وقال : « ألا تريد إراحة بدنك من عبء أفكارك القاتلة » ؟

ولم يلق جواباً ثم سقط الى كرسى بجواره يمعن فى التفكير، وتصور الحاله النفسية الأليمة التى تكاد تقضى على صديقه فى هذه الآونة وأشفق عليه منها، ورآه بعد زمن وقد أغلق كتابه ثم مضى فى إشعال سيجارته وهو يتأفف فى صوت مضطرب : « ليلة ولا كالليالى ياعباس ، نحن الآن فى منتصف الليل ولم يتسرب النوم بعد الى أجفاننا من فرط ماتنبهت الأعصاب. إننى فى موقف رهيب وهاهى ذى قد حانت ساعة تنفيذ وعيده ،

ها قد جاءنى اليوم خطاب من صديقنا رمزى فدعنى أقرأه لك اذا كنت لاتجد مانعاً من سماعه » .

فأجابه: أحب أن أقف على أخبار هذا الصديق، هأنذا منصت إليك.

وكانت سحابة داكنة تنتشر على وجه (فتحى) بينما راحت كلماته ترن فى أنحاء الغرفة تعانقها رعشة خفيفة :

— عزيزى فتحى ...

تحية وسلاماً وبعد :

وصلنى مكتوبك فاطمأن قلبي عليك، وتمنيت لك المزيد من الصحة والانتعاش . أكتب اليك هذا وقد حولت أوراقى الى جامعة لندن تبعاً لمشورتك، وهى فى الحق فرصة حسنة تتيح لنا إعادة زمالتنا الاولى وصلتنا القديمة، سأقوم فى القطار الذى يبرح اكسفورد فى تمام الساعة التاسعة، ولا تكلف نفسك مشقة الذهاب الى المحطة اذ أود مفاجأتك فى المنزل. لم يتيسر لى هنا أن أحدثك فى شىء مما أردت محادثتك فيه، من أجل ذلك أود أن ألقاك فى المنزل . وماذا أقول بعد ذلك ؟ كل ماأقول لك إنى جد مغتبط بقرب التلاقى... سلامى إلى الصديق (عباس) الذى أحب أن يكون معك.. والسلام

المخلص

رمزى

صمت الشابان بعد قراءة الخطاب لحظة كانا فيها يسترجعان الذكريات الماضية . كانا يذكران كيف كان ثلاثتهم وحدة ثلاثية فى المدرسة الثانوية، وكيف كان (عباس) يرتع فى رغد العيش والجاه العريض، وكيف عصفت به يد الدهر الغشوم فأودت بعز أبيه وتركته يتيما شريداً لايجد قوت يومه، وكيف تضافر الصديقان على إعالته حتى نالوا جميعاً شهادة البكالوريا

ثم الليسانس من الجامعة المصرية، وكيف أجبراه على الرحيل معهما إلى انجلترا وترك وظيفته فى مصر، ورضى بوظيفة أقل منها فى شركات الملاحة بين أوربا وأمريكا لينعم بجوارهما ، ثم كانت مشادة حين التحق (رمزى) بجامعة اكسفورد وصديقه بجامعة لندن وألح كل منهما فى أخذ (عباس) إلى جانبه حتى أفلح (فتحى) وفاز به أنيساً ومعيناً .

وخرج (فتحى) عن صمته وقال فجأة : « أراهن أنه يعنى بحديثه (ياغوس) و (غانم) ...

فاعتمد عباس رأسه بين يديه برهة ثم قال: « بودى لو لم يمتد الحديث إلى هذا الموضوع . لا أظن أنه يعلم عن (ياغوس) و (غانم) شيئاً .

فقال مستفسراً : « تعنى أنه لا يعرفهما ؟»

فأجاب قائلا : كلا ، لقد كان (غانم) صديقاً لرمزى فى الجامعة المصرية بالقاهرة، وكان (ياغوس) أحد طلبة اكسفورد بضعة شهور قبل أن يستقر فى جامعة لندن، وإنما أعتقد أنه لا يعرف عن كارثتهما شيئاً.

فتمتم يقول : « إنه يقرأ الصحف ، لقد فاضت أنهرها بأخبار هذه الكارثة».

فهز عباس رأسه بحزن وعاد يقول : « الغريب أن تغفل الصحف نكبة (غانم) على ما أحاطها من غموض وإبهام، فى حين نراها تخوض فى وصف جناز (ياغوس) وتنعته بشتى معانى الجلال والعظمة، ولكن لنفرض أنه لم يفاتحك فى هذا الشأن فهل تضن عليه بمعلوماتك عن الحادث ؟

فقال فتحى فى ثبات : لا أظن ذلك .

فتململ عباس فى موضعه وصمت لحظة ثم قال : «أحب ألا تفاجئه بالقصة على حقيقتها فانه شاب ضعيف القلب لا يحتمل وقعها على نفسه » .

فقال فتحى : «هون عليك ، سنفرغها فى قالب تستسيغه نفسه وتتحمله أعصابه ، وإن أحزن لشىء فلن يكون باعث حزنى ذاك غير أن يقترن مقدمه بالوقت الذى تهددنا فيه الكارثة الفينة بعد الفينة حتى صرنا إلى ما نحن فيه من ضيق وشدة »

فقال عباس ـ وقد عاوده حزنه ـ : « نسيت أن تضيف إلى ذلك ما أضعته من وقتك الثمين فى سبيل ترسيخ قدمك تجاه عدوك ، رغم شعورنا بضعفنا بإزاء مكره وبطشه ، ولو أنك تخليت عن عنادك وانصرفت إلى دروسك ، ما كانت حالنا اليوم خبلا ولا فزعاً ولا سهاداً »

فأجاب فتحى ـ فى حزم وجد ـ : « إننا سنبذل جهد طاقتنا فى سبيل الحصول على ما نصبو إليه من نصر ونجاح »

قال عباس : « لا ريب فى أن ما تقول حسن وجميل ، ولكن هاهى ذى ساعة الهلاك قد أزفت ، وهأنت ذا لما تستعد للقائها بعد ، وأنا بين الحالين أعتقد أن الرجل لابد عامل على تنفيذ وعيده ، لا سيما وأنت مصر على الذهاب ومخالفة أوامره »

ـ ألا تفعل ذلك لو كنت مكانى ؟

ـ أنا شخصياً أعتقد أن المسألة تحتاج إلى مساعدة من الخارج ، وهذا ما دعانى إلى البحث عن الرجل الذى يصلح لأن ينقذنا من هذا البلاء

فقال فتحى على الفور : « إنها فكرة عرضت لى منذ زمن ، وماذا تم يا ترى ؟ »

ـ تم كل شىء ، ولكنه الآخر مهدد من جانب أنداد اشرار

ـ فى كلامك اليوم بعض الخفاء والغموض ، فبربك (ياعباس) وضح لى الأمر ولا تزد هواجسى وأوهامى .

فاستأنف عباس يقول : « إنه نوبى يدعى (حامد) ، كان بحاراً فى الشركة التى أعمل بها الآن ، ثم ترك عمله بها واحترف مهنة قيادة السيارات فى (جراج) شهير ، وقد اشتهر فى الحى الايطالى والأحياء المجاورة بشدة البأس والقوة الخارقة والسداد فى رماية الرصاص »

فقال فتحى ـ وهو يتثاءب ويهم بالقيام فى تثاقل ـ : « شخصية فريدة فى نوعها ولاشك ». وفى هذه اللحظة دق الباب ودوى صوت طرقات يمزق سكون الليل ، فأسرع (عباس) ـ وهو يحاول جهده إخفاء ما تولاه من انزعاج ـ إلى الصالة المتوسطة ليرى الطارق ، بينما وقف فتحى بجوار نضد لا يستقر على قرار ، وعاد (عباس) بوجه مستطيل شاحب ثم تلعثم يقول: « بالباب رجل يلح فى ولوج (الشقة) ورؤياك . لقد أبيت عليه الدنو من الباب ، إذ رأيته مقنع الوجه خبيث النظرات »

فقاطعه فتحى قائلا بفزع : « وهل أغلقت الباب ؟ ... أحكمت ... »

وهنا قطع عليه حديثه صوت رجل يقترب ناحيتهما فى الظلام قائلا «سعدتما مساءً ياصاحبى ، إن البرد شديد فى الخارج إلى درجة لاتطاق »

وشعرا كأن أقدامهما قد ألصقت بالأرض . فلم يستطيعا حراكا ، وعقل الخوف لسانيهما فلم ينبسا ببنت شفة .

واستأنف الرجل يقول : «هل أستطيع تناول بعض الشاى بجانب هذه الموقدة ؟ » ، ولم يكلف نفسه مشقة انتظار الجواب ، بل جر نفسه إلى أحد الكراسى فتهالك عليه ، يهتز وينتفض من شدة البرد ، وكان الماء يتقاطر من ثيابه وحذائه وسائر بدنه ، وراح يحدجهما بنظره الحاد من تحت قناعه الأسود ، والتفت إلى عباس قائلا : « لحسن حظى وجدت معى مفتاحاً لهذا الباب ، لقد أسأت مقابلتى ياهذا حين دفعت الباب فى وجهى بلا روية ، فكانت

النتيجة أنك بترت جزءاً من سبابتى »

ورفع سبابته فاذا بالدماء تتقاطر منها . ففتح فتحى شفتيه محاولا الكلام فتلاشت الكلمات فى فمه ، وأطلق صرخة مزقت طيات السكون « رباه ! من أنت ! ؟ »

ودار الرجل بعينيه فى أنحاء الغرفة ، وقال ببرود : « عجباً ألا تعرفنى ، إننى أدعى مالير » ، وانتقلت عباس إلى الحجرة المجاورة ، بينما راح فتحى جسداً غادرته الروح . واستطرد (مالير) يقول : « إنهم يدعونى (مالير) ولكن مالنا ولهذا ! إننى أراكما فى نعيم وترف ، فلماذا تنبو بكما المضاجع حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ ... قال ذلك ونهض عن كرسيه فى تثاقل ، ثم اتجه فى هدوء إلى النافذة ، وجعل ينظر من خلالها ، ثم قال : ليلة غبراء قاتمة ! هاهو ذا المطر ينسق الظلمات فمنذا الذى يعطينى المدد من مأوى وشراب ؟ ونظر إلى أصبعه ينزف منها الدم فى غزارة ، وراح جسمه يهتز كالمحموم ، ثم أردف يقول فى عجل : « ستحدث اليوم جريمة أيها الشاب ، نعم ستحدث نكبة كبرى على شاطىء دوفر ، نكبة تهتز لها لندن من أقصاها إلى أقصاها ، ويتناقل أخبارها البرق إلى ما وراء البحار ، سوف تتحمل الهند وشعبها عبء الرزيئة الكبرى ، وسيصيبك ويصيب غيرك من شظاياها الشىء الكثير »

وبرز عباس فى هذه الآونة من الحجرة المجاورة ، وكان كالسكران يتخبط يميناً وشمالا ، وفى هذه اللحظة انطفأ المصباح فجأة ، فأغمض فتحى عينيه ، ودارت الدنيا أمامه دوراناً عنيفاً ، وخيل إليه أن نبضه قد وقف ، وسرعان ما سمع صوت رصاصة تشق لها طريقاً معيناً فى دوى مخيف ، واقترب عباس من صديقه بعد أن أضاء الغرفة — وكان دخان مسدسه

ينعقد سحباً فوق رأسه ـ فخاطبه والذعر يرسم خطوطاً بارزة على ثغره :
«لقد قفز الشق من النافذة ، فلم تصبه الرصاصة »

واستعاد فتحى رباطة جأشه ، وقال وهو ينفخ عن وجهه غبار البارود :
لم أر فى حياتى من هو أشد جرأة من صاحب هذه الشخصية ، عجباً لهذا الذى يدخل البيوت قسراً فيطلب حاجته بالوعيد والتهديد ! ثم تقدم إلى كرسيه فارتمى عليه وقال : «الرجل هالك لامحالة ، لقد نزف من دمه جزء كبير»

فقال عباس بعد أن زالت سورة نفسه : أخبرنى حامد ذات يوم أنه مهدد من جانب إحدى عصابات الطليان ، وذكر لى أنه لا يخشى غير إيطالى يدعى (مالير) ذو شخصية غامضة غريبة ، وهذا ما دعانى الى الإقدام على التخلص منه وعدم إمهاله عقيب ذكر اسمه حتى لا يأخذنا على غرة ؛ وأؤكد لك أنه بعيد كل البعد عن الميدان الذى نخوض غماره ، ولا يتصل بأعدائك بأدنى صلة إذ غايته السلب والنهب لسد عوزه .

فقال فتحى فى يأس « : ياصديقى ! إن قلبى يحدثنى بأن الرجل غير الذى تخيلت ، لقد ذكر شاطىء دوفر وجريمة أجزم بوقوعها هناك ، فكيف لا يكون من أتباع (فيجايا) الجدد ؟ ولم لا يكون مراده إلقاء الرعب فى قلوبنا وترسم خطواتنا ؟ إنه فى الواقع لم يأت بجديد ياعباس ! فالجريمة واقعة لا محالة »

فقال عباس : «قد يكون كل ماذكرته صحيحاً ، ولكن الحق ماقاله حامد »

* * *

بهت زجاج النوافذ بعد زمن ، وتسللت أشعة النهار إلى الغرفة فانتشر الضوء فى الجو ، وابتدأت الحياة تدب فى شوارع لندن ، وعلت أصوات أهل المدينة ، وكان كل ذلك يحدث بينما كانت السماء ترهم إرهاما خفيفاً ، ودق الباب ثلاث دقات انبعث على إثرها (عباس) كالنسيم الى الباب

لاستقبال صديقهما القديم ، وكان (رمزى) أصغر صديقيه سناً ، يشارف الخامسة والعشرين ، نحيل الجسم ، قوى الحيوية ، ذا عقل راجح ، ولب رصين ، فلما استقر به المقام بينهما هاله أن رآهما فى حال يرثى لها من الإعياء والشحوب ، رغم محاولتهما إخفاء مابهما وتكلفهما الابتهاج والانتعاش ، وراح ينظر إلى فتحى ويقول : « ماذا دهاك يافتحى ! مالى أراك هكذا مضطرب الأعصاب شاحب الوجة خائر القوى ؟ »

وكان فتحى قد نسى ماكان قد اعتزمه من عدم مفاجأة (رمزى) بالحقيقة ، اذ كان المفروض إذا ما ألم بأحدهما خطب أن يفضى إلى صديقه بمكنون صدره دون تلفيق أو تحفظ ، ولهذا ظل فتحى صامتاً لحظة ثم قال : « داهية دهياء من الصنف الذى يحتاج إلى مساعدة الأبرار المخلصين »

وقال عباس : « هل تناولت فطورك ؟ كم الساعة الآن ؟ »

والتفت (رمزى) إلى (فتحى) وقال بلهفة : « اسمع يافتحى ! أنى جد متشوق للوقوف على ماخفى من أخبار (غانم) و (ياغوس) . مادا تعرف عن هذه الجريمة الغامضة وأسرارها الخفية ؟ »

فاعتمد فتحى رأسه بيديه برهة ثم قال بحزن : « مسكين صديقك غانم ، لقد اختفى بطريقة خفية ، أما (ياغوس) فانه لم يمت »

فانطلقت من فم الآخر صيحة الدهشة : « يا لغرابة ماتدعى ! لقد حملت جثته حتى واروها الثرى »

فقال فى هدوء : « نعم ، ولكنه لم يمت ميتة طبيعية ، لقد مات مقتولا » .

ـ « قتل !! أين عقلك يافتحى ؟ » .

ـ « قتلوه قتلة خفية لم يكشف أسرارها حذق الأطباء »

ـ كيف كان ذلك ؟ وضح هذا الغموض يا أخى .

ـ قتله أتباع الزعيم (فيجايا) بطريقة خفية أثناء نومه ، لقد كنت أنا وغانم صديقين حميمين (لياغوس) فى الكلية ، كان والله شاباً فريداً فى جرأته ونبله ، كان بحاثاً مدققاً فطناً ، تأصلت بيننا الصداقة على مر الأيام وازدادت توثقاً حين ساورته الهواجس وازدادت مخاوفه من جواسيس الهنود الذين حاولوا تباعاً الغدر به ، وفى يوم ما ـ عقب الفراغ من محاضرة الدكتور براون ـ اتصل بنا (ياغوس) وأخبرنا أنا وغانم ، بعزمه على الافضاء بسر هائل كتمه عنا طويلا ، فشجعناه على ذلك لما رأيناه على وجهه من علامات الارتباك الشديد والقلق البالغ ، قال لنا ـ وكان ذلك منذ شهور ثلاثة ـ : إن ابن عمته ـ ويدعى (فيجايا) ـ يزور لندن بعد أيام ومر فقته كريمة عمه وهى سباحة فاتنة تدعى (توليات)

ورفع (رمزى) رأسه فوراً وقاطعه دهشاً ـ توليات ! تلك التى أفاضت الصحف فى وصفها البارحة ؟

ـ أظن ذلك ، فماذا قالت الصحف وما ذا قال الناس ؟

ـ الغريب أن الناس ينتظرون أخبار عبورها المانش اليوم بفارغ الصبر ، لقد قالوا إنها سباحة بطلة لايشق لها غبار ، وفوق ذلك فقد عدتها جريدة (الديلى ميل) من ملكات الجمال ، وأطنبت كثيراً فى وصف ملاحتها وحسنها ، ولقد سمعت عن تحدى الكثيرين لها من الجانب الفرنسى والانجليزى وذكرت جريدة (الطان) الفرنسية أن الفتاة تبدأ سباحتها من الشاطىء الفرنسى إلى الشاطىء الانجليزى ، وأن عدداً كبيراً من غانيات باريس سيرافقنها فى الزوارق البخارية احتفاءً بها .

وعاد فتحى بعد لحظة إلى حديثه الاول ـ وكان يجاهد فى إخفاء تأثره

البالغ ـ فقال: كذلك قال ياغوس : إن الغرض من زيارتها التنزه فى العاصمة الانجليزية وضواحيها بضعة شهور تحاول فى نهايتها عبور القنال الانجليزى، ثم ترجع إلى بلادها عن طريق الأراضى الفرنسية ، ولما سألته عن سبب انزعاجه من هذه الزيارة قال إنها لن يحلا عليه ضيوفاً كما كان يؤمل ، إذ ستأوى الفتاة ـ رغم إرادتها ـ إلى قصر كان قد ابتاعه فيجايا منذ أمد ، وأردف يقول : إن (فيجايا) رجل سفاح طاغية ، وإنه يعمل جهده للاستيلاء على ثروة والد الأميرة ؛ لذلك أحاطه هو ونجليه بسياج من جواسيسه وعيونه ، وراح من جهة أخرى يسعى سعيه للقضاء على الأمير ، فأعطاه أثناء نومه حقنة خبيثة أصابته بشلل شديد ، وبذلك تخلص من رقابته وتأكد من دنو أجله ، فتفرغ لادارة كأس المنية على ولديه الطاهرين ، وقد تم له ذلك حيث أفلح فى إخماد أنفاس ابنه (جوجر) بلندن على صورة خفية خالها الناس قاطبة ميتة طبيعية ، وخلا الجو بعد موت (جوجر) لفيجايا ، ولم يبق له من معاند غير الفتاة ، إلا أنه لم يبيت لها الغدر إذ كان يهواها ويمنى نفسه بالزواج منها ، غير أنها حطمت آماله فانقلب حبه لها مقتاً وكراهية ، فعول على القضاء عليها بوسائله الجهنمية ، فأغراها بالمجىء إلى لندن لعبور المانش جلباً للشهرة وابتغاء الصيت الواسع ، فوافقته لسلامة نيتها ورضيت بخدمه الأشرار حاشية لها ، ولما سألنا (ياغوس) عن السبب الذى حملها على الرضوخ لمشيئة (فيجايا) وقبول أتباعه حاشية لها مع علمها بمكرهم وعدائهم ، قال إنه والدها المريض المخبول ، وعاد فذكر أن (فيجايا) أفلح إلى حد بعيد فى التأثير فى الشيخ المريض كى يجبر الفتاة على إطاعته فى كل ما يأمر به ، بل إن ضعف الأمير واستسلامه له أدى به إلى إرغام فتاته على حلف يمين الاخلاص لابن عمتها

وإطاعته إطاعة ولى الأمر منها ، وجى (فيجايا) من ذلك ما كانت تصبو إليه نفسه الشريرة ، فرسم خطة السفر تبعاً لأهوائه ، وبمقتضاها استنزل الفتاة فى قصره بلدن وسط جو مكفهر طافح بالشرور والمكائد ، وقد أرسلت إلى (ياغوس) ترجوه عدم معاندة (فيجايا) فى لندن خشية بطشه بها وبه فى أرض الغربة ، وذكر (ياغوس) بعد ذلك أسماء الخدم المرافقين لها ، وكان من بينهم واحد يدعى (بيتو) وكلما ردد اسمه سرت القشعريرة فى بدنه ، وقال عنه إنه أخبث رجل عرفته الهند ، ويتوقع حول مصاب جلل على يديه .

وسكت قتحى قليلا ثم استأنف يقول : هكذا قال (ياغوس) منذ ثلاثة شهور ، وهكذا تحقق ظنه كما ترى ، ويحتمل ألا يقف الاعتداء عند كارثة (غانم) و (ياغوس) ، وأنا شخصياً أتوقع حلول مصاب اليوم ، وأعتقد أن دور الفتاة قد حان بعد أن أمهلوها شهور الغزه التى قضتها بيننا والتى مرت على عجل لايبرز منها غير صورة ذلك اليوم الأغبر ، صورة الاجرام والغدر والاثم تنكشف عنها الأيام ، يوم قتل (ياغوس) ونكل بجسد (غانم) بوحشية دونها وحشية الضوارى ، ستكون ميتتها اليوم كميتة ابن عمها خفية غامضة ، ولست كاذباً إذا أكدت وقوعها فى عرض القنال تحت سمع المراقبين وبصرهم

فاعترض رمزى على الفور : المراقبون من الانجليز لا من الهنود ياأخى ، بل هم من الموثوق بهم من جميع الأوساط الارستقراطيه هنا وبعيد جداً أن يسهل وقوعهم فى الخطيئة حباً فى سواد عيون (فيجايا) وأتباعه ، وأعرف أن من بينهم ثلاثة أصدقاء للبرنس (أوف ويلز) وغيرهم

من أبناء أعاظم اللوردات ، ممن دفعهم عشقهم للفتاة وبطولتها إلى مرافقتها طول الطريق ، فالفتاة آمنة لامحالة .

وقال فتحى موضحاً الأمر : ما قصدت من حديثى هذا إلا أن ألقى فى روعك أن ميتتها ستكون مدهشة خفية ، فان قلبى يحدثنى بذلك

فأجاب رمزى فى لهجة يشوبها اليأس : إن دمها فى عنق (ياغوس) يا فتحى ، لقد راح (ياغوس) ضحية جهله ، فلقد كان أحرى به وأجدى عليه لو أخبر البوليس بمعلوماته وأسر إليه بمخاوفه وهواجسه قبل قدوم (فيجايا) . وفى اعتقادى أنه لو فعل ذلك من قبل ، ما كان ليحدث ما حدث ، ولاستطاع وقتئذ أن يوقف المعتدين الآثمين عند حدهم .

ومن ثم احتبس فتحى فى نفسه ، وتأججت نار لاذعة فى قلبه . وأشاح بوجهه جانباً ، ثم اعتدل (عباس) فى مجلسه وقال : « البوليس ! آه يا أخى لو تعلم ! يكفى أن هذا البوليس وقف أمام حادثة صديقك (غانم) وقفة اليائس المذهول ، لقد اختفى (غانم) بعد أن نكبوا به أعظم تنكيل ، وظلمت علينا الصحف فى حينها تقول باحتمال وقوع النكبة لحزازات بين طلبة الشرق وبعضهم ، بل تجرأت على اتهام خصوم معينين من الطلبة ، وألصقت الجريمة بهم وفاتها أن مثل هذه الحزازات مهما بلغت من الشدة فلن تعدو التدابر إلى الاجرام وإزهاق النفوس ، هكذا قالوا ، وهكذا صوروا الحادث على غير حقيقته ، أما العارفون بالحقيقة فقد كتموا السر فى بطونهم وألجمهم (فيجايا) بانذاراته ووعيده حتى ألقاهم فى حمى الفزع والذعر والارتباك . . . أليس كذلك يافتحى ؟

فأجاب المحزون ـ وهو يمسح عبراته فى الخفاء ـ : ذلك لأنهم لم يألفوا الاجرام والمجرمين .

وزفر رمزى زفرة عميقة وقال : « مساكين هؤلاء الشهود ! »

وقام عباس إلى حجرة مجاورة ثم عاد يقول : «حان الوقت ولم يبق غير زمن يسير ، والتفت فتحى إلى رمزى ـ وكان يغمر وجهه اصفرار شديد ـ ثم قال : استعد فقد آن لنا أن نرحل

ـ نرحل ! وإلى أين ؟

ـ إلى الشاطىء ... شاطىء دوفر

فقال بصوت عال : أحقاً ماتقول ؟

ـ هيا لقد أزف الوقت أو كاد .

ـ اسمع يافتحى ! لقد آمنت بوقوع المصاب ؛ فهل لك أن تعدل ؟

ـ ألا تحب أن ترى الحسناء فى لباس الحمام ؟

ـ كأنك عازم على الرحيل إلى الشاطىء الفرنسى حيث تبدأ سياحتها ؟

ـ كلا ! سننتظرها على الشاطىء الانجليزى

ـ أواثق أنت من وصولها سالمة ؟ إذن ماهذا التناقض ؟

ـ لن تصل سالمة ، ولكن لابد من الذهاب

ـ أتدرى أننى كنت أود . . .

فقاطعه عباس من الغرفة المجاورة بصوته قائلا : يلوح لى أنك لم تتناول بعد طعام الفطور ، ومع ذلك فيمكننا ـ لضيق الوقت ـ شراء بعض المأكولات إذ قد يطول انتظارنا على الشاطىء

فقال رمزى ـ وقد تخاذلت أعصابه ـ : المسألة تتلخص فى أننى أخشى أن يستقر نظرى على الجريمة وأنا لم آلف الاجرام .

قال فتحى ـ وهو يهم بالنهوض ـ : مساكين هؤلاء الشهود ! ثم سار

إلى حجرة نومه واستأنف يقول : أحب أن أراك معنا فى هذه النزهة ، وسيعمد (عباس) إلى تسليتنا فى الطريق .

* * *

كان الشاطىء حين وصلوه يعج بالناس رائحين غادين ، وسمات الاهتمام بادية على وجوههم ، وكانت أصوات جلبتهم تدوى عن كثب من جميع النواحى ،غير أنه كان يتعاودها السكوت فجأة ، وسمع (عباس) ـ أثناء دنوهم من الحشد الزاخر ووسط سكتة من سكتاتهم الفجائية ـ صوتاً لمكبر صوتى (لاسلكى) يقول :

ـ بلغت الاميرة (نوليات) الثلث الأول بتفوق .

ـ تراجع (جيمس) بعد جهاد لم يدم طويلا .

ـ ظهر الاعياء على (دولس) وصديقها (اكرمان) .

ـ تسير (سوزان) و (لويد) و (سميث) بخطوات واسعة .

وارتفع إثر ذلك الصوت هدير هائل ، واهتزت آلاف السواعد ملوحة بمناديلها فى الفضـاء .

صار ثلاثتهم حتى بلغوا الجموع فاندمجوا فيها ، على أنهم لم يشتركوا فى مظاهراتهم الحماسية لما كان يغمرهم من مخاوف وهواجس وظنون . وتقدم فتحى بضع خطوات ثم عاد يسـأل (عباس) بصوت متقطع من الرعشة : هل رأيت (فيجايا) ؟ وجذبه من ذراعه قائلا : انظر الى هذه البقعة البعيدة، إنها الجناح الخاص بصفوة القوم وجلتهم ، وأؤكد لك أنه هو الثانى إلى اليمين ، إنه صاحب الوجه الداكن الوحيد ، على أننى لاأقدر على تمييز ملامحه . وأنزل المنظار المكبر وناوله صديقه،فأخذه عباس وراح ينظر من

خلاله إلى الجهة التى أشار اليهـا على امتداد الرصيف الواقفين عليه ، ثم وضع المنظار بعد برهة وقال : قد يكون (فيجايا) خير لى إذاً أن أقترب نحوه لنتدبر الأمر

فهمس فتحى : هـذا حسن ، ولـكن عليك بالحذر ، يجب ألا يعلم بوجودنا على الشاطىء ، وألا فأنت تعلم العاقبة .

فقال بثبات : لا تخف ، أحب أن أراكما فى هذه البقعة ، لا تتعديا حدودها حتى يتيسر لى الاهتداء إليكما حين العودة .

قال ذلك ثم خطا بضع خطوات اختفى بعدها وسط الجموع واحتجب عن ناظريهما ، والتفت فتحى إلى صديقه وقال : لم أرأشجع منه فى المعمور .

فقال رمزى وهو يرقب القنال بنظرات تائهة : ولـكن شجاعته لم تحل دون وقوع نـكبة غاشم وياغوس ، لو كان حاضراً لما سهل على الغادرين الفتك بهما ، إن أعماله فى شركة الملاحة تستدعى غيبته ودوام سفره بين أوربا وأمريكا ، وهذا ما حدا بى إلى الاستنجاد بك فى الواقع .

سكنت جلبة القوم فجأة ، وساد صمت لا تشوبه غير أصوات الأمواج المتلاطمة فى تلاشيها على الشاطىء وأصاخت الأسماع إلى صـوت المـكبر اللاسلـكى يقول : ما تزال الأميرة مالـكة لنشاطها العجيب ، التقط الحـكمدار (جيمس) بعد أن خارت قواه ... تراجع أكرمان وسوزان ولويد ، فالتقطهم الحـكمدار بعد أن أشرفوا على الغرق ... تغير الجو واشتدت الأمواج ولم يبق فى الماء غير الأميرة ودولس وسميث ... ما تزال الأميرة متفوقة ... الجميع معتقدون بفوزها . وفى إثر ذلك علا هتـاف الجماهير للأميرة الحسناء ، ورفع الـكثيرون النظارات المـكبرة يفحصون بها عرض القنال ، ثم سكنت الحركات إلا من أصوات خافتة مرتعشة صادرة عن أفواه المراهنين حتى

كأنما انقلب الشاطىء إلى ساحة عبادة ، فلا تكاد تسمع غير همسات ضراعة ولا ترى الا أيادى مرتعشة على صدور واجفة وأعناق متطاولة إلى طريق المتسابقين فى لهفة وارتعاش . وبعد لحظة ظهرت الزوارق عن كثب وكأنها نقط سوداء تقترب ببطء ، ثم كبرت رويداً رويداً حتى بلغت حداً لم تتعداه رغم توالى الزمن ، وانتظر الجميع دنو الزوارق ورفعوا المنظارات يرقبونها فرأوها كأنما قد استقرت فى بقعة لا تتحرك ، ومرت الدقائق تباعاً والزوارق كما هى تبدو نقطاً سوداء لا تتحرك .

عاد (عباس) بعد زمن يسير خافض الجناح ، وفى حلقه غصة لا يملك معها الكلام ، وفى عينيه دمعة تترقرق ، بحث عن زميليه طويلا فلم يقف لهما على أثر ، وأسرع دهشاً يبحث عنهما بين الجموع ، وعاد فتنبه فجأة إلى صوت رمزى بين جمع من الناس ، والتفت يميناً فرآه ... وليته ما رآه ، ثم حاول أن يتكلم فاحتبست الكلمات فى حنجرته ، وعقل الخوف لسانه ، فقد وقع نظره عليه يحادث (بيتو) الشيطان الدميم ، رآه فى ثياب إفرنجية متخفياً فى سحنة القرود ، ولمح فى عينيه شعاعهما الخبيث ، فجال بعينيه باحثاً عن صديقه الثانى فلم يعثر عليه ، فجر نفسه جراً وستر نفسه خلف بعض الأفراد ، وراح يرمقهما بنظرات تائهة مجردة عن كل شعور ، وأحس بعد لحظة بيد تلمسه من الخلف فالتفت فاذا به يرى صديقه (فتحى) كأنه جسد جف فيه معين الحياة ، داناه وكان يهتز كالمحموم قائلا :

انظر لقد ضللنا بعضنا فى طريق البحث عنك . لقد وقعت الجريمة ياعباس فى عرض القنال كما تنبأت .

فقال ـ وهو يكظم صرخة الألم ـ : لندع الله يفعل ما يشاء ، يجب أن نتحمل المصاب ولا نيأس .

لقد اختفت الأميرة منذ ثلث ساعة ، أخبرنى احد عمال الاشارات بذلك .

فوقف إلى جواره يبكى : مسكينة والله هذه الفتاة ! لقد أغرقوها ولم يكتمل نصرها بعد .

وراح الآخر يخفف عنه : ما باليد من حيلة ، كل ما فى استطاعتنا بذلناه . . أما البوليس فلا يمكن إطلاعه على خبر يزيد شقوتنا وبؤسنا . . .

اسمع : هل رآك (بيتو) ؟

ـ كلا ! إنما أخشى أن يجر (رمزى) إلى حديث يفضح من أمرنا وهو لا يدرى من أمره شيئاً

ـ صه إنه قادم ، لقد اختفى (بيتو)

ونظر فرأى صاحبه يسير متخبطاً وسط الجموع ، أما (بيتو) فقد ذاب واختفى من الوجود ، تسللا خفية وانحنيا فى طريق إلى اليمين ، ثم عرجا فجأة وظهرا أمامه وجهاً لوجه .

ـ ها لو رمزى ! . . . أين كنت ؟

فلما وقع نظره عليهما انطلقت من فمه صيحة الفرح : هو أنت ياعباس ؟ ! لقد أقلقنا غيابك كثيراً . فسأله فتحى على الفور : اسمع يا رمزى ! هل تعرف هذا الرجل الذى كنت تخاطبه منذ لحظة ؟

ـ أوه ، هل تعنى هذه السحنة المشوهة المخيفة ؟

ـ نعم

ـ رجل ولا كالرجال يا أخى ، لقد اعترضنى فى الطريق وسألنى عن سبب هذا الزحام ، وتعمقنا فى الحديث عن الأميرة ، وألقيته أجهل من دابة فى هذا الموضوع .

ـ هل أخبرته عن وجودنا على الشاطىء ؟

ـ لم أخبره أبداً ، ولم يتناول حديثنا غير الفتاة ، ومع كل فلم هذا الاهتمام الكلى بمثل ذلك الصعلوك ؟

ـ اسمع يا رمزى ، يجب أن تحذر هذا الرجل فى المستقبل مادمت قد قبلت مشاركتنا مانحن فيه ، إنه (بيتو) جزار (فيجايا) الذى لايرحم .

* * *

انتظرت الجماهير على قلق دنو الزوارق غيرأن انتظارهاأصبح بلا طائل، ومضت ساعة ساد فيها الاضطراب والارتباك بين الصفوف ، ولا زالت الزوارق فى حجمها الأول لم تزدد ، وبعد عشر دقائق تنبهت جموعهم فجأة إلى صوت اللاسلكى يقول :

ـ اختفت الأميرة نوليات فجأة عن أعين المراقبين عقب موجة مفاجئة ، يقول البعض إنهم رأوها تهوى إلى القاع كأن حوتاً قد ابتلعها فى جوفه،وقد كانت إلى آخر لحظة نشيطة قوية، وكان لواء النصر معقوداً عليها... عدل سميث ودولس عن إتمام السباحة من هول الفاجعة ... وأذيع الخبر إلى الجهات المختصة . . . لم يعثر على الأميرة رغم الجهود الجبارة التى بذلت لانقاذها والبحث عنها . . . لقد راحت مبكياً على بطولتها ومأسوفاً عليها من الجميع .

الفصل الثالث

السر

توجه عباس إلى النافذة المطلة على الشارع الرئيسى ليفحص الطريق ، بينما كانت أصوات الجالسين فى الحجرة ونقاشهم لايقف عند حد، وكانت آخر كلمات فتحى لأصدقائه الملتفين حوله : هذا كل ما أخبرنى به (ياغوس) .

رمق (عباس) الشارع بنظرة فاحصة خلال الستائر فرأى سكوناً تاماً، بينما كان الثلج ينزل رخواً هشاً فيعلق بكل ماهو بارز من أجزاء المنازل ، فى حين امتلأت الأرصفة بأكوام منه حتى كاد السير على المارة يكون مستحيلا إلا إذا تحملوا بعض العناء لانغراز الأقدام فيه ، ومع ذلك فقد أكسبت الأنوار الكهربائية الشوارع حلة قشيبة حين سطعت أشعتها متلألئة فوق أكداس الثلج فبدت ذات فتنة وبهر.

ثم أنزل الستائر بعد برهة ، ونظر إلى الخلف ودار بعينيه فى الجالسين تتلاعب شفاههم بالحديث ، ولم يكونوا سوى أربعة يجلسون إلى منضدة مستديرة وسط الحجرة . كان هناك فتحى بوجهه القمحى الحزين ، ولونه

الشاحب يجلس إلى جوار صديقه (رمزى) ثابتاً رزيناً ، ثم (حامد) العملاق الأسود ، وشقيقه (عبد السميع) فراش نادى الطلبة المصريين ، يرتديان (السكسكت) والرداء الانجليزى ذا الجيوب البارزة . سار (عباس) بخطوات سريعة إلى ناحيتهم بعد أن أغلق النافذة وأخذ مكانه بينهم ، بينما ابتدأ (فتحى) يسرد عليهم ماخفى من نكبة (غانم) و (ياغوس) ؛ وما أحاطها من غموض ولبس ، واستهل الموضوع بقوله : هكذا كان بدء اهتمامى بمسألة (ياغوس) ، وفى أحد الأيام عقب الانتهاء من الدراسة ـ وكان ذلك منذ ثلاثة شهور أو تزيد ـ لحقنى (ياغوس) بباب الجامعة . وبرفقته صديقنا (غانم) وأخبرنى بأن (فيجايا) والدتاه وصلا منذ ثلاثة أيام ؛ وأنهما يدعوان ثلاثتنا لتناول طعام العشاء فى قصر (فيجايا) الليلة . ورجانى (ياغوس) أن ألبى الدعوة واشترك معه (غانم) فى الرجاء تبعاً لقواعد اللياقة ؛ ولما ذكرته بفيجايا وشروره التى كان قد أخبرنا بها قال إنه أظهر له من حسن النية أول البارحة ماجعله يطمئن إليه ، وأضاف (غانم) فقال إنه هو الآخر قد لاقى من الرجل كل مجاملة ولطف عند مقابلته له على الشاطىء ، ولذلك فقد عولا على تلبية دعوته للعشاء ، وقالا إنها فرصة تتيح لى رؤية الفتاة البارعة الفتانة . ترددت فى قبول الدعوة . ولم أوفق إلى وسيلة أستطيع بها الاعتذار إلى (ياغوس) لأننى كنت موقناً بأن هذا الجو لا يصلح لمثلى العيش فيه ، ذلك لما كان يحوطه من إبهام وغموض ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى رأيت أن وقتى الدراسى لا يتسع لمثل هذه الحفلات والزيارات وأشباهها التى قد تطول الشهور حسب البرنامج الذى أعدوه ، والذى يؤدى بطبيعته إلى هدم نشاطى فى الاستذكار ، وتحويله إلى الاهتمام بمسائل تهدد حياتى الطليقة الهادئة فى الصميم ؛ ومع ذلك كله فلم أجرؤ على أن أدع

(ياغوس) يدرك رغبتى فى رفض الدعوة أوالعدول عن الخطة التى رسمناها لانقاذ الفتاة من براثن (فيجايا) وأتباعه . ذكرت ياغوس للمرة الثانية وطلبت إليه أن يفكر فى الموضوع ملياً حتى لا تخدعه الظواهر ، فقال إنه لا يزال يعده الرجل الشقى المستبد العاتى وقال : إن الفتاة يجب أن تصان من غدره ، وأردف يقول ـ عند ما لمح ترددى وشكوكى ـ : اصغ إلى يافتحى ، أترفض مساعدتى ؟ ، أترفض دعوة هذه المسكينة ؟ تكلم أترفض رؤيتها والتعرف إليها وهى أحوج ما تكون إلى المخلصين أمثالك ؟ لقد قبل صديقك (غانم) بلا تردد .

عاودنى قلق وأجبته على مضض : كلا ، أقبلها من أجلك ، إخلاصاً ووفاءاً للعهد .

ومضينا كل إلى منزله انتظاراً لساعة التلاق ، قضيتها ساعات كلها هم وكدر واضطراب ، ومن السهولة إدراك ما توارد على ذهنى من الافكار وقتئذ ، فقد كان ما ذكره (ياغوس) فى الماضى عن (فيجايا) ومكائده يهز بدنى ويمدنى حزنى وخشيتى لا سيما وأنا شاب لم يألف جو المخاطرات والمهالك طوال حياته ، فضلا عن جهلى التام بالمسألة على حقيقتها ، وقد كنت أراها أمامى مضطربة معتمة غامضة ترعد لظلمتها فرائصى ، فعزمت على نقض عهدى ومخاطبة (ياغوس) عند حضوره بحرية وصراحة ، وأخذت أعد الدقائق فى وجل وذعر ، حتى جاء ياغوس وغانم فى المساء ليصحبانى إلى عرين الأسد ـ وكان قلبى قد وعدنى بالثبات ـ فلما حانت الساعة ورأيتهما أمامى تغير عزمى وضعفت إرادتى . أخذنا سمتنا إلى القصر فى سيارة (ياغوس) ، فلما بلغناه استقبلنا هناك صف من الحراس بأبلغ مظاهر الاجلال والتعظيم ، وأرانى من بينهم خفية كلا من (زامورا)

و (فيداس) و (مانجو) و (نصرتا) ، أما (بيتو) فقد كان متغيباً فى فرنسا ، وبعد لحظة وقفنا على السلاملك وجهاً لوجه أمام (فيجايا) العملاق الذى كان مرتدياً ثياباً إفرنجية فاخرة ، وبجواره (نوليات) السباحة البطلة.

كان الرجل دقيق التقاطيع ، حلو الابتسامة ـ رغم مظاهر القسوة المتجلية فى شعاع عينيه وعلى شفتيه ـ ، وكانت الفتاة بيضاء تتألق فى ثوب رقيق مفعمة إشراقاً وبشراً ، وتبرز تقاطيع بدنها فتانة بديعة البناء والتكوين ، ثم أسرعا إلينا فأمطرانا من التحية فيضاً ، وراحا يسيلان فى استقبالنا عذوبة وبشراً . وفى هذه اللحظة ـ أى فى اللحظة التى رأيتها فيها تضغط على يدى بابتهاج وحرارة ـ تغيرت حالى فجأة وسرعان ما تبخر همى ونكدى ، وانقشعت سحب الحزن التى كانت تفيض بها نفسى ، وحل مكانها ابتهاج وانتعاش لم أدر لهما كنهاً ، وأستطيع أن أقول إننى همت بها منذ اللحظة الأولى ، وأدركت ـ وأنا على المائدة ـ أننى مفتون بها حقاً ، وغمرنى شعور غريب دفعنى إلى إطالة التحديق فى وجهها المليح وجسمها العجيب الفاتن ، وسمعت منها حديثاً رائعاً بهرنى وزادنى تعلقاً وكلفاً بها واهتماماً بأمرها.

انصرفت إلى منزلى ـ بعد سهرة طويلة ـ وكانت صورتها تملأ ذهنى فى كل لحظة من لحظات ليلتى الطويلة ، ونبا بى المضجع ، أحاول النوم فلا أعرف السبيل إليه ، ولم يعد للرشد مكان فى نفسى ، وشعرت بشوق حار إلى رؤية الفتاة التى اعتقدت أننى لابد قد أحببتها . انتظرت اليوم الثانى بصبر بالغ ، وما أن انتهيت من الدراسة حتى أسرعت إلى قصرها ، فألفيتها فى الحديقة وحدها كأنها فى انتظارى ، وما أن رأتنى حتى قفزت ناحيتى تفيض مرحاً وبشراً ، ومن ثم سرت بجانبها إلى جناحها الخاص ، وهناك جلست بجوارى وكنت مضطرباً لا أقوى على امتلاك زمام نفسى . حادثتها كثيراً

فى أمور شتى ، فوجدتها ذات إلمام كبير وخبرة واسعة بشئون جمة ، وطال أمد هذه الحال ، وكنت أوالى زيارتها أياماً عدة ، وكثيراً ما كنت أصطحب معى (ياغوس) و(غانم) خشية غمزات الأتباع وهمسات المترصدين ، وكنا نجد (فيجايا) فى بعض الأحايين ، غير أنه كان كثير التغيب عن القصر ، وكان إذا وجدنا هناك يقابلنا مقابلة كلها إيناس وعطف ومحبة تنسينا ما كنا نحمله له من مقت وكراهية وحذر .

حاولت أن أفاتحها خلال هذه الزيارات بالسر الذى فاض به قلبى ، غير أن الخجل كان يعقد لسانى ، فأرانى عاجزاً عن التفوه بكلمة واحدة تخفف من لوعة هيامى ، لاسيما وقد رأيتها الأخرى على غير استعداد لسماع حديث غرامى . أمضتنى هذه الحال ونتج عنها إهمال دروسى ، وعزمت تلقاء ذلك على الرجوع إلى حياتى الأولى ، وكسر الأغلال التى قيدنى بها حبى لها ، فاحتجبت طويلا ورحت أجاهد — فى سبيل الخلاص من أسرها — جهاداً نفسياً عنيفاً ، وقضيت فى هذا الجحيم شهراً تقطعت خلاله نياط قلبى ، وذابت حبة عينى ، غير أننى أفلحت بعض الشىء فى الالتفات إلى الدرس ، والخروج من الميدان موفور الكرامة . وكثيراً ما كان يأتينى (ياغوس) مستفسراً عن سبب قطيعتى لهم ، ويلح فى وجوب زيارتى لها ، فكنت لا أعدم المعاذير الوجيهة المقنعة ؛ وفى صبيحة يوم ما جاءنى (غانم) أثناء الدرس ، يحمل إلى رسالة منها تقول لى فيها ، إنها لا تذكر أنها أساءت إلى بما يسبب قطيعتى لها ، وقالت إنها تعودت وجودى بجوارها ، ورجتنى فى ختامها الرجوع إلى سيرتى الأولى ، فأرسلت إليها الرد ، ولم أشأ أن أعبر فيه عما أكنه لها من حب وولع ، فقد كان ذلك فى نظرى جافاً متنافراً .

لزمت مع ذلك جانب الصمت والعزلة ، مع علمى اليقين بفشلى التام فى هذه المحاولة . كانت حرباً عواناً وكانت ناراً حامية مزقت فؤادى وأحرقت كبدى ، ومع ذلك عولت على المضى فى سبيل لطم عواطفى وهدم آمالى بعناد وإصرار ، فعكفت على دراستى ، ومضت الأيام تباعاً وأنا أحاول فيها جهدى عدم الاتصال بياغوس أوغانم نأياً عن ذكراها ، ولكن حدث فى مساء ليلة ما ، أنى كنت فى طريقى إلى المنزل ـ عقب محاضرة ليلية ـ فقابلنى عباس وأنبأنى بوجودها فى شقتى وانتظارها إياى زمناً طويلا ، فأسرعت إليها ، وكانت الأرض تميد تحت قدمى ، وسرعان ما وقفت أمامها وجهاً لوجه . حاولت الكلام فماتت الكلمات فى فمى وفارقنى ثباتى وذهب معه رشادى وسكونى ، وقامت فحيتنى تحيتها الرقيقة العذبة ، وجلست إلى جوارها غير قادر على امتلاك زمام أعصابى بأية حال ، وتوسلت إلى أن أفصح لها عن سبب هجرانى لها طيلة هذا الزمن ، وشرعت تشرح لى ما قاسته خلال ذلك من الهواجس والظنون ، ثم قالت إنها تعودت رؤيتى وأنست إلى وجودى بقربها ، على أنها أبت أن تغامر بالمجىء إلى منزلى خشية (فيجايا) وانقلابه ، وطفقت على الفور تعاتبنى فى لغة نفذت إلى نفسى فهزت مشاعرى ، وشعرت بشوق مبرح يدفعنى إلى الاعتراف بالحقيقة حيث نضب الصبر وقل معينه ، فاعترفت لها بحبى ونسبت انقطاعى عنها إلى شقوتى ورغبتى فى مراعاة اللياقة وتباين المركز ، وسرعان ما تقبلت كلماتى بالعطف والحنان ، حتى خيل إلى أننى أسعد أهل الأرض طراً .

أعلنت إلى بعد ذلك رغبتها فى عدم زيارتنا لها فى قصر (فيجايا) بعد اليوم ، وقالت إنها ستكتفى بزيارة كل منا فى منزله وفى كل مناسبة ؛ ولما سألتها عن السبب أجابت بأنها تخشى (فيجايا) ونقمته علينا ، وأضافت

إلى ذلك أنها لمحت عليه تغيراً واضحاً خلال هذه الأسابيع ، وأنها تنتظر رجوعه إلى حياته الشريرة الأولى وبخاصة بعد استدعائه لبيتو من فرنسا ، ثم قالت إنها لا تخشى فى الناس غير هذا الرجل الذى نعتته بأحط النعوت ، كذلك تكلمت كثيراً عن (فيداس) و (زامورا) و (نصرتا) وفتاة تدعى (ناديا) ، وقالت عن هذه إنها الوحيدة التى بقيت على إخلاصها ووفائها ، وذكرت أن (فيجايا) يعاملها حتى آخر لحظة أحسن معاملة ، ولا زالت بينه وبين خدمه ربة القصر معززة مكرمة ، على أنها تخشى انقلابه القريب بعد استقدامه لبيتو من فرنسا ، وكانت قد أشارت بابعاده قبل رحيلها ، وقالت باحتمال وقوع الشقاق بين ياغوس وفيجايا عاجلا ، هذا إذا لم يمتد إلى غانم وإلى شخصى ، وذكرت أن خلافاً وقع منذ أيام بين غانم وفيجايا أثناء لعبهما الشطرنج ، وقالت إن (غانم) وجه للآخر عبارة عدها قذفاً فى حقه ، مع أنه لم يقصد منها غير المزاح ، ورغماً من اعتذاره فقد غضب (فيجايا) ودخل حجرته متجهم الوجه مكفهره ، وقد حاولت هى أن تصلح ما بينهما ، ولكنها عجزت عن استرضاء ابن عمتها الحانق ، وخرج (غانم) و (ياغوس) مغضبين ، ومن ذلك الوقت لم يتردد على القصر ؛ فراحت هى تعمل على زيارتهما فى منزلها ولم تلق من (فيجايا) معارضة فى ذلك .

هذا ما قالته الأميرة فى زيارتها الأولى ، ومرت الأيام وهى توالى زيارة كل منا فى شقته ، وكثيراً ما كنا نجتمع فى شقة غانم أو ياغوس ، فقد كانا يسكنان فى منزل واحد ، ويختص كل منهما بشقة حيث تتقلب الأحاديث بين جد ولهو ترفرف علينا السعادة بأجنحتها الذهبية وتزيح عنا ما كنا نرزح تحته من أعباء النكد والوحشة المضجرة . كانت الفتاة مثالاً أعلى لسمو

الأخلاق وحلو الحديث وصفاء الذهن وخفة الروح ؛ فكانت عندنا الدنيا بأسرها، بل كانت ملاذنا الأوحد ، ووددنا لو أتيح لنا الموت فداء لها النترامى على أسنته باذلين المهج زهيدة رخيصة ، غير أنها ما كانت لتظهر لنا شيئاً مما كنا نعتقد أنها غارقة فيه ، كأنها كانت تأبى إثقال صحبتنا السعيدة بالهموم ، ففضلت الكتمان ولزمت الصمت والسكون .

سارت صحبتنا فى سبيلها من الهدوء والاطمئنان والثبات ، وتركزت محبتنا فى القلوب حتى كان غياب أحدنا ليلة عن لقاء الآخرين موضعاً للانشغال والقلق ، وباعثاً على حديث ذى بال. اعتدنا أن نذهب كل ليلة إلى دور السينما والتمثيل فى سيارة الأميرة ، وعند الانتهاء كانت تصحبنا إلى منازلنا فى سيارتها التى كانت تقودها بنفسها ، وعند ما ينزل ياغوس وغانم إلى سكنهما كانت تستأنف السير بى إلى شقتى ، ومن هناك تنطلق وحدها إلى قصر (فيجايا) . وفى ليلة ما أزال أذكرها كما تذكر الأم مذبح وحيدها فى حجرها ، تلك ليلة الفراق والهول والعيون الدامية والألباب المشدوهة والفرائص المرتعدة والوجوه العابسة الشاحبة ، ليلة الجريمة والثأر والاثم والعدوان ، وكان ذلك عندما كنا جالسين فى شقة (غانم) استعداداً للذهاب إلى السينما ، أقبل علينا ياغوس من شقته العلوية بوجه جامد شاحب مستطيل ، فدخل علينا الخوف وقمنا فزعين نسأله الخبر ونفتش فى نفسه عما سبب له هذا الالتياع والرعب، فقال وهو ينتفض فى كرسيه كالمحموم:

« بيتو فى مكتبى يعبث بأوراقى ، لقد رأيت وجهه الكالح وعينيه القاسيتين تلمعان كعينى جرذ فى ضوء مصباح ضئيل يحركه بيده ، لست أخافه يا أصدقائى ، وليس اضطرابى نتيجة رؤيتى إياه ، إنما أخشى أن تمتد يده الأثيمة إلى أكثر من واحد منكم » .

تسابقنا إلى الطابق العلوى ، وكانت الأميرة الجريئة فى الطليعة ، وقد رفعت فى يدها مسدساً صغيراً . تركنا (غانم) وحده إذ كان بديناً لا يستطيع ملاحقتنا ، وصعدنا ثلاثتنا إلى شقة ياغوس ، ففتشنا الحجرات تفتيشاً دقيقاً وقلبنا الأسرة والمناضد ودواليب الثياب ، وذهبنا إلى المطبخ فقلبنا محتوياته وفحصنا المواسير المؤدية إلى السطح فلم نعثر على ما يثير الشبهة أو يحقق قول (ياغوس) ، ومع أنه أخذ يقسم الأيمان المغلظة بأنه صادق فيما أخبرنا به ، وأنه رأى الشق ومتأكد من وجوده فى مكتبه ، فقد عددنا ذلك كله من قبيل الهواجس والأوهام .

وأخيراً اطمأن بالنا ورجعت قلوبنا الفزعة الخافقة إلى حالتها الطبيعية ، وطفقنا ننزل درجات السلم نتضاحك ، بينما كان ياغوس يغلق بابه بحذر ويقظة ، ولحقنا عند باب شقة (غانم) ، غير أن الاضطراب والخوف كانت لا تزال آثارهما بادية على وجهه ، ثم دخلنا الردهة وصحنا نقول مازحين ، ونحن نلج باب الغرفة التى تركنا غانم جالساً فيها يطالع :

ـ هاهو ذا بيتو ياغانم ... انظر إليه ما أقبحه !

ـ ولكن أين غانم ؟ !

ـ ويلاه ماهذا ؟ !

الأثاث مبعثر هنا وهناك ! المكتب الزجاجى مقلوب على جانبه ! زجاج النافذة محطم ، ثم قطع كبيرة الحجم من زجاجه متناثرة على بساط الغرفة ! بقع من الدماء تلطخ المقاعد !

مشت القلوب فى الصدور من شدة الهلع والذعر ، وعجزت المفاصل عن تأدية وظيفتها ، ووقف كل منا أمام الحقيقة المريعة كتمثال من غير روح ... كان منظر الحجرة هائلا مخيفاً ، وكان لبقع الدماء المنتشرة على الجدران

والمقاعد أثرها فى النفس ، بحيث كنا نغمض أعيننا الفينة بعد الفينة لنحول بينها وبين مشهد كهذا شنيع بشع .

« غانم . . . غانم . . . غانم . . . »

صيحات دوت ولكن أين المجيب ؟ اسم ولكن أين المسمى ؟ عثرنا على معطفه ممزقاً تغطيه الدماء بحالة تسقط لها القلوب ، وكان منظاره الذهبى مهشما تحت مقعد فى نهاية الحجرة ، أما جثته ، أما هيكله فقد ذاب واختفى من الوجود .

تركنا المنزل مراعاً لاستدعاء الشرطة ، ومع إلحاحنا على ياغوس بوجوب مرافقته لنا وإغلاق الشقة ، فانه أصر على ضرورة وجوده بجوارها محافظة على آثار الجريمة والقتلة . . . كان جريئاً فى هذه المحاولة ، غير أننا لما رأينا ما لاح على وجهه من أمارات الشجاعة والحماس تركناه لمهمته ، إذ كنا فى مسيس الحاجه إلى دقائق معدودة ، ووثبت الفتاة كالنمر إلى مقعد القيادة وجلست وحدى فى الخلف تتنازعنى عوامل القلق والاضطراب وتتناوبنى الهواجس والمخاوف والأفكار ، وحينئذ كان أول ما فكرت فيه هو (بيتو) الداهية ، فأيقنت فى تلك اللحظة أن ياغوس قد صدق فى روايته ، وأنحيت على نفسى باللائمة لعدم التثبت من قيمة الخبر ، ثم للإهمال الذى ساعد على وقوع الجريمة والغدر بصديقى (غانم) . كان الوقت ضيقاً ونبأ وجود (بيتو) شديد الوقع ، ولكن كان الأجدر إجبار (غانم) على مصاحبتنا حتى نحول بينه وبين الغادرين . . . تذكرت للحال الكلمة التى فاه بها (غانم) أثناء لعبة الشطرنج مع (فيجايا) وعدها الأخير قذفاً فى حقه رغم اعتذار الأول له : هل كانت هذه العبارة كل جريرته التى فاه بها (غانم) والتى دعت الشقى إلى إنزال أقصى العقوبة به ؟ أم كان هناك ماهو أكثر خطراً وقدراً ؟

قد يكون ذلك ،وقد يكون هناك من الأسباب ما استفز غضب هذا الجبار إلى الحد الذى يدفع إلى الاجرام وسفك الدماء ، ولكن لماذا اقتصر بطشه وتنكيله على غانم ، وقد كان أقلنا اهتماماً بأمر مايحيط صحبتنا من مكائد وخبايا؟ فكرت طويلا وخرجت من تفكيرى بنتيجة استيقظت على إثرها من غفلتى عند مازادت الأميرة سرعة السيارة زيادة خارقة حتى شعرت وكأنها تقفز بنا الشوارع قفزاً ... كانت رأسى تدور دوراناً هائلا فصحت وقد راح رشدى :

ـ نوليات ... ياغوس فى خطر .

لم أدر كيف فهت بهذه العبارة ، كما لم أدرك وجهة نظرى فيها ، لقد كانت النتيجة التى خرجت بها من تفكيرى فى أدوار الجريمة المريعة وما تبعها من غموض وخفاء ،فهل يمكن أن يكون هذا صحيحاً ، وهل يمكن ألا يقف الاعتداء عند هذا الحد ويمتد سيف الغدر إلى عنق ياغوس المسكين! . التفتت إلى وهى تحبس فى صدرها زفرات الاحتراق وصرخات الألم وقالت بثبات : دع القدر يفعل مايشاء ولاتيأس من لطف الرحمن وعينه الساهرة .

تكلفت أن أبدو فى مظهرى العادى وأنا أحترق ، ثم شعرت بضربات قلبى تزداد شدة ، وأحسست من الأعماق أن فى انتظارنا حادثة على الأبواب ، وأن عاصفة هوجاء توشك أن تلقى بنا إلى قرار سحيق . وفى شارع الملك إدوارد اضطرت الأميرة لتقليل السرعة لتتقى خطر الاصطدام بعربة نقل كانت تتجه ناحيتنا ، ولما أن مرت عربة النقل لمحت فجأة فى عينى السائق بريقاً غريباً ، فزادت الأميرة السرعة رويداً رويداً حتى بلغت شدتها، وقالت بعد لحظة : اطمأن ، هذا هو مركز الشرطة .

وأشارت إلى بناء يبعد عنا ما يزيد على مائتى متر ، والواقع أننى شعرت بأمن واطمئنان ورحت أعد العدة لفضح نوايا فيجايا وشروره أمام مدير الشرطة فأقضى عليه القضاء المبرم بعد أن عاث وعبث طويلا ، وعلى حين بغتة لمحت سيارة هائلة من سيارات الحمل تنقض على طريقنا كالصاعقة من زقاق ضيق إلى اليمين ، فحاولت الأميرة الافلات بكل جرأة من المكيدة ، وصحت فيها آمرها بالضغط على (الفرامل) ، ولكن السهم كان قد نفذ فشعرت برجة هائلة ودوى هائل انقلبت على إثرهما السيارة واصطدمت بالافريز فى قوة وعنف أفقدانى الوعى فلم أع ما حدث ولم أر نصيب الآخرين من الكارثة . واستيقظت فى صباح اليوم الثانى فاذا بى على فراش فى المستشفى الأميرى مربوط الرأس والساق بوثاقات بيضاء كثيفة ، وجاءتنى ممرضة عجوز فأعطتنى رسالة ونسخة من جريدة صباحية ، وقالت عن الرسالة إنها وجدتها فى جيب معطفى ولم تشأ تسليمها إلى الدكتور خشية أن يطلع على ما فيها ، ورأيت فى الجريدة خبراً مقتضباً عن حادثة التصادم مروياً على غير حقيقته ، ولا أدرى كيف صور مندوب الجريدة الحادث على أنه نتيجة سكرى ومداعبتى لآنسة مجهولة بجوارى ، هكذا اتهمنى المندوب سامحه الله ، أما الآنسة المجهولة فقد ذكرت الجريدة عنها أن البوليس لم يعثرلها على أثر سوى شريط من الحرير الأبيض ، وقالت إن المرجح أنها لم تصب بسوء . حمدت الله على ذلك ووجهت همى إلى الرسالة ، وكان غريباً أن يوجد مثل هذا المظروف المتوسط الحجم فى جيب ردائى دون أن أعلم عنه شيئاً ، لقد كان خلواً من أى عنوان أو إشارة ، غير أننى عندما فضضته وقرأت ما جاء فيه وقفت على سر اللغز وأدركت كيف دبرت السكوارث الجهنمية ، وكيف أنزلوها بنا فى دقة وغدر . كان الامضاء (ف) وليس

(ف) إلا الحرف الأول من الحروف الستة النارية التى تكون فى مجموعها اسم عدونا الألد وأس شقائنا وبلوانا (فيجايا) .

* * *

ومد (فتحى) يده إلى جيب معطفه الداخلى وأمسك بين يديه ورقة ذابلة طرحها أمامه وطفق يتلوها بصوت يشوبه الاعياء .

« صديقى القديم . . .

« إن الرجل الذى لا يستطيع أن يخلق أعداءً له ، هو فى مذهبى كالهباء ، وخير للانسان فى هذه الحياة أن يكون له جيش من الخصوم والأعداء ، فاذا قدر ولم تكن الصدمة كافية لإماتتك فتذكر دائماً أنى عنيد إلى أبعد حدود العناد ، وأن الهلاك مصير كل من يناصبنى العداء ويقف عثرة فى سبيل أمانى ، أقول إذا قدر وقمت إلى الحياة ثانية فعدها حياة جديدة وعد نفسك مولوداً جديداً ، تناس الماضى جميعه ولا تحاول الاتصال بالأميرة بعد اليوم ، وستكون حفلة السباحة الدليل على عملك بهذا الانذار أو ضربك به عرض الحائط ، إنك لن تراها طول حياتك ، غير أن فى استطاعتك رؤيتها على الشاطىء الفرنسى بعد أيام ، ولكن أحب أن تعتقد أنك تدفع فى سبيل ذلك ثمناً غالياً ، وليس بعد الحياة من ثمن لمتعلق بها ، لا تحاول السعى لمعرفة ماحدث لياغوس بعد غانم ، واكتف بأن تكون مثل الناس جميعاً فرداً عادياً ، وأحب ألا تخبر البوليس بما عندك من المعلومات عن الحادث ، فقد يدعونى ذلك إلى المغامرة بازهاق روح عزيزة عليك ، وقد أضحى بحبى لها فى سبيل تثبيت قدمى وحفظ كرامتى ، ومحال عليك وعلى كثيرين من أمثالك أن يحولوا وجهة نظر الجميع فى شخصيتى أو يعكسوا التيار فى طريقى ، لقد أبقيت عليك وعلى حياتك لتكون أثراً يذكرنى دائماً بهذه الزمرة التى أفلحت فى تشريدها بعد طغيانها وفجورها ، وثق أننى

بابقائى عليك لا أحب لك الخير أبداً ، ومعنى هذا أن دورك آت لا ريب فيه ، غير أنه يمكنك الخلاص إذا عكفت على درسك ورجعت سيرتك الأولى من العزلة والسكون .

إننى أحب الأميرة وهى تحبك ، وهذا هو السر الذى حدانى إلى الابقاء عليك حتى أفكر فى حل أنال به ما أبغى ، وقد تحدث الحوادث ، وتجد النكبات والمكائد ، وقد تروح تحت عبء أفكار قاتلة وهواجس مميتة ، ولكنها لن تمسك ولن تمسها بسوء مطلقاً ما دمت بعيداً عن ميدان مناهضتى وعدائى . . . ثق أننى شريف أحب الشرف » .

(ف)

وبعد تلاوة هذا الخطاب سكتوا جميعاً . . . سكتوا لحظة مستطيلة واستطرد فتحى بعدها يقول :

تركت المستشفى بعد خمسة عشر يوماً ، أى قبل ميعاد السباحة بعشرة أيام ، ولقد كانت رأسى وأنا فى طريقى إلى موقف السيارات ميداناً تلأ فكار المتضاربة المتشاكسة ، فقد كان كل همى منصرفاً إلى معرفة ما حدث لياغوس بعد غانم وفق ماجاء فى رسالة الزعيم الجبار ، ولكننى كنت أخشى (فيجايا) ، خصوصاً وأن وعيده لى فى رسالته يدل على صدقه واستعداده للفتك بى إذا حاولت السعى لمعرفة ما حدث لصديقى ، فكنت كلما تذكرت ذلك أنتفض ذعراً واضطراباً وتمر للحال على مخيلتى أنواع الميتات الجهنمية التى كان أروعها ما حدث لغانم ، فأرجع عن هذه المحاولة ، ولكن سرعان ما تعود إلى مخيلتى ذكرى هذه الصحبة البائسة وأيامها الطيبة الحلوة فأشعر بقلبى يكاد ينخلع من موضعه ، وتتفجر الحمم فى صدرى ويقفز من ذهنى كل أثر تركته رسالة المجرم من الوعيد والتهديد ، وأخيراً أقبلت

سيارة فاستوقفت السائق ،وقفزت داخلها على عجل، وأمررت إليه برقم المنزل ، ومضت دقائق قاسية وأنا أحترق فى مكانى ، بينما استولت على الهواجس وغمرنى سيل جارف من الأفكار . . . ترى ماذا حدث لياغوس بعد نكبة (غانم) ، لقد تركناه فى حالة طبيعية من السكون والثبات والاستعداد للطوارىء وأبى أن يترك شقة (غانم) بلا رقيب محافظة على معالم الجريمة وآثار القتلة أو الخاطفين حتى نأتى بالشرطة ، ولكن هل قدر له أن يموت ميتة صديقه ؟ لقد وقف مستعداً للدفاع ، ولكن رسالة الشقى لا يستدل منها إلا أنه قد أصابته مصيبة ، ترى ماذا حدث لغانم وماذا جرى بعد الجريمة وقد مضى عليها حتى اليوم خمسة عشر يوماً ؟ كانا غرباء عن الأهل ، فمنذا الذى يهمه أمر المنكوب منا فى غيبة الآخرين ويسعى فى تخفيف بلواه وإنقاذه من براثن عدو جبار لا يرحم ؟

وقفت السيارة أمام باب المنزل: منزل ياغوس وغانم، فأطللت من نافذة السيارة واختلست النظر هنا وهناك بخفة وحذر ، فقد كنت موقناً أن عيون (فيجايا) لا تنى عن مراقبة المنزل وزائريه ، ولذلك ناديت البواب بصوت خافت،فأقبل يتثاقل فى مشيته فسألته عن ياغوس بلهف وانتظرت الجواب كمتهم ينتظر ما سيفوه به قاضيه، وهنا اجتاحت وجه الرجل علامات استعصى على فهمها وتاهت على ثغره ابتسامة المحزون أتبعها بهز رأسه كاسفاً فصحت :

ـ ما هـذا الصمت ! أين ياغوس ؟

كانت صيحة خرجت من أعماق قلبى الملتهب فكان جوابه :

ـ مات ياسيدى منذ أيام

وما أن سمعت هذا الخبر المشئوم حتى أحسست بنار الاحتراق تلهب بدنى ، وصرت أتمتم وأنا أرتعد كالمحموم

مات ! مات !

ـ ماذا كان لون ميتته يارجل ؟

لكنه تلعثم قائلا : سكتة قلبية

فسألته : أين مفتاح شقته ؟ وماذا جد فى نكبة غانم ؟ تكلم ياشارل ، ولاتخف على شيئاً

فقال : لقد أخليت شقةغانم منذ أيام بعد أنفشل البوليس فى اكتشاف خبايا الجريمة ، والمعتقد أن لبعض أصدقائه الطلبة المصريين يداً فى الجريمة ، وقد ألقى القبض على الكثيرين منهم ، على أنموت (ياغوس) فجأة كشف سراً جديداً ، ويعتقد المحققون أن لموته على هذه الصورة مساساً بكارثة (غانم) ، وقد أدى ذلك إلى الافراج عن الكثيرين من المقبوض عليهم ، وكانت النتيجة حفظ القضية فى سجلات البوليس . . .

غلى الدم فى عروق تلقاء هذه الافتراءات والتلفيقات ، وأحسست بنار الحنق تحرق فؤادى ، إذ عرفت كل شىء فلم يبق إلا أن أنتقم لهؤلاء التعساء ، ولم يكن بد من المغامرة ، ولكننى كنت أتخبط كالمجنون بحيث لم أوفق إلى طريق التشفى الذى يروى غليلى ، ولم أستقر على رأى حاسم رغم ما توارد على ذهنى من طرق التشفى والانتقام . والآن يمكننى أن أصرح لكم بأننى جد مغتبط بصداقتكم وتطوعكم لخدمة الانسانية المعذبة المنكوبة ، وربما أخذتم على الاسهاب . ولكنى سعيد فى الواقع إذ تسنى لى أن أوقفكم على الحقيقة بتمامها حتى تستريح ضمائركم وتعملون بحرية واطمئنان .

ولم يتمالك حامد نفسه فقال : لا تقلق بالك كثيراً فربما كان الأمر أبسط مما ذهبت إليه ، ولكن المدهش حقيقة هو كيفية ذهاب الأميرة وظهورها على الشاطىء الفرنسى بعد هذا المصاب الفادح ، ألا ترى معى أنها عقدة العقد ؟ كيف يلذ لها العيش برفقة (فيجايا) مدى الأيام التى

أعقبت حادثة التصادم إلى ما قبل يوم السباحة وهى على علم بما اقترفته يده من إثم وعدوان أودى بأعز الأنفس عليها وترك الآخرين بين هم وفزع وسهاد ؟ تقول إن الظروف كانت قاسية حيث كانت شبه موثقة لا تملك حتى حق التصرف فى أمرها ، وتقول إنه القسم الذى أدته بين يدى والدها على إطاعة (فيجايا) فى كل شىء ...

فأجاب فتحى معترضاً : إلا فى أمر زواجها فقد أطلق لها حرية اختيار من تريد على شريطة مساواة الزوج للزوجة فى المركز والحسب والشرف .

وفكر حامد ملياً ثم قال : إننى لست إخصائياً فى أعمال رجال الشحنة السرية ، ولكننى أصرح بأن هذا القسم لا يمنعها بتاتاً من العمل على الانتقام لصحبتها والوفاء لها ، إن فى الأمر سراً يافتحى ، وهذه الفتاة خبيثة شريكة للشقى فى جرائمه ومناوراته ، وما حادث اختفائها فى القنال إلا مناورة سخيفة أرادت بها تثبيت الاعتقاد فى ذهنك بمحبتها لكم وطول عنادها للأشقياء . كل مؤامراتهم تنتهى إلى غاية واحد ومرمى واحدة هو الخلاص من (ياغوس) لأغراض نجهلها ، وما داموا قد أفلحوا فقد انكشف الميدان ولم يبق هناك من داع يدعوهم للبروز على المسرح والاهتمام بأمرك .

وسكت فتحى لحظة ثم قال : فى الحق قد تبدو هذه النظرية باعثة على الحيرة ، ولكن لو أنك عاشرت الأميرة لحظة ما تسرب الشك إلى نفسك ، ولاعتقدت رغم الريب ما أعتقده فيها من طهارة وحسن نية ، إننى لا أزال أعدها أوفى بنات جنسها عهداً وأخلصهن سريرة وأنبلهن نفساً .

وهز (رمزى) رأسه وقال يعترض : النساء !... النساء !... إن كيدهن عظيم ، فسرى عن فتحى بعض الحزن المرتسم على وجهه وقال : اعلم أنك

تحمل قلباً قد من جلمود . والتفت إلى حامد وقال : إنه الشاب الوحيد الذى لا يعرف الحب رغم ملاحته وخفة روحه كما ترى

وقال رمزى : إننى واثق من طهارة الأميرة ، ولا أخالها تقدم على أمر كهذا مهما وصلت بها الحال

فأجاب حامد وهو يهم بالقيام : أنت الآخر تعتقد ذلك! سوف ترى كيف يعمل كل ما فى وسعه للوصول إلى الحقيقة ،وقد يكون رأيك صواباً؛ على أن دون تحقيقه الاجتهاد والمغامرة ، فهل تغامر ؟

فقال على الفور : بلا شك ، ستعرف كيف نعكس التيار فى طريقه ـ حسناً ، بارك الله فيك

ثم ودعهم هو وشقيقته وانصرفا .

الفصل الرابع

مذكرات زامورا

جلس (حامد) على مقعده فى الترام وقد أطرق برأسه مفكراً ؛ وقد كان حامد شاباً لا يزيد عمره على الثلاثين، وكل ما عرف عنه إنما هو جهاده وجلده ونضاله لانتزاع قوت يومه من بين براثن الحياة ، فاشتغل خبازاً فى أول أمره ، ثم هجر لندن إلى أمريكا حيث تقلب فى مهن شتى ، وعاد صفر اليدين خالى الوفاض ، وعاش عالة على أخيه (عبد السميع) فراش النادى المصرى ؛ ومن ثم بدأ الدهر يبتسم له بعد أن تنكر له طويلا فاشتغل ملاحاً فى شركة إنجليزية ما بين أوربا وأمريكا حيث تعرف إلى كثير من مختلف الأجناس ، ومن بينهم (عباس) أحد الموظفين من المصريين ، فتألفت بينهما صداقة متينة ، ودرت عليه هذه المهنة أرباحاً طائلة جمعها من المتاجرة ، فوق ما كان يتقاضاه من راتبه الشهرى ، فأثرى وراح يستثمر ثروته وينميها وانتهى به الأمر إلى ترك الشركة وفتح (جراج) كبير للسيارات ، ومع ذلك فلم يترك حياة المغامرة التى ألفها منذ نعومة أظفاره ، فظل هو هو (حامد) المعروف ببأسه وشهامته وإقدامه ورقيق شعوره رغم غلظة مظهره ، وظل هو هو (حامد) حامى الضعفاء ونصير المنكوبين والبائسين .

* * *

كان يعتقد أنه ما كان ينبغى له أن يترك (جراجه) فى ذلك الوقت من الليل ، إذ كانت الساعة فى تمام الثامنة ، وهو الوقت الذى يتطلب وجوده بين عماله وموظفيه ، ولكنه - أيضاً - ما كان ليستطيع أن يترك (فيجايا)

يرتع ويمرح فى الخفاء دون أن يقف له على أثر، وقد مضى على مقابلته فتحى ـ فى أول مرة وصحبه ـ ما نيف على العشرين يوماً ؛ ولعل هذا سبب إطراقه وإدمانه على التفكير، وما كان الرأى إليه فى هذه اللحظة ليظن أنه قد استقر على رأى حاسم فى الموضوع أو يتكهن بقرب بلوغه الخطوة الأولى من خطواته.

وأخيراً رفع رأسه ومد يده إلى جيب معطفه وأخرج كراسة صغيرة، وراح يكتب على أحد صفحاتها ما عن له كتابته ، ثم وقع نظره على الصفحة المقابلة ، ومر على بضعة سطور كان قد دونها منذ زمن بإملاء صديقه (فتحى) وقد جاء فيها :

« فيجايا » أسمر الوجه ، حاد النظر، خبيث الابتسامة، عريض الألواح ، حليق الذقن إلا من خصلة دقيقة فى أسفلها ، ثم هو فى سن الاربعين .

« بيتو » قصير القامة ، أسود الوجه دميمه ، يعلو حاجبه الأيمن شق أفقى غائر ، تتدلى أطراف شاربه إلى أسفل .

« زامورا » مارد ، عريض الألواح ، مشقوق الأذن ، فى فكه الأسفل أربع أسنان ذهبية .

« فيداس » يشبه زامورا ويخالفه فى قصر قامته .

« مانجو » طويل القامة ، نحيل الجسم ، طويل اللحية ، فى جبهته إلى اليمين بقعة حمراء مستديرة تميزه من زميله « نصرتا » .

ورفع (حامد) رأسه فجأة وأطل من نافذة الترام يستطلع سبب زحام المارة ، واكتظاظهم على الجانب الأيمن من الطريق . وأقبل ركاب الترام ـ بعضهم على بعض ـ يتساءلون ، فقام (حامد) فجأة ، وفى أسرع من لمح البصر كان على قدميه فى الطريق إثر وثبة خطرة من نافذة الترام بأقصى سرعة ، ثم عدا فى الشارع بكل ما وهبه الله من قوة ، وقد اختمرت الفكرة فى رأسه بعد أن اهتدى إلى طرف الحبل واعتقد أنه إنما يجتاز الآن

الطريق الذى يوصله إلى (زامورا) سائق سيارة (فيجايا) التى سببت ذلك الزحام من جراء مصادمة ما، ولكن الجمع كان قد انفض، ورأى حامد السيارة تقترب جهته بعد مجىء الشرطة وانصراف الناس بالطفل الجريح ، وتحرج الموقف، فقد كان يؤمل أن يصل قبل رحيل السيارة وانطلاقها بهذه السرعة البالغة حتى ينفذ مشروعه ويصفى حسابه مع (زامورا) سائق سيارة الرئيس الهندى الجهنمى . . . كانت السيارة متجهة صوبه فى سرعة هائلة ، ودون التعلق بها قتله تحت عجلاتها أو الاصطدام بمقدمتها ، فخامره شىء من التشاؤم ، وشعر بشىء من الألم والاستياء لقرب إفلات الفريسة ، فلم يجد أمامه وسيلة للعمل ، حيث قيدته الظروف القاسية وغلت يديه، ومع ذلك فلم يفقد رصانته وثباته فترك السيارة وشأنها إذ كان يرى فى إطلاقه الرصاص عليها ما يهوى به إلى حضيض الحمق والجنون .

وأجهد (حامد) نفسه حتى استعاد يقظته ، وكانت أول خطوة خطاها هى الاتجاه إلى المكان الذى داهمت فيه السيارة الغلام ، وقد كان يعلم أن من العسير جداً أن يصل إلى غايته هناك ، ولكن فى إمكانه أن يقف على بعض الشىء من آثار السائق أو يستقصى أخباره من المارة ، ولما وصل إلى البقعة التى حدثت فيها المصادمة وجد السكون مخيما عليها ، فراح يجول بنظره فى أنحائها ، وعاوده اليأس لحظة أخرى لما لم يقع بصره على شىء يدله على آثار الأشقياء ، أو يقف منه على أخبارهم كما كان يؤمل ، إلا أنه شعر بعد لحظة بشاب يقترب جهته ، فحياه ثم قال :

ـ هل تبحث عن شىء هنا أيها السائق ؟ لقد أربكتك حادثة تصادم سيارتك بالغلام فلم تنتبه لما سقط من جيب معطفك ، والواقع أنى كنت على وشك تسليم هذه الكراسة لرجل البوليس كى يتخذ الاجراءات اللازمة

لتوصيلها إليك ... لم أر مابها ولم أحاول ذلك إنما اهتديت إلى اسمك على ظهر الغلاف فحسب .

وما أن أتم الشخص الغريب كلامه حتى ارتبك حامد لحظة قصيرة ، فقد فهم أن الشاب يخاطبه على اعتقاد أنه (زامورا) السائق العملاق الذى ذهب إلى حال سبيله منذ زمن ، ولكنه مالبث أن أجابه فى ، هدوء وهو يشعر بهزة الفرح من أعماق نفسه :

ـ أشكرك ؛ حقاً لقد كانت حادثة مفاجئة ،ولكن ألا ترى معى أن الذنب ذنب الغلام وحده ؟

فقال الشاب ـ وهو يناوله الكراسة ويهم بالانصراف ـ : نعم ياسيدى ، وأنا أذكر أنى رأيته يجازف بحياته تحت عجلات سيارتك رغم صياحك ، ويخيل إلى أنه معتوه يود الانتحار .

* * *

بعد نصف ساعة دخل (حامد) إلى غرفته فخلع سترته وقبعته وأغلق دونه الباب ، وراح يتلومذكرات(زامورا)فى هدوء واهتمام . وقد استهل (زامورا)مذكراته بسرد الحوادث التى مهدت لزعامة (فيجايا) فى المقاطعة فذكر والدته السيدة نارجين ، وقال عن فيجايا إنه ولى أمر الأميرة(نوليات) من قبل والدها المريض الذى أباح له مطلق التصرف فى إدارة شئونها رغم كراهيتها له منذ الصغر. وتناول موت (جوجر) فذكر أن قليلين هم أولئك الذين يعلمون حقيقة ميتته الخفية ، ومنهم (ياغوس) الذى اهتدى إلى بعض أسرارها مصادفة ، فقد أرسل عقب موت (جوجر) خطاباً إلى الأميرة ، أخبرها فيه بأنه رأى (بيتو) متخفياً فى أحد فنادق لندن ، وأنه يرتاب فى ميتة أخيها ، ولكنها لم تشأ أن تطلع والدها المريض

المخبول على هذا السر، إذ كانت على يقين من أنه لن يقبل منها نصيحة من شأنها الحط من منزلة فيجايا عنده وارتيابه فى أمانته وإخلاصه ، فأخفت الخطاب وكتمت كل شيء داخل نفسها ، وهكذا اتسعت هوة النفور والخلف بين الأميرة والزعيم (فيجايا) ، على أنها لم تظهر له يوماً بما يحمله قلبها له من كراهية تجاوزت منتهى الحد .

وتغيرت الحال معها أثناء وجود ياغوس بلندن ، وكانت وقتئذاك فى السادسة عشرة من عمرها ، فقد أخذ الزعيم يعاملها معاملة كلها دعة لم تألفها من قبل ، ولحظنا عليه هيامه بها وعشقه إياها بعد أن اكتست ثوب الأنوثة الفاتن فأصبحت نجمة كلها حسن وجمال ، حتى صار الزواج بها أمنية الزعيم ، ولكن دون تحقيق ذلك خرط القتاد ، ففاتحها بحبه فلم تشأ مصادمته فى البداءة خشية ما يجره عليها ذلك من ويلات لا تقف عند حد، ثم تغيرت عباراته إلى شيء من العطف مما كان له أكبر الأثر فى الانقلاب الذى طرأ على سلوكه نحوها، فصار يقضى النهار بجوارها يؤاكلها ويؤانسها ويغمرها إطراءه وإعجابه وتفانيه ، وتقدم الى الميدان فى هذه الأثناء الأمير (جوجايت) حاكم المقاطعة المجاورة فأصبح للزعيم مزاحماً عنيداً، وراح يناهضه مناهضة الند للند، ورأت فيه الأميرة مخلصها الوحيد من مكائد الزعيم واستبداده ، ولم يكن (جوجايت) الرجل الذى يسهل على مثل الزعيم الظهور عليه لصرامته وبعد صيته وفروسيته، ولذلك ما لبث أن مد إليه يد الصداقة وحبس عاطفته فى أعماق صدره ووقف أمام ذلك حائراً مغلول اليدين ؛ ولم يبق فى يده غير سلاح واحد ، هذا السلاح هو إبعادها عن الأمير الشاب بأية وسيلة، فراح يسعى سعيه حتى أغراها بالسفر إلى انجلترا لتتحدى أبطال السباحة فى عبور المانش ، فوقعت بذلك فى الفخ الذى نصبه لها، وأصبحت فى قبضة يده يسيطر عليها، ولم يبق إلا أن يخطو الخطوات الأولى.

التى مهد لها تحت سماء لندن فى نجوة من المنقذين ؛ فلما استقر بنا المقام فى لندن كنا على يقين من أن (فيجايا) يشعر فى قرارة نفسه بأن وجود (ياغوس) يعرقل مساعيه ويهدم مجهوداته وأمانيه ، وأنه لاسبيل إلى تحقيق رجائه مادام (ياغوس) حياً يرزق ، فراح يتلمس الأسباب التى يدفع بها مكائد (ياغوس) إذا سولت له نفسه الدفاع عن الفريسة وانتزاعها من بين براثنه ، فبدأ فى الحال خطواته الاجرامية ، وعززها تردد (ياغوس) بكثرة على القصر ومصاحبته الأميرة ، ثم تردد أصدقائه من الطلبة المصريين ونشوء صداقة متينة بينها وبينهم انتهت بعلاقة غرامية بين أحدهم — ويدعى (فتحى) — وبين الأميرة ، ووقف الزعيم على هذا السر ، فغلى مرجله وأحس بنيران الغيرة والحقد تلهب كيانه فراح يعد العدة لإنزال أشد أنواع الانتقام بياغوس وصحبته .

وفى مساء يوم ، انطلقنا بالسيارة وأعصابى ترتعد وتهتاج ، وكان بجوارى (مانجو) وفى الخلف الزعيم و (بيتو) و (فيداس) وقد كان الدم يغلى فى عروقهم وقد سقط القناع وانكشفت أشباح الجريمة عن وجوه مغبرة مكفهرة ، وبعد قليل أوقفت السيارة ، واقترب منا (نصرتا) يقود سيارة من صنف اللورى الكبير الحجم ، ثم تبادلت أنا و (نصرتا) القيادة ، وبعد قليل كنت أسابق الريح ، ولم يكن فى رفقتى غير الزعيم يرشدنى إلى الطرق المؤدية إلى الناحية التى بقيت غامضة من الخطة التى رسمها ، والتى أطلعنا على دورنا فيها .

أنا لست مجرماً أو جحوداً ، ولكن حرصى على الحياة وتعلقى بها من جهة والجو المشبع بالمآسى والفواجع الدامية التى تحيط بى من جهة أخرى ؛ كانت ترغمنى على الرضوخ لمشيئة الزعيم والاندفاع إلى الاجرام وسفك الدماء رغم براءة نفسى وطهارتها ، وهكذا قدر لى أن أكون مجرماً رغم طيبة قلبى ورغم عواطفى النبيلة وشعورى السامى ، فأوقفت السيارة فى زقاق ضيق

ونزل الرئيس وطفق يرقب الشارع الكبير ،ومكثت فى انتظار إشارته وأنا أحبس بين جنبى صرخة الألم والكمد ، وأزداد عذاباً ، وبودى لو تفشل الخطة جميعها وينجو الأبرياء من كيد الغادرين ، وعلى حين بغتة رأيت الرئيس يتراجع إلى الوراء فى جنون ،ويرفع ذراعه ملوحاً بها فى الهواء... انقضت الصاعقة على فأذهلتنى ، وفى أسرع من لمح البصر رأيتنى أنقض بسيارتى فى عرض الطريق بشدة ،ثم دوت فجأة صرخات أليمة ،وردت سيارتى السيارة الأخرى إلى الافريز فتحطمت ،وحينئذ رأيت شاباً يتلوى ويصيح ـ والدم يغمر ثيابه ـ فى صوت يفتت الأكباد :

ـ أنقذى نفسك ، كما يريد الله ، لم يبق هناك من أمل

وارتمى على الأرض جثة هامدة ، فلم أعد أقوى على احتمال المشهد الأليم ، وبدأت قواى تخور رويداً رويداً حتى غبت عن وعيى .

أخبرنى فيداس فيما بعد بما خفى على من خطواتهم الاجرامية، فذكر أنهم أفلحوا فى اختطاف (غانم) بعد أن نكلوا به أشد تنكيل ، وتم لبيتو القضاء على (ياغوس) بواسطة الابرة السامة فلقى حتفه على عجل ، وأما حادثة التصادم فكان من ضحاياها الأميرة وصديقها (فتحى) ، ولكنى علمت فيما بعد أنهما لم يصابا بأذى كبير ،وقد ترك الشاب فى عرض الطريق يسبح فى دمائه وأنقذت الأميرة على عجل ، وأنى بها إلى القصر فاقدة الرشد .

ظفر الرئيس بما أراد وأحب ، وقد كتب للأميرة الشفاء ، فلم يبق أمامه غير الاحتيال والتلفيق ـ وهو الجزء الأخير من خطته الجهنمية ـ فأرسل إليها على لسان (ياغوس) خطاباً أنبأها فيه بوصول (ياغوس) إلى لندن بناء على طلب الأمير جوجايت له ، وأن (فتحى) قد شفى من جراحه وعاد بالأجازة إلى مصر بعد محاكمة سائق السيارة الذى داهمهم فى الطريق ،والذى

اتضح للمحققين فقدانه لوعيه، وذلك نتيجة سكره فوقعت الحادثة دون إصرار أو عمد سابق، ثم عرج بعد ذلك يقول إن رجال الشرطة عثروا على (غانم) فى حجرة نومه المجاورة للمكتبة ، وكان مصاباً بجرح بالغ فى رأسه فأسعف بالعلاج ، واتهم بعض أقاربه فى مصر وبعض أصدقائه من طلبة جامعة لندن لحزازات وضغائن قديمة ، وقد سافر بعد نقاهته إلى مصر ليقضى أجازته بين أهله ، وختم (ياغوس) أو الأصح (فيجايا) رسالته بتمنيه الفوز لها فى بطولة السباحة ، وأنشأ يحضها ـ فى لغته التى تعودتها منه ـ على معاندة (فيجايا) وتنغيص عيشه، ويذكرها بأخيها (جوجر) وأيام صباهم، وغير ذلك من العبارات التى أدخلت على نفسها الطمأنينة والارتياح ، ومع ذلك فقد ظل شبح الشك يتراقص أمام عينيها حتى جاءتها الصحف بأنباء كارثة (غانم) على النحو الذى ذكره (ياغوس) فى رسالته المزيفة ، فآمنت وأسدل الستار على هذا السر الغامض الفظيع .

سرت الأميرة كثيراً من أنباء الرسالة الكاذبة، فعاودتها ابتسامتها السابقة بعد أن استراح قلبها وضميرها ، ولم تتردد من غير ط فرحها فى جذب يدى الرئيس وتقبيلها ، ورأيت بعينى هذا المنظر المؤثر فثارت أعصابى وألهبتنى حمى الجنون ، إذ أصبحت المسكينة أسيرة ضعيفة يدير عليها كؤوس الخداع أو العذاب كما يشتهى ويحب . ثم انقضت أيام النقاهة وصرح لها الطبيب بالتريض استعداداً لحفلة السباحة الكبرى، ولم يكن باقياً عليها غير أيام ثلاثة .

حل ميعاد السباحة، فتركت الأميرة القصر وركبت سيارة برفقة (فيجايا) و (منجو) ، وذهبت أنا (وبيتو) و (فيداس) من الباب الخلفى للقصر، ومنه انطلقنا بالسيارة صوب الشاطىء لتنفيذ المشروع الأخير . سافرت الأميرة وكانت ترى كل شىء بجوارها يفيض بهجة وإيناساً وبشراً ، وزاد

ذلك احتفاء الخدم بها وما بدا على محياهم وقتئذاك من الاشراق والاعجاب مما جعلها تنفض من ذهنها حزازات الماضى وضغائنه وماسيه .

ودعوها عند باب القصر بمظاهر الحماس والتمنيات الطيبة، وقد كانت تعد ذلك كله من طالعها الحسن وبشائر النصر الميمون. ثم ركبت الباخرة إلى الشاطىء الفرنسى وقابلها على الشاطىء وزراء فرنسا ومندوب رئيس الجمهورية وجموع حاشدة من المعجبين بها ، وعاد (فيجايا) ثانية إلى الشاطىء الانجليزى لانتظار وصولها بعد أن ودعها أجمل وداع . ونزلت إلى الماء مع أبطال السباحة وكانت المياه دافئة لطيفة ، ورافقها غير الحكام فى زورقهم — خمسة زوارق بخارية شغلها عدد كبير من فتيات باريس الحسان وغيرهن من أبناء اللوردات وأعيان لندن ، ولما بلغت ثلث القنال كانت سابقة جميع المنافسين بأمتار عدة ، وكانت أصوات الجميع تدوى هاتفة لها من كل ناحية ، ولكنها ما كادت تصل عرض القنال حتى حدثت الكارثة التى ما كان يتوقعها أحد غير أعدائها الفاتكين، حيث انقلب أحد الزوارق فجأة ، وسقطت جميع الفتيات فى اليم بين صيحات الفزع والرعب ، وأثناء هذا الضجيج وما تبع ذلك من تقاذف المنقذين فى المياه وابتعاد الزوارق إلى ناحية الزورق المنكوب ، اقترب من الأميرة زورق فيه ثلاث نسوة بوجوه جامدة ، وسرعان ما قفز من وسط القارب (فيداس) فاختطفها من المياه فى لمح البصر ووضع على فمها منديلا ملوثا بمادة مخدرة أفقدتها وعيها على الأثر ، ثم قذف بها فى قاع الزورق ، وألقى عليها دثاراً كثيفاً .

انتهى بذلك آخر دور من أدوار الخطة الاجرامية الجهنمية ، وظفر الزعيم بأمنيته بعد أن قلق فى روع الجميع أمر غرقها ، فأصبحت فى قبضة يده يلعب بها ويملك روحها، ثم ذهب إليها فى جرأة يكشف لها عن الحقيقة ،

ويعلنها برغبته فى الزواج منها ، فخارت قواها وانهدت، وارتمت على فراشها تجهش بالبكاء وتندب حظها العاثر ، فقام إليها يهدىء من روعها ويسكن آلامها النفسية ، ولكنه عرف ـ فى نظرة سريعة ـ ماتتمخض عنه سورتها الدفينة فهز رأسه يائساً ، وافتر ثغره عن ابتسامة كان لها معناها ، وخرج بعد أن أمر (ناديا) بالجلوس إلى جوارها ، وأغلق دونها الباب .

فى مساء اليوم الثانى دخل عليها يتودد إليها فى ذلة، ولين ولأول مرة ـ فى حياة كلها إرهاق وإجرام وقسوة ـ جرت دموعه تؤيد ما يجيش فى صدره من عاطفة متقدة وشعور حار، ثم أقسم لها بكل غال أن يوقف حياته على هنائها وسعادتها ، ويبذل آخر قطرة من دمه فى سبيل راحتها وسرورها لقاء أن ترضى به زوجاً غايته أن يسعد بجوارها وينعم بالحياة بقربها إذ فيها متعته الوحيدة فى الحياة .

غلى الدم فى عروقها، وقد فقدت رصانتها وهدوءها لا تدرى أى أنواع الايذاء تنزل به ، وتدفع به عاديته عنها ، فصاحت فيه قائلة :

ابعد يا مجرم ، لا تقترب منى وأنت تسف إلى حضيض الإجرام والإثم ، أتذكر يوم أخمدت أنفاس (جوجر) البرىء المسكين ، ولم يكفك ما لحقه من ذل وهوان ؟ أتذكر يوم أجبرته على الرحيل إلى لندن خافض الجناح كسير القلب ؟ أتذكر كيف كنت تهزأ بى إذا رأيتنى أندبه وأبكيه فتزيدنى عذاباً وألماً ، وكنت أحوج الناس إلى المواساة والسلوى حين استحال نعيمى إلى بؤس وشقاء ، وحين اشتدت على نوبات الألم فسقطت مكدودة أئن وأتلوى ، وحين شربت كأس العذاب حتى الثمالة فتهدمت قواى وحطمتنى الحمى وسرت نحو القبر فلم ألق منك غير السخرية والشماتة والقحة ؟ ثم ما هذه الجرأة التى تدفعك إلى طلب زواجى منك ؟ ألا ترى أن ذلك هو الحمق والبله بعينه ؟ ألا ترى أن هذا الطلب هو النذالة كلها ؟

ألست ترى أن هذا من صفات لاخلاق لهم ؟ ألا ترى أن من الخنوع وخفض الجانب أن ترضى شريفة مثلى بمثلك زوجاً لها؟ وهبنى قد ارتضيتك زوجاً فأى حياة تحياها زوجة تمقت زوجها وتزدريه ، وترى فيه المجرم الذى لوث يديه بدماء أخيها وأعز الناس لديهـا ، وكل ما ترجوه إنما هو الانتقام منـه وإيقاعه فى البلاء ، فترى سعادتها فى شقائه وشقاءها فى سعادته ؟ احكم على بالموت كيف شئت ، وأدر على من العذاب ما تشتهى وتحب ، فلن أتحول عن موقفى هذا قيد شعرة ، لقد خصصت مواهبك لتشجيع الرذيلة وتنظيم الاجرام ، وقد كان فى وسعك أن تصل بذكائك إلى ما تصبو إليه نفسك ، ولـكنك فضلت الحصول على ما تبغى من طريق الخداع وسفك الدماء ، فأثريت وتملكت زمام الأمور بما ألحقته من الخراب بثمات من مواطنيك وذوى قربائك ، إن المعركة لم تنته بعد ، وقد تمكنك الظروف من الخلاص منى خشية افتضاح أمرك ، وقد تستطيع إنزال الويلات بى ، ولـكنى أحب أن تعلم أن ضميرى وقلبى ومشاعرى فى نجوة من اليأس ، ولا زلت أرى بصيصاً من رحمة الله يوحى إلى به ، رغم ظفركم وطول أيام شقائى بينكم .

وما كادت تنتهى من كلامها حتى ارتمت فوق فراشها تبكى وتكتم زفراتها وتأوهاتها ، وتجهم وجه الزعيم تلقاء كلامها القاسى فقد كان يرجو انقلاباً سريعاً فى سلوكها معه بعد أن ملك روحها وأصبحت حياتها رهينة لديه ، فاذا بها تزداد عناداً وإصراراً على عداوته وازدرائه ، فتبدلت نفسيته ووقع اعترافها على قلبه وقع الصاعقة فمزق صدره وأصابه فى الصميم ، وخرج دون أن يتفوه بكلمة واحدة .

وكنا نرقبه أنا ومانجو ونصرتا خفية ، فسمعناها وهى تئن وتتأوه ، وشعرنا بقلوبنا تتقطع لـكل زفرة من زفراتها الملتهبة ، وأحسسنا فى هذه اللحظة بشـعور غريب يدفعنا إلى الإقـدام والمغامرة لإنقاذ الأميرة

من بين براثن الموت حين أحسسنا بدنو أجلها، وسرت هذه الفكرة في نفوسنا مسرى الدم؛ لكن دون تحقيق هذا الرجاء مصاعب جمة وويلات لا يدريها غير الذين عاشروا (فيجايا) وذاقوا غبنه وجوره ... إزاء هذا لم نجد في يدنا غير سلاح قصير، فإما أصاب وإما ارتد إلى نحره ، وهذا السلاح هو التجسس ومساعدة الأميرة على الهرب خفية .

مرت أيام قاسية ذاقت فيها الأميرة الأمرين من غطرسة (فيجايا) وسوء معاملة (بيتو) الذي ضيق عليها الخناق، فأصبحت سجينة غرفتها لا تخرج منها إلا بحراسة (بيتو)، ثم حرم عليها الخروج من الغرفة ، ومنع منها الطعام إلا بالقدر الذي يكفل لها الحياة، وكثيراً ما قضت أياماً دون أن تتناول طعامها تخلصاً من الذلة والعذاب حتى سقطت على فراشها مكدودة محطمة، واستفحل عليها المرض فأذبلها ، وصار الموت يتمشى في أعضائها تدريجياً حتى انهدت قواها وهزل بدنها وفارقتها نضارتها وحسنها، فهالنا الأمر، ورحنا نتوسل إلى الزعيم أن يحنو عليها ويستدعي إليها طبيباً ليعالجها، فتبسم وأجابنا في أسلوب جاف : علاجها في يدها وهذه حياتها معلقة على كلمة واحدة منها .

رجوناه وتوسلنا إليه أن يحضر إليها الطبيب لينقذها من الموت فرفض كل ضراعة ، وأكد لنا أنه لم يعد يفكر في زواجه منها ، وإنما ينتظر موتها ويأمل قرب خلاصه منها فحسب ، ولعل ذلك الانقلاب رجع إلى ولع الزعيم أخيراً براقصة فرنسية طموحة إلى الثراء وحياة البذخ والمعيشة الشرقية ، فتعلق بها ونشأت بينهما علاقات متينة، أدت إلى هدم دعائم حبه الأول وتلاشيه من قلبه الجبار ، وكأن القدر قد كتب بذلك للأميرة الشقاء والعذاب حتى الموت . . . ماذا تفعل أمام هذه الظروف القاسية وقد عزت وسائل الانقاذ وعدنا لا نستطيع دفع الموت الجبار عن هذه الفريسة البريئة المحبوبة .

يالله ! ما أمر الحقيقة ! لم يرض الوحش النزول عند حكم القدر ، فهاله احتمالها العذاب طوال هذه المدة وراح يعد العدة لارهاق روحها والخلاص منها ، لقد حكم عليها بالاعدام لأنه على وشك الاقتران بصاحبته الراقصة ، ولأنه يرى فى وجود الأميرة ما يحول نعيمه إلى شقاء ونكد ، يحكم عليها بالموت لينعم بثروتها ويلهو ويعبث كيف يشتهى ويحب ، يحكم عليها بالموت بعد أن هد قواها وأذبل نضارتها وحطم شبابها الغض ، فياله من قلب متحجر ، ويالها من ليتة غبراء داكنة لاتنقضى حتى تكون روحها قد استلت من بين جنبيها فى وحشية دونها وحشية الضوارى

كل الفواجع والمآسى الدامية تهون وتصغر أمام مصاب الليلة ، ومايتمخض عنه من أهوال وويلات وآلام نفسية ، يالله ! لا أستطيع أن أتحمل مجرد التفكير فى الميتة التى أعدها لها ، لقد تحققت مخاوفى إذ اختمرت الفكرة فى رأس الشيطان وراح يعمل على تنفيذها الليلة ، مسكينة أيتها التعسة الشقية ، مسكينة أيتها الفريسة المعذبة فى سبيل الشهوات والنزوات وحب الذات .

* * *

فى هذا اليوم ، فى اليوم الرابع عشر من شهر يوليو ، أنطلق بالسيارة فى جوف الليل وتحت ستار الظلام أقود الأشقياء وفريستهم المنكوبة إلى كورنواى ، هذه البقعه القفراء الموحشة حيث لامغيث ولارقيب ، ولا يكاد ينتصف الليل حتى تملو صرخة داوية وتتناثر أشلاء الأميرة تحت عجلات قطار الاكسبريس الذى يمر فى هذه البقعة المقفرة فى تمام الساعة الثانية من منتصف الليل ، وبذلك تهجر الأميرة حياتها الأليمة الفانية إلى حيث يرعاها الخالق برحمته ورضوانه ؛ وبذلك يتخلص الشيطان من شبحها المحطم إلى حيث يطيب له عيش كله لهو وفسق وإثم وفجور ، فما أفدحه من مصاب ، وما أروعها من رزيئة !

هأنذا أسير أتخبط كالمجنون ، لا أدرى كيف السبيل الى إنقاذها ، لم يبق على الرحيل غير ساعات معدودة ، وليس من الصعب على إخطار البوليس ، كما أنه ليس من الصعب على إذاعة الخبر فى جهات شتى ، ولكنى موقن بأنه لو اجتمع الانس والجن وهبطت الملائكة من السماء ، ما استطاعوا دفع الموت عنها ورد عادية المعتدين . وهأنذا أرى الحياة أمامى حالكة السواد تبعث إلى قلبى الفزع والخوف والقلق القاتل ، وقد غلت يداى وأصبحت أمام أمر واقع رهيب .

ليس أمامى غير خنجرى المسموم أوقف به ضربات قلبى فأميته وفاء وقرباناً ، وسلام على الدنيا وعفاء على الحياة ؟ الامضاء

(زامورا)

* * *

شعر (حامد) بانقباض شديد وألم لاحد له ، بعد أن تفتحت عيناه على الحقيقة الأليمة ، فراح يهتز وقد تفجرت الحمم فى صدره وغلى الدم فى عروقه ، لايدرى أى إيذاء يوقعه بالأشقياء وأى انتقام يشفى غليله ، وأخيراً ارتدى معطفه وخرج من غرفته وسار على عجل ، وكان يقول فى نفسه «لو اجتمع الانس والجن ، ما استطاعوا دفع الموت عنها» ؛ حسناً وأنا لست جناً أوملاكا ، وإنما إنسان قادر على إنقاذها من براثن الموت — وكان يحبس فى قلبه زفرات ملتهبة وراح يبتسم ابتسامة كلها سخرية وغيظ وألم .

كانت فكرة الذهاب إلى البقعة التى وجد فيها مذكرات زامورا أول شىء طرأ على ذهنه ، لأنه كان يعلم علم اليقين أن السائق لابد عائد إليها ، ليتفقد ما فقد ، لما فى مذكراته من مسائل وأسرار فى منتهى الخطورة ، ولايبعد أن يعثر هناك على جديد ينير له طريقه إلى المجرمين ويسهل عليه عملية الانقاذ .

لا يمكن طبعاً أن يعتمد على قدميه رغم قرب المكان من جراجه ، فقد كان الوقت أضيق من سم الخياط ، لذلك ركب إحدى سياراته وصار ينهب

بها الأرض نهباً ، ثم وقف سيارته بجانب الافريز على بعد أمتار من مكان التصادم يحجبه ظلام حالك ، وكانت الساعة فى منتصف العاشرة ، وكان الشارع خلواً من المارة ، والمطر ينهال فى غزارة ، فازداد انقباضه من وحشة المكان وصمته ، وتنبه فجأة إلى سيارة بالقرب من زقاق إلى اليسار ، فأسرع ناحيتها وقد أحس بشىء من الأمل حين عرف أنها سيارة زامورا . وبأسرع من لمح البصر تراجع إلى الوراء مذعوراً ، وأخذ يحملق فى وجه السائق الذى وجده مقتولا فى مقعده تنزف الدماء من جرح بالغ فى عنقه ، وظل صامتاً مكانه ! ثم هز رأسه بحزن وتمتم يقول : لقد كفر زامورا عن سيئاته وذنوبه فما أحسنه من وفاء !

وراح يجول حول السيارة يجرى بحثه وتفتيشه ، ثم صعد إلى المقعد الخلفى ، وأجرى تنقيبه ، فلم يظفر بما كان يشتهى ، حيث وجد جيوب المنتحر خالية بارزة كأن يداً قد امتدت وعبثت بما فيها ، وعاد بعد لحظة فشم رائحة عطرية نفاذة ، تنبعث من مقعد السائق ، تلك رائحة مألوفة لديه ، فرجعت به الذاكرة الى زجاجة العطر التى رآها منذ عشرة أيام فى حجرة صديقه رمزى حين ذكر أنها من صنع يده ولا يستعملها أحد غيره لغرابة تركيبها وغالى موادها ، ثم شعر (حامد) بالدهشة تعتريه وهو يفكر فى رمزى ، وراح يسائل نفسه : هل يمكن أن يقدم رمزى على قتل (زامورا) على هذه الصورة الوحشية ؟ وهل يمكن أن يخرج عن رشده فيرتكب هذه الجريمة الشنيعة على قارعة الطريق ؟ وهل يمكن أن يكون قد وقف على أخبار الجناية المزمع ارتكابها الليلة فى كورنواى كما وصف (زامورا) فى مذكراته ؟

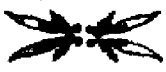

الفصل الخامس

الأعصاب الشيطانية

كل ما فى الحجرة يدل على الترف والغنى، فقد غطيت الحوائط والنوافذ بستائر سوداء سميكة، كما فرشت الأرض ببساط أسود فاخر، فبدت داكنة حالكة السواد، وفى الزاوية اليمنى وضع سرير أبيض كانت تصدر عنه بين آونة وأخرى أنات موجعة متقطعة من الرعشة، هى صوت العذاب والحزن المتغلغل فى أعماق النفس فى هذه المنزلة وداخل هذه المقبرة الصماء.

كانت مستلقية على فراشها، كأنها شبح غادرته الروح، ولم يبق لها من حسنها وميزاتها غير جدائل شعرها الذهبى يغطى وجهها الناحل الهزيل، وخبا نور عينيها النجلاوين، وأضحت كومة مهدمة تنبعث منها زفرات ملتهبة فيها أشد معانى الألم والعذاب. واجتمعت عليها آلام الداء وآلام النفس فراحت تئن أنين الجريح على فراش الموت:

— رحماك يا إلهى! أليس لهذه الحياة المرة من نهاية!

وقد أطلقتها صرخة من أعماق نفسها المعذبة، وراحت تبكى بكاءها الصامت، وشبح الموت يتراقص أمام عينيها ويقترب من فراشها لينتزع روحها من جسدها المهدم الهزيل، وكانت الأميرة تشعر بضيق شديد من احتمال قواها لهذه المكاره المؤلمة إلى هذا الحد، وقد كانت تؤمل لقاء حتفها من أمد بعيد، وكانت ترى فى الموت ما يحول بينها وبين آلامها المرة ومكائد

المالكين لروحها، والمتصرفين فيها تصرف السيد فى عبيده ومتاعه ، ولكنه أعرض عنها وأمسكت بها الحياة ، وهى حياة كلها احتراق وبكاء وألم . لقد عز الموت واستعصى على المنال، وإنه لكثير عليها أن تحتمل آلام النفس بعد أن أوقنوها على الحقيقة المرة ، وبعد أن كشفوا عنها قناع الغش والخداع ، زيادة فى إيلامها وعذابها ، وإنها لتتخيل بين كل آونة وأخرى كيف قتل (ياغوس) ونكل بغانم ، وكيف صدمها زامورا بسيارته فى الليلة الغبراء ، وكيف أغرقوا عمها (سابا) وقتلوا عمتها (نارجين) ليتخلص (فيجايا) من رقابتها ، وكيف اختطفوا والدتها ، وكيف قتلوها فى الغابة ، وكيف قتل شقيقها (جوجر) فى لندن حتى لا يكون عثرة فى سبيلهم فى المستقبل ، إنها تتخيل ذلك كله بعد أن وصفوه لها وصفاً مسهباً مريعاً ، فتحس بالألم يحز قلبها وتغلى فى صدرها زفرات الاحتراق .

فتح باب الحجرة بعد لحظة ، ودخل خادم يحمل كوباً من الماء ، ثم أغلق الباب دونه وأضاء الغرفة ، فسطع نور المصباح فى لون أزرق باهت ، زاد فى رهبتها وحزنها ، ثم حياها وارتمى عند قدميها يبكى وينتحب ، وراحت تنظر إليه وتقول : ماذا جد يا (نصرتا)؟ مالى أراك هكذا شاحب اللون خائر القوى ؟

وأحست به يهتز كالمحموم ويبكى بكاءاً شديداً ، ثم انقض على قدميها يقبلها ويضمها إلى صدره ، وهو يئن أنين الجرحى ، فاستجمعت بقية قوتها وقالت : ماذا دهاك يا (نصرتا) ، هل جد جديد ؟ وأغمضت عينيها إذ شعرت بنوبة ألمية تتمشى فى أعضائها ، ونهض (نصرتا) خافق القلب مهدم الأعصاب ، ووقف عند رأسها يمسح عينيه ويتظاهر بالثبات والهدوء ، وفتحت الأميرة عينيها ، ورفعت رأسها ، وقالت بصوت مختنق : إن علم

الغيب عند الله وحده ، ولكن فى اتجاه الوقائع ما يدل على مصائر الأمور ، كما يشاء الله ، فأية ميتة أعدوها لى ؛ وطفرت عيناها بالدموع وقالت : إنى أرحب بالموت يا (نصرتا) ولكنى أخشى أن ينكل الأشقياء بجسدى.

مادت الارض تحت قدمى نصرتا، ثم ارتمى على الارض بجوارها يجهش بالبكاء كالأطفال ويقول :

سيحرموننا منك إلى الأبد ،وهل يحلو لنا العيش بعد رحيلك ، إى وربى أصبحت أرى الحياة أمام باصرتى مقبرة محزنة ، كلها فزع وهول وأنين ، إننى لا أرى للحياة مذاقاً بعدك ، وليس أمامى إلا أن أصحبك إلى الناحية الغامضة المظلمة ، فقد نجد فيها متعة ومهبطاً طيباً .

واشتدت عليها نوبات الألم فأخذت تبكى وتئن أنيناً فيه أشد معانى الألم والعذاب ، وراح يواسيها بصوت مخنوق محطم قائلا :

— لتكن إرادة الله ومشيئته فى خلقه

وشعر (نصرتا) بعد لحظة بصوت أقدام فى الغرفة ، فرفع رأسه فجأة ودار بنظره إلى الخلف ، فرأى شاباً أنيق الملبس نحيل الجسم حسن الملامح يقترب جهة الفراش فى تؤدة ، فحاول (نصرتا) أن يستعيد ثباته فنهض ووقف فى طريقه يحول بينه وبين الأميرة ، وصاح به: ويلك ! كيف دخلت ؟

ونظر القادم إليه وقال : ليس هذا شأنك ، اهتم بنفسك

وحدق (نصرتا) بنظره فى وجه الشاب ـ وقد هاجت أعصابه ـ وقال : إن هذا أمر غريب ، ألا ترى أن فى دخولك على هذه الصورة معنى المغامرة بحياتك ؟

فابتسم الشاب وقال : لست جباناً ولو لم أكن مغامراً ما ولجت قصر كبير المجرمين ، فدعنى الآن أقضى حاجتى على عجل قبل فوات الوقت

فعض (نصرتا) على نواجذه غيظاً لهذه الفحة ، وقبض على يد خنجره فضحك الشاب وقال ساخراً : لاتكن سريع الغضب، وإلا فانك تعرض نفسك إلى التلف ، إننى لست جباناً ولا مغفلا ، وقد صرحت لك بأنى مادخلت الحجرة إلا لأغراض شريفة نزيهة، ومن العبث أن تقف فى سبيلى وتفوت على الوقت ،فدعنى أقترب من الأميرة ولا بأس من أن تقف بجوارى

ولم يجبه نصرتا وإنما ثبت فى مكانه وهو يهتز ويزمجر واستطرد الشاب يقول :

إذن فلماذا تجبن عن الدفاع عن الأميرة وإنقاذها من الميتة الرهيبة التى تنتظرها الليلة مادامت فيك الشجاعة التى تدفعك إلى الدفاع عنها فى هذا الموطن ؟ أليس هذا هو الجبن بعينه ؟ دعنى يا رجل ولا تعرقل عملية الإنقاذ . وهم بالسير ولكن نصرتا صاح فيه بشدة :

كلا . لا تخط خطوة أخرى وإلا أطلق مسدسى

وبدت على وجه الشاب أمارات الانقباض ، وراح ينظر تارة إلى فوهة المسدس المصوب إلى رأسه ، وتارة إلى فراش الأميرة ثم قال : لن أفعل ، ولكن ثق أنك بذلك تساعد الأشقياء على التنكيل بها من حيث تريد الذود عنها ، ومع ذلك فان هذا المسدس لن يمنعنى بتاتاً من أن أتقدم إلى الأمام كما أبغى ، والآن على ماذا عولت ؟

فلوى (نصرتا) شفتيه عن ابتسامة خبيثة وقال : عولت على قتلك ولو خضعت لإرادتى وهممت بالانصراف .

وبهت الشاب لهذا التصريح ، وماكاد ينظر فى ساعته حتى تملكه ذعر شديد ، وكأن الصاعقة انقضت على رأسه ، فلم يعد يحتمل أكثر من ذلك فصاح فيه : إن هذا لمنتهى الجنون ، يجب أن أكون فى كورنواى فى تمام

الساعة العاشرة، أنت تعلم الحقيقة وتعرف ماذا أعنى بذكرى (كورنواى) ، لقد عولت على إنقاذها ولا داعى لهذه السخافة والقحة .

فذعر (نصرتا) لدى سماعه هذه الجملة ، وقال وهو لا يتمالك نفسه من الدهشة :

ـ إذن أنت تعرف كل شىء . وتراخت يده وألقى بالمسدس أرضاً ، وراح ينظر إلى وجهه الشاحب وقد بدت على وجهه علامات الابتهاج وقال : إننى لا أفهم عملك هذا إلا أن تكون من رجال الشحنة السرية ، والآن يمكنك أن تقترب من الأميرة ... ولكن انتظر ودعنى أنبهها من غيبوبتها حتى لا تعاودها نوبتها الأليمة .

وتقدم (نصرتا) وأخذ يعالج الأميرة ، وطفق الشاب يمر بيديه على قدميها ليزيد فى دفئها وحرارتها ، ففتحت عينيها بعد زمن ، ثم نظرت إلى (نصرتا) وكان يعلو وجهها اصفرار شديد وهمست تقول : لم يأخذونى بعد يا (نصرتا) فهل حدث أمر ؟

وعلت ابتسامة الفرح شفتى (نصرتا) وقال : لقد اهتدى البوليس إلى السر ، وهاهو ذا أحدهم عند قدميك ، وتقدم الشاب ناحيتها وأحنى هامته ، وقدم إليه نصرتا كرسياً بجوارها فجلس عليه بأدب جم ، وهمس يقول فى ثبات ورفق : لقد جئت يا مولاتى لانقاذك من براثن الموت ، والواقع أننى سعيد جداً بهذه الحظوة ، وآمل أن ينال الأشقياء جزاء ما بغوا عاجلا .

وراح يكظم صرخة الألم بين جنبيه حين وقع نظره على جسدها النحيل ولونها الشاحب يتردد الموت فى صدى زافراتها وتأوهاتها الملتهبة ، فأحس بقلبه يتمزق ألماً ، وبنار حامية تلهب رأسه ، واغرورقت عيناه بالدموع وكاد يجهش بالبكاء ، لولا أنه تنبه إلى نفسه وتظاهر بالشجاعة والهدوء وتكلف ابتسامة حزينة .

نظرت إلى وجهه النحيل الحسن الملامح وقالت : « لكنك جئت بعد فوات الوقت ، لقد أصبحت حطاماً ، ولم يعد هنالك من أمل »

فقال وهو يخفى دموعه : بل بالعكس ، وسترين أن الله يريد لك النجاة والحياة الهانئة ، إذ لم يعد على خلاصك غير ساعات معدودة ، فثقى تماماً أنى أصرح بذلك بعد أن أعددت كل شىء ، فلا تعجبين ، فانى واقف على أسرار قصتك المحزنة ، منذ أن كنت طفلة إلى هذه اللحظة التى أحدثك فيها .

فقالت وهى تتفرس فى وجهه باهتمام : اعلم أن هذا كله لا يدخل ضمن اختصاص رجال البوليس ، ومع ذلك فقد دلت الحوادث على عجزه التام ، وسهولة وقوعه فى أضاليل المجرمين ، وتلويث سمعة الأبرياء كما حدث غير مرة .

فأجاب بكل سكينة وثبات « لست شرطياً كما توهم (نصرتا) من قبل ، والواقع أنى مهتم بقصتك لأحقق رغبات أناس آخرين ، مرادهم خلاصك وسعادتك وإنقاذك من هذا الجو الطافح بالشرور والمكائد ، إنى أعترف بعجز البوليس حيال نكبة (غانم) و (ياغوس) وحادثة اختطافك من الماء وأسرك فى هذه المقبرة الموحشة ؛ ومع ذلك فأنى أحمد الله على هذا الظفر الذى واتانى فى أبحاثى حتى اهتديت إلى مقرك »

وتوقفت عن الكلام لحظة ثم قالت ، وهى لا تتمالك نفسها من إبداء دهشتها :

ـــ لست شرطياً ! إذن كيف دخلت هذه المقبرة وكيف وقفت على نكبة (غانم) و (ياغوس) ؟ وإذن فمن أنت ؟

فأجابها بصوت هادىء عادى « لست شرطياً ولكن هذا لا يمنع من أن أكون إخصائياً فى أعمال الشرطة ، ولم أفعل ذلك إلا لأنى واثق من أنى أقوم بعمل شريف ، تقضى به الشرائع وتحتمه ، والآن يمكننى أن أقول

إنى حضرت لأستردك وأعودبك إلى موطنك ، عزيزة الجانب ، موفورة الكرامة .

فراحت تنظر إليه إلى ماينبعث من نظرات عينيه السوداوين من الحياة والجرأة والثقة بالنفس وقالت : ألم يخطر ببالك أنك تستطيع المغامرة بحياتك لإنقاذى دون تحقيق هذه الرغبة ؟

فقال على الفور: لقدأعددت كل شىء ،ولم يبق إلا تنفيذ الخطة،ولاأخالنى كاذباً إذا أكدت نجاحها دون الحاجة إلى قتل أو سفك دماء ؛ اعتمدى على بعد الله ، ولا تدع اليأس يتسرب إلى قلبك ،فهل تعوزك الشجاعة ؟

فأجابت : « كلا ياسيدى فهى إحدى صفاتى، ولكنى أخشى أن يسوك بأذى ، ولو سألتنى رأيى فانى لم أعد أهتم بأمرى وشبح الموت يقترب ناحيتى على عجل ، وأرى أنه أولى لك ألا تغامر فيما يهدد شبابك الغض وحياتك الهنيئة ، لقد رأيت كثيراً من الشبان ولكنى لم أر أحداً منهم فى جرأتك وشجاعتك ونبل نفسك ، فأرجوك وألحف فى رجائى أن تبتعد عن هذا الميدان المملوء بالويلات والمآسى الدامية »

وأطرق الشاب هنية ـ وهو ينقل نظره بين نصرتا والأميرة ـ ثم مالبث أن نهض وأمر (نصرتا) بأن يتبعه إلى أحد أركان الحجرة،وهناك تحادثا طويلا فى أصوات خافتة ، وعادا بعد لحظة إلى الاميرة ، فوقف الشاب عند رأسها وتهالك (نصرتا) عند قدميها يخففان عنها آلامها ويعداها بقرب النجاة، وبعد لحظة علت صرخة خافتة وهبت رائحة عطرية نفاذة ملأت الغرفة ، فتخاذلت أعصابها ، ولم تعد قادرة على الحركة ،ولم تمض ثوان حتى صارت جثة لاحراك بها ، رفع الشاب المنديل عن أنفها بعد أن تأكد من فقدها لوعيها ، ثم التفت إلى نصرتا وقال :

لاتخش شيئاً ، لاتدعهم يعلمون الحقيقة ، والآن إلى اللقاء .

وبأسرع من لمح البصر اختفى وراء الستائر ، ثم فتح النافذة وطفق يتدلى على سلم من الحبال حتى بلغ الأرض ، وراح يسرع فى خطواته تحجبه أستار الظلام .

* * *

دقت الساعة دقاتها العشر ، فابتدأ الذعر يستولى على قلب (نصرتا) وهو يقول فى نفسه : هل يمكن أن يقف الزعيم على الحقيقة ؟ وهل يمكن أن يشتبه فى رائحة المخدر ؟ وهل يشك فى الأمر ؟ وانتابت (نصرتا) الهواجس ، وأخيراً نهض إلى النوافذ ففتحها ، وقضى وقتاً غير قصير فى تهوية الغرفة المشبعة برائحة العطر النفاذة ، وبعد لحظة سمعت جلبة فى البهو الخارجى ، ودخل الغرفة الزعيم (فيجايا) يتبعه (بيتو) (وفيداس) بملابسهم الافرنجية ، وسار (نصرتا) فى الخلف حتى وقفوا أمام الفراش وانحنى الزعيم يفحصها ثم سأل نصرتا : متى انتابها هذا الاغماء ؟

ووقفت دقات قلبه لحظة ثم قال : منذ بضع دقائق يامولاى

— هل أوقفتها على الحقيقة ؟

— نعم يامولاى لقد أخبرتها بقرب زواجكم من الراقصة البارعة وقرب خلاصنا منها .

— افهم سؤالى ، هل شرحت لها الميتة بالتفصيل ؟

— نعم يامولاى وهذا ما أحدث لها هذا الاغماء الشديد

— هل لاحظت عليها شيئاً من أمارات الألم حين علمت بخبر زواجى

— نعم ياسيدى لقد بكت كثيراً

— ماذا قالت عن الراقصة ؟

ـ قالت إنها اطلعت على صورتها فى الصحف ووصفتها بأحط الصفات

ـ هل تعتقد أن معنى ذلك أنها تحسد الراقصة وتغار منها ؟

ـ بكل تأكيد يامولاى ، فلقد قالت إن جمالها السابق يسمو عن أن يضاهيه جمال شارلوت ومثيلاتها ، وإنها ـ وقد فقدت ملاحتها وحسنها ـ لاتجد مناصاً من النزول عند حكمكم وإراداتكم ، ولامفر من إقلاعكم عن حبها وهجرانكم إياها إلى غيرها من بنات الغرب

وأطرق الزعيم هنيهة ـ وقد بدت عليه علامات التفكير ـ ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ إنى لاأستطيع فهم سبب عنادها طول هذه المدة ، ثم عدولها عن رأيها فى آخر لحظة ، ولوى (بيتو) شفتيه عن ابتسامة لعينة وقال : لاشىء سوى أنها تخشى الموت وتتعلق بالحياة ، لقد صارت شبحاً مخيفاً يقض علينا المضاجع ، وفضلا عن ذلك فلم تعد تصلح لزواج أو معاشرة ، ولزم (فيجايا) الصمت لحظة ، وأخذ يرمق وجهها الشاحب الذى تعلوه صفرة الموت وعاد يقول : أعتقد ذلك كما أعتقد أنها لم تفقد بعد ذكاءها وخداعها ، وطبعاً ليس فى وسعى سوى تنفيذ ماعزمت عليه الليلة ، إنها لحظة حسنة تلك التى ستتبعها للخلاص من هذه الخبيثة الملعونة ، لأننى منها أشد المقت ولا أحمل هنا فى قلبى ذرة من الرحمة أو العطف

لقد كان فى مقدورها أن تحيا حياة سعيدة ، يوم عشقتها ووددت الزواج منها ، ولكنها عاندت واستكبرت استكباراً وكنت إلى جوارها عبداً ذليلا .

واشتد هياجه ، وصعد الدم إلى رأسه ، وذهبت ذاكرته تزيد فى ثورته

بما تعرضه عليه من ذكريات الماضى وصوره ، فجزع على نواجذه ألماً ، وراح يقطع الغرفة ذهاباً وجيئة وهو يقول بحدة :

ـ يجب أن تموت ، إننى لا أطيق رؤيتها لحظة أخرى .

وطلب من (فيداس) كأساً من الخمر فجرعها جرعة واحدة ، وشعر برشاده يعود إليه ـ على الرغم من شدة هياجه ـ وتوقف لحظة ثم تهالك على أحد المقاعد يزمجر غيظاً ويضم قبضتيه بشدة واقترب منه (بيتو) ونظر إليه دهشاً وقال : إذا كان قتلها والخلاص منها كل ما يريد مولاى ، وإذا كانت الخطة قد أحكمت بما لا يدع مجالا للخوف أو الحذر فلم هذا الهياج والاضطراب ؟

فأسرع يجيبه : هـذا غريب حقاً ، الواقع أننى لازلت أحمل لها فى قلبى بعض العطف ، وما كنت أظن يوما أننى سأندفع إلى هذه الهاوية وأقدم على جريمة قتلها .

وثبت (بيتو) نظره فى وجه الزعيم وقال : أعلم ذلك ، كما أعلم أن الأميرة تتمنى لو تتاح لها الفرصة لتكل بنا أشد تنكيل وتنتقم لنفسها شر انتقام ، وأحب ألا تنسى (جوجايت)وبطشه ، لقد احتملناها على الرغم من احتقارها لنا ومقتها إيانا ، ولم يبق أمامنا غير الخلاص منها حتى لا نقع فى التهلكة .

وانتهى (بيتو) ثم جلس على مقعد وهو يقول : ثق أننا لن نعيش سعداء مادامت الحياة تدب فى عروقها

وسكت لحظة ـ وقد ظهر الألم على وجه الزعيم ـ ،وعاد يقول : اعلم أن ميتتها شنيعة يامولاى ، ولكننى أشعر أننا على صواب فى اختيارها دون غيرها ، فقد يهتدى البوليس إلى أجزاء بدنها ، ولكن من المحال أن يتسرب

إلى البعض الاعتقاد بأنها الأميرة إذا عثروا عليها حية ، فلا يمكن أن يعرفوا فى هيكلها المحطم الأميرة توليات رمز الجمال الأسمى .

فقال الرئيس مقتضباً: أتدرى أننى كنت أود ألا تكون هذه ميتتها؟

وبهت (بيتو) لهذا التصريح ولكنه مالبث أن قال : ولكن مولاى قد نوى القتل ، وقد تعددت الأسباب والموت واحد ، فهل تفضل أن تبقى على حياتها ؟

ـــ لا ، وإنما كنت أود ألا تكون هذه ميتتها

وسكتا لحظة وأشعل الزعيم سيجاراً وراح يدخن بهدوء ـ وهو ينظر إلى الأميرة فى حيرة وقلق ـ ، ثم حول نظره إلى (بيتو) وقال : « لابد من الخلاص منها ، لقد أقسمت ولا بد من التنفيذ »

واعتدل (بيتو) فى مقعده وقال : « إذن فأنت مصمم على القتل »

فقال على الفور : بلا شك ، لا مناص من قتلها على أية صورة .

فابتسم (بيتو) ابتسامة خبيثة وقال : إذن فماذا تخشى ؟ .... ألم يخطر ببال مولاى أننا بهذه الخطة نستطيع الخلاص منها دون حاجة إلى عناء كبير؟

ولم يجبه الزعيم وإنما هز رأسه واستطرد (بيتو) يقول : أما مكان الجريمة فلقد أحسن (فيداس) اختياره ،لأنه بقعة ساكنة موحشة تعلوها تلال ورمال ،وليس بها منازل وسكان إذا استثنينا قصراً دلت الأبحاث على أنه مهجور لا يأوى إليه أحد .

وبدت أمارات الابتهاج على وجه الزعيم ، وما لبث أن قال : إذا خلا الطريق من رجال البوليس فلن تكون هناك صعوبات تثير المخاوف ...

فنظر إليه (بيتو) ـ وعلى فمه ابتسامة الاستهتار ـ وقال : لا تتوجس أية خيفة يامولاى ، وما دام (ماليز) قد قبل المكافأة ورضى بالاشتراك فى الجريمة فليس ثمة ما يثير المخاوف .

واستطرد (بيتو) يقول بعد لحظة : حقاً لقد لاحظت على ماليز دوام إخفائه معالم وجهه تحت نقابه الأسود ، مما أدى إلى جهلنا التام بسحنته واحاط شخصيته بكثير من الغموض، ولكن لو علمنا أنه سفاح إيطالى ومغامر لا يرحم ، لالتمسناله الأعذار، فقد نشأ عن حبه للاجرام ـ كما يقولون ـ أنه صار عرضة لكيد الخصوم ، يهددون حياته ويودون التشفى والانتقام من أعماق نفوسهم ، وأنا أعتقد أن رجلا هذا شأنه جدير بأن نعتمد عليه فى كافة مشروعاتنا، وفى استطاعتنا أن نضمه إلى جانبنا هو وأفراد عصابته ، لو أغريناهم بقليل من مالك وعطفك .

وأجاب الرئيس ـ وكان فى عينيه ما يدل على قلقه ـ : أتمنى ذلك ، لقد اجتمعت بماليز هنا غير مرة فألفيته شاباً جريئاً يستحق صداقتنا ، وقد دعانى ماتوسمته فيه من صفات إلى إطلاعه على أسرار عديدة ، وأظهر لى استعداده لشد أزرنا كلما مكنته الظروف .

وبينما هما يتحادثان دخل أحد الخدم وأعلن قدوم (ماليز) ، فلم تمض ثوان حتى دخل الحجرة رجل مقنع الوجه فى ثياب فاخرة، فما أن رآه الزعيم حتى أسرع إليه يهش فى وجهه، بينما أحاط بهما الموجودون بالغرفة يستمعون إلى المحاورة التى كانت تدور بينهما ، فلما استقر بهما المقام مال الرجل إلى أذن الزعيم ، وأسر فيهـا بضع كلمات ، ثم رفع عينيه إلى (بيتو) وقال مازحاً : أأنت واثق من أعصابك يا (بيتو) ؟ فأحنى له هامته مبتسماً : بكل تأكيد ، إنها أعصاب شيطانية .

وسكت (ماليز) لحظة ثم قال : أعتقد ذلك ، ولكن ألا ترى معى أنها ميتته جهنمية ؟

فكفهر وجه (بيتو) ثم ما لبث أن قال : أعتقد ذلك ، ولكنها أهل

لها ، وما دام الزعيم قد أشار بذلك فلا بد من تنفيذ مشيئته .

ولم يجبه (ماليز) بل التفت إلى الزعيم وقال : إذن فهى فكرة الزعيم ؟

فتمتم (فيجايا) بصوت يرتعد من التأثر : ربما ، ولقد اضطررنا أن نختار لها هذه الميتة حتى لايقف أحد لها على أثر ، وتضيع معالم الجريمة .

فأطرق (ماليز) برهة ثم رفع رأسه وقال بلهجة فيها معانى الاستياء :

ـ هـذا غريب ! ولـكن ألم تكن هناك فكرة للتشفى ؟ قد نجـد ميتة أخرى إذا كانت الرغبة هى عدم الفضيحة وتعمية المحققين ورجال البوليس ، وفى وسعى أن أرشدكم إلى وسائل عديدة ، دون الحاجة إلى مثل هذه الاستعدادات والمتاعب .

وامتعض (بيتو) من هذا الـكلام ، وبدت على وجهه علامات الاستياء ، ولـكنه ما لبث أن قال :

ـــ هو حظها ياسيدى . . . الأمر الآن للزعيم

فأجاب (فيجايا) ـ وهو يمنع نفسه من التأثر ـ : لقد أزف الوقت ولم يعد فى استطاعتنا تغيير الخطة بعد أن تمت الاستعدادات

فنظر إليه (ماليز) وقال ـ ليس هناك من أمر مهم يدعـونى إلى هذا الفضول ، ولـكنى رأيت أن أشير عليه بمـا هو أسرع وأوفر ، وأنا أعرف (بيتو) رجلا جريئاً يحمل بين جنبيه قلباً وهو قلب الأسد ، إلا أن ما آخذه عليه إنما هو سرعة هياجه وقلة ذكائه فى بعض المواطن التى تحتاج إلى تبصر وتوقد الذهن ، وعلى كل حال دعونا الآن من هذه المحاورة إلى فرصـه أخرى . . . . كم الساعة الآن ؟

ودخل الغرفة فى هذه اللحظة ثلاثة من الهنود ، انحنوا أمام الزعيم ، وقال أحدهم فى خشوع : لقد حان الوقت يامولاى ، تم كل شىء ، حضر زامورا

منذ ثلاث دقائق. وكانت تلوح على اثنين منهم دلائل الاجرام والخبث ، ودنا الثالث من مقعد الزعيم وقال : لقد أعددنا سيارة ثانية يقودها (نصرتا) والآن فليسمح لنا الزعيم بالعمل ، فأجابه الزعيم بقوله : حسناً يامانجو ، احملهـا برفقة (بيتو) وزميلك واتبعونا إلى السيارتين ، فارتد (مانجو) على عقبيه وكانت تلوح عليه علامات الحزن والتألم ، ونهض الزعيم وسار برفقة (مالير) إلى الباب ، ومنه نزلا إلى الطابق الأرضى ثم إلى الخارج ، ووقفا أمام السيارتين ينظران إلى (زامورا) العملاق الأسود ، وهو يجد فى إصلاح آلات السيارة وتموينها بالبنزين ، وألقى (مالير) عليه نظرة طويلة ، ثم استردها وقد شعر بهزة الفرح والابتهاج ، ثم التفت إلى الزعيم وتكلم بصوت يشبه الهمس فقال : نستطيع أن نركب سيارة (نصرتا) ويرافقنا (بيتو) وواحد من الحراس ، ويحسن أن تتقدمنا سيارة (زامورا) يباقى الحراس كدليل يرشدنا ويؤمننا من الطوارىء

فأجاب الزعيم : أجل ، إنها فكرة عرضت لى ، لا سيما والمعروف عن (زامورا) رعونته وطيشه وإفراطه فى السكر رغم تشديدى وتحذيرى — وأراهن أنه لم يعبأ بأوامرى الليلة ، وشرب الكأس حتى الثمالة

وهم بالاقتراب من السائق لولا أن سارع (مالير) فجذبه من ذراعه وقال على عجل : اسمع أيها الزعيم إن وقتنا أضيق من أن يتسع لمثل هذه الألاعيب ، لأنك لابد أن تكون فى تمام رزانتك وهدوئك ولا يمكن أن تؤدى عمل الليلة وأنت مضطرب الأعصاب مغضباً . هيا واتبعنى إلى السيارة . وقاده من ذراعه وصمدا إلى السيارة الخلفية ، وأقبل فى هذه اللحظة خمسة من الهنود وعلى رأسهم (بيتو) يحملون بين أيديهم غرارا أسود كبير الحجم . ووضعوا كيساً عند أقدام الزعيم فى السيارة

وقفز (نصرتا) إلى مقعد القيادة ، وجلس بجواره (بيتو) بينما أسرع (مانجو) وزميلاه فركبوا سيارة (زامورا) وبعد برهة انطلقت السيارتان تنهبان أرض لندن فى جوف الليل .

كانت الشوارع تصفر من المارة وكان الجو بارداً والأمطار تهطل بغزارة ، ومع ذلك فقد كانت السيارتان تنحرفان فى الشوارع والميادين بسرعة مدهشة واتزان عجيب . سارتا فى أقوى سرعة حتى أتمتا رحلتهما فى شوارع لندن وظهرت حدودها فى طريقهما إلى كورنواى فاعترضتهما عوائق طبيعية من الحفرات العديدة وكثبان الرمال والحصى مما دعا إلى تقليل السرعة زهاء نصف ساعة . ثم تدرج السائقان فى ازدياد السرعة حينما أفلتت السيارتان من آخر نقطة من الطريق غير المنتظم ، وعرجتا بعد زمن على طريق آخر . انكشف عن بعض مساكن قروية متناثرة فى الفضاء الفسيح المغطى بالحصى والرمال ، وظهرت التلال عن كثب كأنها قطع من السحاب تترامى إلى مدى بعيد . واعتدل (مالير) فى جلسته وأشار بأصبعه إلى اليمين وقال دهشاً : ويحك يا (بيتو) ! ما هذا القصر ؟ فضحك (بيتو) ملء شدقيه وقال : كنت أتوقع منك هذا السؤال ، أما هذا القصر فخلو من كل ما يخشى منه على المسألة

ـ لا يبعد أن يكون ذلك ، ولكن ألا ترى معى أنه كان أجدر بك أن تستقصى أسراره وأخباره قبل المغامرة ؟

فأجاب عازئاً : أعلم ذلك ، وأحب أن تعلم بأنى أخذت للأمر عدته ؛ أما هذا القصر فهجور من ساكنيه منذ أمد بعيد ، وكان مأوى لأحد علماء الجيولوجيا ثم هجره على هذه الصورة .

ومضت دقائق وقفت السيارتان بعدها وسط بقعة مظلمة يمر بها شريط سكة حديدية بين سلسلتين من التلال والهضاب الصخرية وبعض المستنقعات

والحشائش الطفيلية تمتد جوار الشريط يعلو منها صرير الحشرات ونقيق الضفادع يشق سكون الليل الصامت الرهيب .

تركوا السيارتين خلف أحد التلال ، وساروا يحملون الكيس إلى ناحية الشريط ، وكان (فيجايا) و (مالير) فى المقدمة يتبعهم (بيتو) و (مانجو) وزميلاه الخبيثان (راجيوما) و (شياهول) يحملون الكيس ثم (نصرتا) و(زامورا) فى الخلف. وقبل أن يصلوا إلى الشريط ببضع أمتار اقترح (بيتو) إخراج الأميرة من الكيس، ثم ما لبث أن انحنى عليه ففك الوثاقات وقذف بالأميرة منه وهى كومة آدمية تشمئز منها النفس ، وراح الجميع ينظرون إلى جسدها البالى عند أقدامهم وعلت شفاه (بيتو)و(شياهول)و(راجيوما) و(فيجايا) ابتسامة الفرح والفوز، ثم امتدت أيديهم إلى ثوبها يخلعونه عن بدنها حتى لا يهتدي البوليس إلى حقيقتها فتسوء العاقبة ويسهل وقوعهم فى المحققين .

وكأن الصاعقة انقضت على رأس (نصرتا) فلم يستطع أن يحتمل أكثر من ذلك، فانقض بخنجره على (فيجايا) يبغى تمزيق عنقه وهو يصيح : دعها يامجرم فقد طفح الكيل

فهب (فيجايا) مذعوراً وتراجع إلى الوراء ليتقى ضربة نصرتا ثم انقض عليه فأوقعه أرضاً وفى هذه الأثناء سمع صفير القطار عن كثب وأخذت القضبان تهتز اهتزازاً طفق يشتد آونة بعد أخرى ، وعلا الدخان فى الفضاء المحجوب بالسحب القاتمة ممتزجاً بشرارات من نار ملتهبة. ثم سقط القناع وعصفت العاصفة ترن بأصوات الأهوال والمآسى الدامية ، واكفهرت الوجوه المقنعة وتفجرت الحمم فى الصدور وغلى الدم فى المراجل فرعدت الأصوات ودوت الطلقات النارية وبرقت الخناجر وراحت تلمع فى سواد الليل الرهيب .

ظهر القطار يلتهب المسافات لهباً ويهز الأرض بدويه ورعده واهتزت القضبان اهتزازاً عنيفاً تحت تأثير عجلاته الهائلة .

وفي أثناء من لمح البصر أفلت بيتو من يد حامد وألقاه مضرجاً بدمائه والتقى ناحية الأميرة فحملها بين يديه ، وراح يعدو بها ناحية الشريط في جنون ، ولكن سرعان ما انتصب مالير واقفاً والدم يسيل من صدره ووجهه . وصوب مسدسه ثم أطلقه على بيتو فسقط الأخير بحمله على قيد ثلاثين من الشريط ... حاول مالير العدو فكان يكبو على وجهه إعياءاً ولم يقدر على إتمام السير لانقاذ الأميرة من الخطر الداهم ... فقد قذف بها بيتو قبل سقوطه إلى الشريط ولم يبق على مداهمة القطار لبدنها غير ثوان .

تراخى أعصاب مالير وراحت الدنيا تدور أمام عينيه في سباق مخيف ثم ما لبث أن جمد الدم في عروقه وصاح صيحة داوية « رحماك . . . رحماك يا إلهي ، لم يعد لي أمل في الحياة بعدها »

وسقط رأسه وراح في إغماء شديد ... ومر القطار بدويه ورعده واستمرت القضبان تهتز اهتزازها العنيف حتى احتجبت وراء التلال والكثبان ، مخلفاً قوى محطمة وأجساداً مكدودة مثخنة بالجراح تتصعد منها زفرات وأنين وتأوهات الجزع والألم والاشفاق .

الفصل السادس

العالم الجيولوجى

استمرت العاصفة تدوى وتعصف ، ولازالت الأرض تضطرب وتهتز والقلوب ترتعد خوفاً وجزعاً . والعيون باكية دامية والأعصاب مهدمة خائرة والأبدان على الثرى مشوهة مقشعرة الجلود شاحبة الوجوه مشدوهة الألباب . وبرز شبح من مخبأه يتلفت يمنة ويسرة ، ثم حمل حمله وسار يقول فى نفسه : ما أقسى قلب الانسان وما أبعد فؤاده عن الرحمة !

وراح يهيم فى هذا الفضاء الفسيح ، وكان الظلام مخيما على هذا الفضاء المترامى الأرجاء ، لا يرى فيه الناظر بصيصاً من نور يمزق حجب الظلام المتكاثفة فوق كثبان الرمال وما يحوطها من مساحات شاسعة يقصر عن إدراكها مدى النظر .

لم يلتق به أحد فى طريقه فجد فى السير والعرق يتصبب من جبينه ، لا من الكلال والافراط فى الجهود ، ولكن من أثر ما ولدته المعركة الدموية والميتة النكراء فى نفسه من انقباض بالغ ورعب مميت . وكان يحدث نفسه بين كل آونة وأخرى « ما أبعد الانسانية عن الشعور ! ما ذنبها وهى الطيبة القلب الجميلة الخلق النقية الضمير حتى يمثل بها هذا التمثيل الشنيع ؟ ... لا شىء إلا تمسكها بالفضيلة وعدم نزولها على إرادة من ترى فى معاشرتهم هوان النفس وخفض الجانب ... أسفى عليها لقد أمست جثة ضاوية هزيلة

استحالت بشرتها البضة الخمرية إلى صفرة الموتى، ولم يبق فى جسدها قطرة واحدة من دمها ينعش من قواها المحطمة وأعصابها المهدمة ، وقد كانت بهجة الناظرين ومتعة الحياة ،ولو أنها رضيت بالشقى لها بعلا ما أوقعوها فى هذه الهوة السحيقة وما رضوا لها هذه الميتة الشنيعة ، وهى التى لم تلوث يديها وسمعتها فى حياتها بجريمة أوشين ولم تقترف إثماً أوعدواناً ، ولكنه قلبها الطاهر وضميرها النزيه يأبيان عليها وضع أنفها فى الرغام والنزول على حكم الباغين ومشيئتهم ؛ فما أنبلها من نفس ... »

وقف بعد زمن وطرح نظرة إلى الخلف حيث التلال والمغاور والأودية الغائرة ، والمطر يتساقط عليه والبرد يهرأ جسده ،وإن هو لكذلك إذ وقع نظره على قصر عليه مسحة من الوحشة تحوطه التلال وتحجبه ،فشعر بهزة الفرح وأخذ طريقه إليه ، وقد أنهكه السير ولحق به الكلال ، سار فى مسلك ممهد حتى بلغ باب الحديقة ، وكانت الأرض مغطاة بالحشيش خارج الباب وعلى جوانب المسالك زهريات للورود والرياحين . وكان منظر القصر موحشاً رغم أبهته ، يدل على قفره لانفراده فى هذه الناحية الجبلية الموحشة الرهيبة ،ومع ذلك فقد استحسن البقعة وعول على المكث فيها والاستظلال بأشجارها حتى تتجدد قواه ويباشر علاج من غامر لانقاذه ورعايته ودفع عادية الموت عنه .

أنزل حماره برفق وراح ينظر إلى الجنة تعلوها صفرة الموت وشبحه ،ثم مال على صدرها فسمع صوت أنفاسها تتردد ، وظل على هذه الحال هنيهة ثم أخرج من معطفه حقيبة صغيرة وطفق يعالج المنكوبة الشقية بشتى الاسعافات ، حتى بدأت الحرارة تدب فى جسمها شيئاً فشيئاً ،ثم رفع رأسها الضعيف الواهى وأسنده على فخذه ،فوقع نظره على غضون جبلتها آلام الشقاء وفادح الأوجاع . وتقطر زرقاء تحيط بعينيها من أثر الشدائد الا

قاستها فى محنتها ومرضها، فشعر بقلبه ينخلع من جانحتيه، وراحت دموعه تجرى على وجنتيه حارة ملتهبة ، وهـو يقول فى نفسه : الحمد لله لقد أنقذتها ودفعت عنها سهم المنية ؛ وظل يرقب الفضـاء بعين حائرة وينقل بصره هنا وهناك كأنما يسأل العون على أمره ،ولـكن أين المعين فى هذا العدم من البشر ؟ وماهى إلا لحظة حتى هبت ريح شـديدة اهتزت لها الأشجار وتمايلت واشتد هطول المطر فبلل كل شىء وتساقطت قطراته على بدنها فبللت ثيابها الممزقة وظهر بدنها الأزرق الهزيل وانكشف لعبث الرياح الصاخبة،وهنا وقف الشاب جامداً مشدوه اللب أمام هذه المناظر المؤلمة وشبح الموت يتراقص حوله ويهم باختطاف روحها من بين جنبيها ، ثم خلع ثيابه وطرحها عليها وانحنى بجسده العارى- إلا من ثوب رقيق- على رأسها ليحميها من وقع اصطدام القطرات ببدنها الذابل، وراح المطر يتساقط على بدنه والبرد يعبث بأعضائه والريح تصفر صفيراً مزعجاً وهو يرتعش ويشكو صامتا وأحس بالقشعريرة تسرى فى بدنه وخيل اليه فى النهاية أن الحمى تتمشى فى أعضائه وتـكاد تقضى على البقية الباقية من قواه . وكانت كلما اشتدت الريح ازداد عناداً وإصراراً ، ولم تعد عيناه تبصران غير الأميرة ،ولم يعد له من أمل غير الفناء فى سبيل بقائها ، ولم تعد عاطفته تستمع لغير أنفاسها الخافتة المتقطعة . وراح يحـدث نفسه حائرا مهدما : ماجريرة هذه الفتاة الطاهرة حتى تداس بالنعال وتدار عليها كؤوس العذاب والمذلة إلى هذا الحد؟ لست أدرى أأصبت أم أخطأت فيما فعلت؟ لست أدرى هل يعد إنقاذى إياها من ميتتها الشنيعة عملا يجر عليها نوائح جديدة فى حياة كانت راغبة عنها زاهدة فيها مؤملة الخلاص العاجل منها على أية صورة ، هل أستطيع أن أحوطها بعنايتى ورعايتى وآخذ على نفس السهر

عليها واحتمال جميع الآلام والأرزاء فى سبيلها وأحول أحزانها وبلواها إلى مسرات ومباهج ! وهل أستطيع أن أزيل من حجب السواد الداكنة التى تغشى بصرها وأرفع من على عينيها المنظار الأسود الذى تنظر خلاله إلى الحياة فتتنسم نسيم الحرية وتستروح رائحتها الزكية الطيبة ؟ وهل أستطيع أن أكون لها مؤنساً ونديماً أملأ نفسها غبطة ومروراً لاشغفاً بها أو أملا فى الزواج منها ونيل السعادة بجوارها أو طمعاً فى جاهها وحسبها ونسبها ولكن للرغبة فى إسعادها وحمايتها حتى تشعر بالأمن والطمأنينة واستكمال جميع صفاتها كأميرة بارعة لها مالها من جاه وشهرة مادمت قد أنقذتها من الموت ودفعت بها إلى الحياة من جديد وما دمت قد أخذت على نفسى ووطنت العزم على المغامرة والمخاطرة وما دمت لا أجد فى قلبى غير العطف والحنان ، وهذا القلب الذى لم يعرف المرأة حياته ويوجس الخيفة منها ويتوقع كل مصاب على يديها ، هذا القلب الذى حاولت سهامهن إصابته فلم يتمكن من إصابته ونعتنه وصاحبه بأحط النعوت لا أستطيع اليوم أن أقود زمامه وأملكه عن الجزع أمام مصاب فتاة لاقت من الشقاء مالا يستطاع احتماله وتجرع كأسه .

إننى لا أجد فيه ذرة من العطف والحب لأننى لم أمنح ولن أمنح المرأة من عواطف قلبى إلا ما كان منها فى حدود الرأفة والرحمة والحنو ، لأن البلاء هو المرأة . نعم هذا هو مذهبى الذى لاأحيد عنه رغم أننى شاب له آراؤه وأحلامه وآماله ورغم اهتمامى بشئون المرأة والدفاع عنها والانتصاف لها فى كل موطن ، بذلك رحبت الحياة أمام باصرتى ورأيتها مملوءة بالفرح والغبطة لاتشوبها مآسى الحب ولايعبث بصفوها مكر النساء ، ولقد نزلت هذا الميدان الذى يعج بالمآسى والأهوال دفاعا عن

واحدة منهن ، رغم يقينى بأننى ذائق من الويل والبلاء مايثقل الكاهل من جراء الدفاع عنها وانتشالها ورغم اعتقادى بأنه لولاداما وقعت كارثة (غانم) وأودى بحياة (ياغـوس) فى زهرة شبابهما وريعانة صباهما ، ورغم وثوق بأن عهد الآلام لن ينقضى عند هـذا الحد وأن السهام القاتلة لن تغفل أمرى للخلاص والانتقام ، إننى أعلم ذلك ، وأعلم أن نهايتى حانت وباتت على الأبواب وأن خاتمتى ستكون مهوى سحيقاً ، ولـكن ما كان يجوز لى ضنا بحياتى وراحة نفسى أن أترك هذه المسكينة تموت هذه الميتة الفظيعة على مرأى ومسمع منى أو أرتضى لها هذا المصير المخيف .

لقد دفعنى قلبى الرؤوف الحنون الذى عاش بعيداً عن هموم الدنيا وأهوالها إلى النزول فى المعركة وأبى على أن أقف مكتوف اليدين أمام هذا الاجرام المنظم والغـدر الفظيع . . . اللهم إنى لا أنتظر من وراء ذلك نفعاً ولا أرجو أن أرى من هذه الفتاة عند ماتتنسم الحرية وتستعيد ذاهب عزها وسعـادتها ما يعوض المصـائب التى تتراءى لى على أفق المستقبل القريب شيئاً . لقد خبرت المرأة وعرفت جل صفاتها وقد أكون مخطئا ولـكنها لن تستطيع أن تسبغ على يوما من أيامى الطليقة الهادئة . .

مكث على حالته تلك واجما حزينا ذاهل العقل مشرد الفكر وكان رغم ما هوفيه من هم وضيق وعذاب يبتسم ويشجع نفسه على احتمال الشقاء حتى لا تخونه قواه وتفتر عزيمته ويسقط وسط الطريق محطماً مهدماً ، والريح تئن وقطرات الماء تنهال دون انقطاع والمكان يشتد وحشة وسواداً وهو لا يدرى أى سـبيل يتخذ لإنقاذها من الخطر ، ويحاول أن يمسـك خيطـاً من الأمل يتعلق به ، ومرت اللحظات وتنبه فجأة على صوتها الضعيف تهذى ، فقام مسرعاً وأفرج شفتيه عن ا سامة الفرح والفوز

وقد أحس بقبس من الأمل ملأه شجاعة وغبطة ونشاطاً وقوة .

انقضى كل شيء وزال عنها كل خطر ولم يبق إلا السعى لإدخالها هذا القصر لانعاشها من تأثير الخدر وإحاطتها بوسائل الراحة والطمأنينة . سارت به قدماه فى المسلك الممهد المؤدى إلى باب القصر المنعزل الصامت صمت أبى الهول وسط فسيح بيدائه ، وكانت قضبان الباب الحديدى تمتد إلى ارتفاع بضعة أمتار وتلتف على حديقة فسيحة تؤدى إلى سلالم القصر بممر مرصوف بالحجارة الصغيرة السوداء ، وكان كل شيء فى الحديقة يدل على عناية بأمرها وتفرغ لشئونها. فالأزهار يانعة مختلفة الألوان والأجناس. والمياه تنساب فوق صخور صناعية فى قنوات طويلة تمتد متعرجة إلى الحديقة وجوانبها الواسعة ويحيط بأطرافها خلف السور الحديدى الممتد حول القصر فى جميع جهاته أشجار عالية باسقة تحول بين القصر والانظار عن كثب . كل شيء جميل يزيل الشجن ويملأ النفوس الحزينة غبطة وبشراً . فمارفيف الريح وخفيف الأشجار وخرير المياه ولعلعة البروق ودوى الرعود إلا مظاهر الطبيعة وألسنتها الناطقة فى هذا السكون وتلك الوحشة .

وقف (رمزى) أمام الباب الكبير وبدنه يهتز ويرتعش من شدة البرد وتبلل ثيابه الرقيقة من المطر الغزير الذى توالى عليه زمناً غير قصير ، ورغم أن المظاهر كانت تدل دلالة واضحة على خلو القصر من ساكنيه ولا أثر لمخلوق فيه فقد بدأ الشاب يقرع الباب قرعات قوية سمع صداها فى الفضاء رنيناً قويا ، كان يأمل أن يجد فى القصر بستانى الحديقة فيسأله العون وإيواءه إلى الصباح حتى تهيت المسكينة فى نجوة من آلام الزمهرير القاتل وصخب الطبيعة المتواصل بعد ماذاقته وتحملته من آلام وأوجاع

تنوء بها كواهل الجبابرة . لم يجبه أحد من داخل المنزل أو من الحديقة ، فقد كان الصمت شاملا والسكون مخيما على جميع الأرجاء فزاد ذلك فى ألمه وحزنه وبعث فيه اليأس والجزع ، وراح قلبه يخفق بشدة وشعر بقوادتخور وزاد فى هذا الوهن النفسى خوره الجسدى مما انتابه وتوارد عليه فى هذه الليلة الغبراء من متاعب ومشاق وأهوال وتعرضه للمطر الغزير والريح الصرصر التى كانت تعصف فى شدة وعنف . أخذ يطيل التحديق فى لهف إلى نوافذ القصر المغلقة وأبوابه التى كانت تتراءى له كأنها أبواب القبور ، وبعد دقائق قامى فيها مالم يقاسه فى حياته من التعب والوهن خانته قواده وشعر بساقيه ترتجفان ولا يقويان على حمله بينما خفقت ضربات يده على الباب تدريجياً حتى تلاشت وسقطت يده إلى جانبه ، لقد أفرطت أعصابه فى بذل الجهود فارتمى بجوارها مستتراً خلف أغصان ملتفة يزفر من أعماق نفسه وقد استحال كل شىء إلى شقاء وبؤس وضيق ... استسلم صاغراً لمشيئة القدر دامع العينين وقد أسقط فى يده وأمسى عاجزاً عن إتمام خطته ودفع عادية المطر والبرد فى هذا الليل الحالك والبقعة الصامتة الموحشة ، كل هذا يحدث وهى تهذى فى آهات تتقطع لها نياط القلوب فيحس بالنار تلهب رأسه وكبده وتمزق حشاشته ويتمثل له شبح الموت ينفذ إليها من بين الأغصان ليختطف روحها ويفسد عليه كل تدبير ويحرمه لذة النصر والفوز فيثور مكانه ويضمها إلى صدره كالمجنون ليحول بينها وبين الموت ، وهو يئن ويتألم فى هذه الوحشة التى انقطع فيها ما كان بينه وبين الأحياء من صلة.

وما هى إلا لحظة حتى سمع وقع أقدام تدنو فى تثاقل نحو الباب وسمع وقعها على الحشائش التى تغطى الطريق الذى سلكه من قبل إلى باب الحديقة ... انكمش بين الأشجار وأخذ يرهف السمع ملياً ويحدق ناحية

القادم ليستطلع خبره فى لهفة ، وبعد زمن برز شبح بيده مصباح يمزق بنوره الضعيف أحشاء الظلمات يقترب نحو الباب من بعيد ، وكان بطىء الخطوات ، فسمع (رمزى) بعد لحظة صوت زفراته وأنينه الخافت يملو باقترابه ناحيته ، فتريث فى مكانه حتى اقترب الشبح وما كاد يتأمله حتى انتفض فزعاً مذعوراً وكتم فى صدره صيحة الدهشة : يا إلهى ! الرجل المقنع !

ووقف الرجل أمام الباب وأخرج مفتاحاً ثم أعمله فى القفل وهو يبكى وينتحب والدم يسيل من وجهه وصدره ولا يكاد يقوى على حمل نفسه . لم يقف (رمزى) على معالم سحنته إذ كان مقنع الوجه غير أنه عرف فيه الرجل الذى ضال فى المعركة الدموية ضد فيجايا وأتباعه والذى سمعهم يطلقون عليه لفظة مالير والذى ثارت ثائرته عند رؤية الأميرة تعبث بها الأيادى الجهنمية فأعلن الحرب وناضل أشد نضال .

فتح الرجل الباب ودخل الحديقة دون أن يغلقه خلفه ، وكان يجر نفسه جرا ويزفر باكياً بين كل فترة وأخرى فى حالة يأس وذهول : لقد ضاقت ساحة الصبر ، وذهب العزاء الباقى لى فى هذه الحياة .

وظل يخطو فى الحديقة مترنحاً لا تهدأ دموعه ونحيبه حتى انقطع أثره ، وأسرع رمزى فحمل الأميرة بين يديه صامتاً واجماً مذهولا ، ثم أفلت من الباب وراح يقطع الممر المؤدى إلى باب القصر بخفة وحذر ، لكنه وجده مفتوحاً فراح يسترق السمع هنا وهناك ، وتردد ثوانى معدودة ثم تسلل إلى البهو ومنه إلى إحدى الغرف ، وتحسس أثاثها فى الظلام فألفى فى أحد أركانها فراشاً وثيراً ، وما أن عثر عليه حتى طرح الأميرة عليه وتنهد تنهد السرور والاغتباط وشعر كأنه قد أفاق من كابوس مزعج مخيف ، ثم تريث هنيهة

ولما لم يسمع ما يوجس منه خيفة ، تشجع وأضاء الغرفة بمصباحها السكهربائى فراعه فخامة الحجرة وأبهة أثاثها على نحو لم يعهده فى غير قصور الملوك وسادة القوم ... صور زيتية ونقوش تفيض بمعانى الدقة والبراعة وآنية ذهبية وبلورية وصلت به إلى فرط البهر بسحر جمالها وبارع رونقها ... بسط نفيسة وأرائك وثيرة وتماثيل مذهبة يهز القلب مرآها كما تستميل الطرف بأبهتها وسحرها ، فشرع يسرح النظر فى محتويات الأثاث والدهشة تملأ نفسه ، وأفاق بعد زمن فأسرع يبحث عن الصناديق فعثر على ما كان يبغى ويحب من ملابس نسائية وغيرها فانتقى منها ما يصلح لحالة الأميرة ، ثم أطفأ المصباح وشرع يخلع عنها ملابسها المبللة ويجفف بدنها وألبسها ثوباً صوفياً خفيفاً كما ألبس نفسه ثياباً جديدة ثم فتح صنبور التدفئة وأضاء الغرفة وجلس عند قدميها يمر بيديه عليها ، ولم يزل يعنى بانعاشها حتى سرت الحرارة فى بدنها تدريجياً وهمست تقول وهى مغمضة العينين : أين أنا؟

فوقف عند رأسها وهو يكاد يطير من الفرح وأجاب : بين يدى من أخذ على نفسه السهر عليك ، من يحمل بين ضلوعه لك عاطفة الأم ويحتمل كل آلام الحياة وأرزائها فى سبيلك .

ـ من هو ؟

ـ هو من يسيل وجوده كله حناناً عليك ويظلك بحمايته ورعايته ويبذل راضياً آخر قطرة من دمه فى سبيل راحتك وإسعادك .

وسكتت هنيهة ثم تتمت فى صوت متهدج كله ألم : إننى لا أرى إلا ظلاماً وحلكة ، أين ذهبت باصرتى وماذا حل بجسدى ؟ أواه من ألم الكهولة وعبث المشيب ، أسفاً على أيام الشباب ، أيام العز والمجد ، أيام الفتوة والحماس .

فقال وهو يمسح دموعه : وهل بلغت من العمر الدرجة التى ترين فيها الدنيا على هذه الصورة من السواد والحزن ؟

فهمست تقول : كيف لا وقد تعديت الثمانين من سنى وهاهى ذى قوتى مهدمة وأعصابى خائرة وبأصرتى مفقودة ورأسى صفحة فى بياض الثلج وأسنانى مستعارة أشعر بها تتماوج بين فكى !

فقال وهو يتحسس بيده نبضها ويمسح بالأخرى جبينها : لازلت يامولاتى الصغيرة زهرة الشباب اليانعة تعطر الأراضى ونجمة تنير الآفاق .

ومرت فترة سكون جاهدت خلالها فتح عينيها ثم قالت فى نبرات ثابتة : من أنت أيها الملاك المرفرف فوق رأسى ؟ نبرات صوتك تأخذ بسمعى مأخذ الألحان المشجية ، وكأنى بها تشير ....

وسكتت بغتة ثم فتحت عينيها ودارت بها حائرة فى أنحاء الغرفة ، فتسلل الشاب دون أن تلحظه من الغرفة ، وأغلق عليها الباب وراح يتخذ العدة ليخطو خطوته الختامية . كان عليه أن يتجسس عن المقنع الجريح صاحب الشخصية الغريبة ليقف على ماخفى عليه من أمره ويمد إليه يد المعونة ويواسيه ويخفف من آلام جرحه وآلام نفسه . وطاف أرجاء القصر ومرت لحظات وهو ينادى ويبحث ولم يزل يفتش ويصيخ السمع هنا وهناك دون أن يصل إلى نتيجة حتى انبلج الفجر وانقضت دولة الظلام ، فقرر الرحيل إلى لندن لاستدعاء أصدقائه والطبيب والرجوع بهم على عجل .

خرج من القصر ، وبعد أن أحكم إغلاق أبوابه على الأميرة سار فى الحديقة وعثر فيها على سيارة فخمة كأنها كانت فى انتظاره ، ثم قفز إلى المقعد وانطلق بها يطوى الأرض وينهبها نهباً . وكان يشعر وهو ينطلق بالسيارة أنه أحسن فى عمله وبذل فى ذلك من الجهد ما يعجز عنه كثيرون . وراح يستعرض

الحوادث التى مهدت له الطريق إلى الأميرة وظفره بها ، وطفق يفكر فى القصر المنعزل وصاحبه الغريب ويسأل نفسه : ترى هل أصبت أم أخطأت فى وضع الأميرة وحيدة بين جدرانه الصماء ؟ وهل يمكن أن يكون (ماليو) مجرما سفاكا ؟ وهل يمكن أن يكون قصره النفيس الفخم مأوى للأشرار فى وسط هذه البقعة المنعزلة البعيدة عن أعين البوليس ورجال الأمن ؟ وهل كان خيراً له أن يبقى بجانب الأميرة يسهر عليها حتى تسترد قواها ورشادها أم أنه محق فى عمله هذا حتى يتسنى للطبيب علاجها قبل استفحال الخطب واشتداد الحمى التى سرت فى بدنها من تأثير المطر والبرد ؟ إنه لا يدرى أأصاب أم أخطأ ، ولكن صورة (ماليو) وما أحاط شخصيته من غموض كانت تدخل على نفسه الخوف وتزيد فى هواجسه ومخاوفه. لقد رآه ينقض على (فيجايا) ثم رآه بعينى رأسه يطلق النار على (بيتو) لإنقاذ الفتاة من مداهمة القطار لها وما تلا ذلك من بكائه وعويله وإغمائه قبيل مداهمة القطار للفتاة . إنه لم يره ولم يلمح سحنته ولم يستطع أن يقف على شىء من أمره لتقنعه ، حقاً لقد استطاع أن يعرف (حامد) متقمصاً شخصية (زامورا) لأنه هو نفسه الذى خدر السائق العملاق بعد أن انتزع من فمه بحذق كل ما يحب ويشتهى من معلومات خطيرة ، فلم يكن من الصعب عليه أن يكشف الحقيقة عن كثب رغم إتقان (حامد) لتنكره ، ولم يكن بعيداً عليه أن يتوقع نشوب المعركة بين (حامد) والأشقياء دفاعاً عن الأميرة ، ولقد وقعت المعركة فعلا ولكن على صورة غريبة ما كان يتوقعها وما كان يتصورها ويتخيلها فى ذهنه ، فقد راعه انقضاض بعض الهنود على زعيمهم ووقوفهم فى صف (حامد) وانضمام (ماليو) إليهم وما تبع ذلك من شدة وسفك دماء وهرب واختفاء . ولكن هل يمكن أن يكون هذا

الشقاق بين الزعيم وأتباعه وبينه وبين (ماليز) نتيجة اختلافهم على الأجر والجزاء ، وإلا فمن يكون (ماليز) ؟ لابد أن يكون سفاحا أراد (فيجايا) استخدامه لتنفيذ أغراضه الجهنمية نظير أجر من المال ، فلما اختلفا على المكافأة قبل الجريمة ثارت ثائرة (ماليز) ، ولا يبعد أن يكون عصيان الهنود الآخرين انتصاراً لماليز بغية اقتسام ما فى جيوب زعيمهم أو أسره والتصرف فيه وفى أمواله .

وهكذا ظل الشاب يعالج الموضوع من كل جهاته ويسأل نفسه هذه الأسئلة فلا يصل إلى جواب يرضيه ويسرى عن نفسه هواجسه وهمومه وظنونه ، ومكث على ذلك لحظات قاسية حتى استفاق إلى نفسه عندما وجد نفسه يدخل لندن العظيمة ويقتحم شوارعها العامرة بسرعة غير عادية . كان كل همه منصرفا إلى الإسراع لعمل الاستعدادات اللازمة لدرء الخطر عن الأميرة ، ولكنه اضطر لوقوف عند شارع اكسفورد تبعاً لإشارة المرور ، ولمح بغتة عيونا تنظر خفية إلى ناحيته ، وصدرت من رجل على الافريز الأيمن إشارة إلى الخلف فانقبض صدره ومرت لحظة كلها فزع وقلق ، ونظر الشاب إلى الرجل الذى أتى بالاشارة فرآه يبتعد ويسرع فى خطاه حتى اختفى بين المارة فعاد إلى سكونه وقال يحدث نفسه : لقد أنقذتها ولو كان من المقدر لى الموت هنا فلا مفر ، ولم تمر هنيهة حتى شعر بصدمة قوية من الخلف سلقت سيارته فتمددت الخط الأبيض ووصلت إلى وسط المفترق ، ولم تكد تستقر فى هذا الموضع الخطير حتى دهمتها سيارتان أثناء مرورها فى الطريق المفتوح فكانت كارثة ... تحطمت سيارته من شدة الصدمة بينما تداخلت أجزاؤها المحطمة بحطام السيارتين الأخريين ، ودوى صراخ الركاب والمارة فتجمهر الناس وكان قد أصيب

الركاب جميعاً باصابات بعضها خطر وبعضها بسيط ، وأخرى سببت وفاة رجلين وفتاة ، ورأى الشاب ـ وكان مصابا بجرح بالغ فى جبهته وهو ملقى تحت الانقاض ـ أن الحالة تستدعى ضبط النفس والاسراع بالفرار لإطلاع أصدقائه على السر لانقاذ الأميرة من القصر ، أو قد تحين نهايته إذا انتظر اجراءات البوليس والمحققين ، وما كاد رجال البوليس يحيطون بالحطام وقبل أن يشرعوا فى إتمام الدائرة كان قد تخلص مما قد أمسك بساقية من الانقاض ، وحين أوشكوا على الاقتراب منه كان هذا على ساقيه يعدو فى آخر سرعته والدم يسيل من جبهته ومؤخرة رأسه ، ولم يكن نصيبه من هذه المحاولة غير الوقوع فى قبضة الشرطة ، إذ ما لبث أن احتاطوه فى نهاية الشارع بالموتوسيكلات وهددوه باطلاق النار فاستسلم لهم وهو يبكى وينشج ، لا من الألم وهول مصابه ، ولكن حزناً ولوعة على الأميرة التى أشرفت على الهلاك وحكم عليها بالموت سجناً .

رجعوا به وسط موكب من المارة وهم بين عاطف مشفق وبين صاخب لاعن ، وارتفعت صيحات حادة وعلت ضجة القوم فى مكان الفاجعة عند رؤيتهم له ، وأسرع الرجال يركضون ناحيته من كل مكان وهم فى فزع شديد يصيحون طالبين تمزيق بدنه وقذفه ، بينما البعض يقطع الحجارة والزجاج فسالت دماؤه من أكثر من جرح ، واستفز الغضب ثائرة الآخرين فاقتحموا صفوف البوليس بالقوة وناله عصيهم بأذى كبير حتى خارت قواه وتهدمت وهو يردد بين كل فترة وأخرى قوله : اللهم إن الموت غاية كل حى ، فلو كان مقدراً لى أن أموت مرجوما فليس هناك من فر .

ومرت لحظة قاسية جاهد فيها البوليس فى إنقاذه من اعتداء الثائرين حيناً شاقاً ، ولكن سرعان ما لحق الجموع عملاق أسود فى ثياب فاخرة .

كان قد نزل من سيارته عند الكارثة ، فلما رأى هـذا الموكب وعلم أنه المجرم الذى سبب الفاجعة ، ذهب ليرى معه أمره . كان (فيجايا) بعينه وكان فى الميدان عند المفترق مع بعض أعوانه الذين كانوا السبب الحقيقى فى إحداث الكارثة ، فلما دنا من الجمع أفسحوا له الطريق إلى المجرم ، وانحنى له الشرطة احتراما لسابق معرفتهم بمكانته ، ورآه الشاب فى ذهوله يبتسم ابتسامة كلها شماتة وقحة فدارت الدنيا أمام عينيه ولم يعد يشعر بشىء مما يدور حوله . وكان الضابط رئيس الشرطة مشغولا بمنع الناس من الدنو نحو الشاب وإيذائه فتوجه إليه (فيجايا) وقال : أود مخاطبة هذا الشاب على انفراد بضعة ثوان ، فأدى له الضابط التحية وظل صامتاً يفكر ملياً ثم قال ـ ليس هناك ما يمنعنى من رفض طلب حضرة الزعيم ، ولكن هل يمكن ان يقف بجوارك بعض الجنود محافظة عليه من بطش الغاضبين ؟

فامتعض الزعيم قليلا ولكنه ما لبث أن قال ـ اسمع أيها الضابط ، إنى أحب أن أحدثه دون أن يسمعنا أحد ، فهل يمكن ذلك ؟

فأطرق الضابط برأسه برهة ثم رفع رأسه وقال : ليس هناك ما يمنعكم من محادثته على الافريز ، وسنحاول من جانبنا منع دنو الناس منكما .

والتفت إلى أحد الجنود وقال : سيمون ! خذ هذا الشاب معك إلى الافريز الأيمن ثم اتركه وقف على مسافة خمسة أمتار أو سبعة حتى يتيسر للزعيم محادثته على انفراد .

وفعل الجندى ما أمره الضابط به ، وقاد الشاب الجريح وهو يترنح بين يديه شاحب اللون ممزق الثياب ، وتقدم نحوه (فيجايا) وقال له . أأنت رمزى ؟

فنظر إليه الشاب نظرة ملتهبة وهو يعانى عوارض الاغماء وقال : ماذا تريد ؟

فهز الزعيم رأسه بحزن وقال وهو يتظاهر بالتأثر : إننى أعترف أمامك بأنك شاب جرىء ، ولكن ألا ترى معى أنك هويت إلى أبعد حدود الذلة والانكسار بسبب مغامرتك فى شىء لايعود عليك إلا بالضرر والايذاء ؟ والأدهى من ذلك أن كارثة اليوم ستمهد السبيل إلى ولوجك غياهب السجن وظلماته زمناً طويلا ، وقد كان فى استطاعتك أن تكون فى نجوة من المهالك ولو فعلت ذلك ما ضرك بشىء مطلقاً ، ولكن يظهر أنها كبوة من كبوات الشباب المتحمس، وهذا ما يحدونى الآن إلى عدم التمهل ومساعدتك على الخلاص بكل ما يتسع له الذرع .

فانتفض الشاب فى مكانه وصاح فيه : إننى أرحب بالسجن وبكل عذاب، لقد أنقذت الفريسة ومحال أن تغرينى بهذا الكلام المعسول لأدلك على مكانها . وأحب أن تعلم بأنها فى حرز لن تصل إليه يد . ولم يحفل الزعيم بنظرات الشاب النارية فتقدم نحوه وقال : لقد أخبرنا (نصرتا) بكل شىء ولكن أحب أن تعتقد بأننى لن أتوانى عن البحث عنها ولو كانت فى السماء ، إنك شاب له آماله فى الحياة ، ومن الاجرام أن تقضى على نفسك بنفسك وتزج بها لغير شىء فى سجن مظلم قاتم تفنى فيه زهرة شبابك ، أؤكد لك أن أصدقاءك لن يحفلوا بك بعد نكبتك الكبرى ، ولن يعرفوك إلا كما يعرف كل مجرم سفاك وسجين عات فتصبح نادماً لا تجد من يهون عليك مرارة السجن وما ستلقاه فيه من أنواع العذاب وصنوف الآلام .

والآن فأمامك ثلاث ثوان .... أين الأميرة ؟

فاسودت الدنيا فى عينى الشاب الجريح ودارت دوراناً مخيفاً، وأحس أن جسده يميل إلى الأمام ، وأنه لايقوى على القيام أو امتلاك زمام نفسه، فترنح بمنة ويسرة ،وما هى إلا هنيهة حتى سقط على الأرض بعنف وراح حثة لا حراك بها .

***

سيق إلى المحاكمة بعد أيام فى حال من الذهول والألم تستثير الشجون وتستدر الدموع، وكان فى القاعة (فيجايا) وبعض أعوانه وكانوا كلهم شهود إثبات لإدانته ،ورغم أنه دافع عن نفسه وشرفه أحسن دفاع، فان القاضى لم يلبث — بعد أن سمع شهادة الزعيم الهندى الكبير — أن اقتنع باجرامه فقضى بحبس الشاب خمس سنوات مع الشغل،فدوت قاعة الجلسة بالتصفيق والهتاف للنزاهة والعدل والحرية ، بينما سقط الجريح المسكين بين أيدى الحراس مغشياً عليه .

وما أن أمسى المساء حتى كان يوسف فى أغلال الذل والبؤس والشقاء

الفصل السابع

صاحب الرموش البيضاء

بينما كان (فتحى) جالساً إلى مكتبه فى شقته الصغيرة ، سمع جرس التلفون يدق فتناول السماعة فاذا بصاحب الصوت صديقه (عباس) يقول فى صوت متهدج بعد أن حياه :

أتدرى أنى كنت لا أتوقع أن يكون مصير (رمزى) هذا المصير الأسود ؟

فانتفض الشاب ، وصاح مذعوراً : ماذا تقول ؟

ـ إنه الآن فى سجن لندن منذ خمسة عشر يوماً ، إذ حكم عليه بخمس سنين مع الشغل ، أيمكنك أن تتصور هذا المصير ؟

فصرخ الشاب فزعاً : هل تعرف التهمة التى وجهوها اليه ؟

ـ كلا . ولكنى أعتقد أنها مكيدة دبرها له (فيجايا) للخلاص منه ، ومما زاد فى اعتقادى هذا أن (رمزى) كان يتردد على النادى الذى اعتاد (فيجايا) الجلوس فيه ، وكانت تلوح عليه فى بعض الأحايين أمارات دلتنى على أنه يخشى أمراً أو أنه كشف سراً جديداً ... وكان ذلك منذ عشرين يوماً .

ـ ألم تره فى السجن ؟

ـ كلا . إذ أن التعليمات تحول بيننا وبين زيارته .

ـ ماذا تعنى ؟

أعنى أنهم يعاملونه فى السجن معاملة شاذة قاسية .

ـ وماذا تقول فى ذلك ؟

ـ أقول : إن لفيجايا يداً فى مسألته .

ـ حسناً ، سوف نعرف كل ما نريد معرفته بصدد هذا الموضوع ، فأين أستطيع مقابلتك ؟

ـ من الصعب أن تهتدى إلى الآن ، كما أنه من المخطورة أن أرشدك إلى مقرى ، إذ أن عين (فيداس) تتبعنى أنى ذهبت .

ـ ولكنى لم أرك منذ ثلاثة أيام فماذا كانت نتيجة أبحاثك ؟

ـ لا شىء ! وفى هذه المدة راقبت قصر (فيجايا) وأكثرت من اقتفاء آثاره إلى جهات شتى ، وكان يخيل إلى أنه فى قلق مستمر رغم ما كان يتكلفه من الظهور أمام الناس فى الشوارع بمظهر الهدوء والسكينة ، وقد اهتديت بعد جهد كبير إلى مرجديدلم أتوصل بعد إلى حله ، فقد ترددت لفظة (كورنواى) وسمعتها من فم الزعيم أكثر من مرة ، لذلك أكثرت من التجسس حتى وقفت على خبر مؤداه أن (بيتو) يكثر من التردد على (كورنواى) تلك الناحية الموحشة ، ويجرى فيها تفتيشاً دقيقاً ، وحدث اليوم أنه خرج فى طريقه إلى المحطة كعادته ، وكنت قد اتخذت للأمر عدته . فتبعته وبصحبتى (عبد السميع) شقيق (حامد) الذى اختفى الآخر من زمن ولم نعد نسمع عنه أى خبر . . . وما كاد (بيتو) يستقل القطار حتى أسرع (عبد السميع) من فوره بالسفر خلسة ليقف على أخباره ، وقد وعدنى بالعودة عند قدومه ، وها أنذا فى انتظاره ، وقد مضى على رحيله أربع ساعات وأوشك النهار أن ينقضى .

ـ ألم يخبرك (عبد السميع) عن سبب غياب أخيه ؟

ـ كلا ، لقد فهمت منه أنه لم يره منذ خمسة عشر يوماً ولم يقف بعد على شىء من أخباره .

ـ أيمكن أن يكون زميلا لرمزى فى سجنه ؟

ـ لم أر ما يدل على ذلك إذ أفهمنى أحدهم أن التهمة التى سيق من أجلها إلى السجن ، تهمة اعتداء على المارة ، ولكن أى اعتداء ؟لا أدرى ولا أستطيع التكهن به .

ـ إن تفكيرى فى ذلك يؤلمنى أشد الألم ؛ لقد حرم (رمزى) من الامتحان كما حرم من التمتع بلذة النجاح ونيل الدرجة العلمية التى كان يعلل النفس بها ، والآن سأذهب إلى السجن على الفور ، وإذا وقفت على معلومات جديدة ، فأرجو إفادتى فى النادى .

ـ انتظر . . . . انتظر . . . . لقد حضر عبد السميع .

وهنا انقطعت المواصلة فأمسك (فتحى) لفافة تبغ ، وراح يقطع الغرفة ذهاباً وجيئة ، وهو يمعن فى التفكير ، وقد اشتد حزنه وهمه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة هى ابتسامة الألم ، ومر بخاطره أن حادثاً جديداً حدث فى (كورنواى) وأن غياب (عبد السميع) على هذه الصورة دليل على عظم الخطب وأهميته ؛ وما كاد الجرس يدق حتى اضطرب اضطراباً شديداً وأسرع إلى السماعة وقال فى جنون : ماذا ؟... مصاب جديد ؟... تكلم .

ـ انكشف السر (يافتحى) ، اسمع . . . هل يمكنك أن تملك زمام أعصابك ؟

فصاح بدهشة وذعر : بكل تأكيد ، ماذا حدث ؟ أسرع .

ـ لا زالت المسألة غامضة مشوشة ، فقد وقف (عبدالسميع) على أن الأميرة كانت حية إلى عهد قريب ، وجىء بها إلى (كورنواى) لإعدامها تحت عجلات الاكسبريس للخلاص منها بعيداً عن أعين الشرطة ، ولكن حدث أن مجهولين اختطفاها قبل مداهمة القطار لها بثوان فى غفلة من المجرمين ،

ويظهر أن الأشقياء وقفوا على سر اختطافها بعد أيام ، فأخذوا يترددون على (كورنواى) للبحث والتفتيش ، وقد عثر (عبد السميع) على قصر منعزل رأى (بيتو) يحوم حوله للتجسس على أصحابه ، ويقول (عبد السميع) إن (بيتو) لم يتمكن من ولوج القصر رغم محاولاته العديدة ، ظهر له أنه مهجور منذ أمد بعيد ، إذ عليه مسحة الوحشة والحزن ، وإلى آخر لحظة كان (بيتو) متردداً فى نسف القصر بالبارود ، وفى الاعتقاد أنه يرجح وجود الأميرة به مع خاطفيها ...

وهنا انقطعت المواصلة التليفونية فجأة ، فدهش (فتحى) دهشة عظيمة أخذت عليه أنفاسه وذهل عقله حتى كاد يجن وينقد وعيه ، ثم صمت لحظة جامداً مشدوهاً ، وبعد قليل استطاع أن يمسك السماعة وصاح : عباس ! عباس ! ماذا حدث ؟

ولم يتلق جواباً ، فأخذ قلبه يدق دقاً عنيفاً ، ودخل عليه الرعب ، فصعق صعقة بالغة كادت تقضى عليه ، وراح يصيح فى جنون : عباس ! عباس ! ماذا حدث ؟

وسمع بعد لحظة رهيبة صوتاً متهدجاً يقول : فتحى !... لقد هاجمونا ونحن فى غفلة . . . أسرع بالرحيل إلى كورنواى . . . احذرهم .

وسمع على أثر ذلك ضوضاء وأصوات فزع وصرخات وأنات وزمجرة وطلقات نارية يعقبها صراخ وأنين .

انتفض الشاب انتفاضاً شديداً ، وأخذت هذه الصيحات تدور مسرعة فى ذهنه وتدوى كالرعد وهو جامد فى مكانه لا يستطيع الكلام أو السير خطوة واحدة ، وخارت قواه ولم يقدر على امتلاك زمام أعصابه المضطربة فارتمى على مقعده يبكى حظه العاثر ومصيبته فى صحبته الثانية وأعوانه الجدد . وكان يتمثل له وسط هذا السكون والظلام المخيف شبح (فيجايا) يتسلل

إلى غرفتـه ليقضى عليه وينتزع روحه من بين جنبيـه فى فظاعة مقتل (غانم) وغموض ميتة (ياغوس) فيجمـد الدم فى عروقه ويقشعر بدنه وتميد الأرض تحته .

لم يبق له من نصير يدفع عنه بعض البلاء أو يشاركه همومه وأحزانه ... لقد حكم عليه بالموت وحان حينه وخلا الجو لفيجايا ينكل به كما يشتهى ويحب .

واشتد عليه الألم وانتابته الهواجس والأفكار القاتلة تلهب رأسه وتمزق فؤاده وقد اسودت الدنيـا فى عينيه وزادت مرارة ووحشة ، واستفاق بعد زمن إلى نفسه واستقر تفكيره عند ناحية واحدة ، هى أن الأميرة حية ترزق ، ويرجح (بيتو) وجودهـا فى القصر المنعزل ، ويتردد فى نسف القصر ، ويجزم (عبد السميع) بوجود الأميرة بين جدرانه .

وذهبت ذاكرته تعرض أمام عينيه صور المـاضى وآمال المستقبل فأحس بقوة خارقة تدب فى بدنه ، وبدت له فكرة الاسراع بالرحيل إلى كورنواى وإنقاذ الأميرة قبل أن تصلها يد (بيتو) الشيطان ، وسرت هذه الفـكرة سريان الدم فى عروقه ومرت اللحظات فقام وكله شجاعة وإقدام ورجاء ، رجاء المستميت فى إنقاذ الأميرة من الميتة الجهنمية على يد (بيتو) الجزار .

وما انتصفت الساعة السادسة حتى كان قد أنجز كل شىء ، فأقفل باب شقته ووقف أمامه برهة وهو يقول فى نفسـه : أيمكن أن أعود ثانية ؟ وراح ينزل درجات السلم وهو يمعن فى التفكير .

* * *

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وهجمت جحافل الظلام فسار على عجل فى حذر ويقظة ، وكانت خطواته متزنة ، كذلك كانت حركاته عادية

لا تحرك فضولا أو تجتذب انتباهاً . كانت نيته معقودة على التوجه إلى السجن لرؤية صديقه المسكين والاستفسار عن سبب نكبته وبلواه ، ولكنه عاد فتذكر (فيجايا) وعيونه، إذ معنى ذهابه إلى هناك المغامرة بحياته والوقوع فى شبكة من شباك (فيجايا) التى لابد قد نصبها قرب السجن لعلمه اليقين بزيارة أصدقائه له إذا وقفوا على حقيقته ، ويتسنى له بذلك إيقاعهم فى الشرك جماعات وأفراداً . ثم إن فى ذهابه إلى هناك عرقلة لعملية الانقاذ فى كورنواى وضياع الوقت وهو أحوج ما يكون إلى دقيقة واحدة ليمنع بطش (بيتو) وينتشل المسكينة من بين براثن الميتة الشيطانية التى يعدها لها فى هذه البقعة النائية .

ولهذه الاعتبارات رأى أن من العبث الباطل التوجه إلى السجن أو البقاء فى لندن لحظة واحدة لمعرفة ما حدث لصديقه (عباس) و (عبد السميع) ، فألوى عن هذه المحاولة كشحاً ، وأخذ طريقه إلى المحطة .

سار وهو يلتهب شوقاً لرؤية الأميرة ، وأحس بقبس من الأمل ينير له الطريق وسط الظلمات المتكاثفة فى سمائه ، فجد فى السير ، وهو يكاد يرقص طرباً ويمتلىء حماساً وأملا وغبطة . وكان يزداد شوقه المبرح إلى الأميرة كلما مرت اللحظات حتى خيل إليه أنه يقفز فى الطريق قفزاً ، ولكن حدث أن تنبه فى الطريق فجأة إلى صوت بجواره يقول :

ـ عفواً ياسيدى ، هل لك أن تدلنى على الوقت ؟

والتفت الشاب إلى محدثه فوقع نظره على رجل متوسط القامة يرتدى معطفاً سميكا بياقة عريضة رفعها إلى عنقه فغطته ، وغطت الجزء الأكبر من مؤخر رأسه وأسفل وجهه ، فامتعض الشاب من هيئة الرجل ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه وأجاب : الساعة الآن السادسة وربع .

وإذ ذاك ابتسم الرجل وقال فى لهجة حافلة بالأدب واللطف : أحب

أن أتأكد من ذلك ، إنك لم تنظر إلى ساعتك . فازداد قلق الشاب وبدت على وجهه أمارات الغضب . وقال فى شىء من الحدة والغيظ : أظن أننى سأتأخر عن موعدى بسببك . تأكد ياسيدى أننى أخبرتك عن الوقت بالضبط . ثم ازداد غيظه فحاول استدعاء رجل الشرطة . ولكن الرجل كان قد ابتعد عنه فى أدب وهو يقول : وهل أخطأت فى شىء ياسيدى ؟.. على كل حال أشكرك . فنظر إليه الشاب عابساً وأجابه فى خشونة :

ـ قطاع الطرق لا يعترضون المارة بهذه القحة

فبدت على وجه الرجل سحابة ألم واستياء ، فوقف ثانية وقال بصوت خافت : لقد تكررت إهانتك لى ياسيدى دون مبرر .

وتأمل الشاب الرجل الواقف أمامه ، فوقع نظره على شعيرات ذقنه وشاربه فرآها بيضاء ناصعة تدل على هرم الرجل وكبر سنه ، بينما كان وجهه شاحب اللون رغم ما يلوح عليه من دلائل التفاؤل والسرور . فتأثر ووقف يحدثه ، فقال له : لا يسعنى إلا أن أعتذر إليك ، هل أنت مريض ؟

فأطرق الرجل برهة ، ثم رفع رأسه وقال : أشكرك يابنى على طيبة قلبك ، هل أدركت الآن أننى شريف لا أضمر السوء لأحد ، إن هموم الدنيا كثيرة . ومن المكاره ما يقصف الأعمار ، ومن المكاره ما تشيب من هولها رءوس الولدان ، ومنها ما لا ينفع فيها عزاء أو سلوة ، ولقد تذوقت من متاعب الحياة وتقلباتها مالا يستطاع احتماله ، حتى بت أراها دار بكاء وجزع وبؤس وظلام .

وكان (فتحى) يصغى إليه مرتاحاً إلى حديثه ، فقد كان ذلك رأيه هو أيضاً فى الحياة ، وود لو يرافقه الشيخ فيسعد باصطحابه معه فى سفرته الموحشة ، لذلك ما لبث أن قال : أليست حالك أحسن الآن ؟

أظن ذلك ، وأحب أن تعتقد أن هموم الفقر أبسط هموم الحياة وأخفها

على كل ذى أنفة وعزيمة ، أما ما أقاسيه فهو فوق ما يحتمله بشر فشأنى فى الحياة شأن من يعيش فى بيداء قاحلة لا يجد فيها الظل الوارف أو الصديق الوفى.

فظهرت على وجه الشاب علامات التأثر ، إذ وجد له فى الحياة زميلا أثقلت كاهله آلام الحيـاة وشدائدها ، وقال بعد لحظة : إن الذى يخاطبك شاب فشل فى كل آماله ولم تعد له غير أمنية واحدة يبغى تحقيقها فى هذه الليلة الغبراء ، فهل يمكنه أن يتخذك نصيراً ؟

فلاحت على وجه الرجل أمارات الابتهاج والاستبشار وقال : ثق يابنى أنك ستجد فى الرجل الذى تريد ، لقد درست من الحياة شئونها القاسية وقاسيت محنها على اختلاف أنواعها ، فماذا تريد ؟

أريد منك أن تساعدنى على اجتثاث الجريمة ونصرة الفضيلة ، فهناك عصابة دأبها القتل والتهديد وسـفك دماء الضحايا الأبرياء ، وضحـية هذه الليلة إحدى قريباتى ، وقد اهتديت بعد جهد كبير إلى الناحية التى عزموا على التنكيل بها فيها ، كما وقفت على الميتة التى أعدوها لها ، وأنا الآن سائر فى طريقى إلى المحطة للسفر إلى كرنواى لإحباط مكيدة الأشقياء ، ويمكنك أن تسبقنى إلى المحطة أو تلحقنى دون أن تدع أحداً يعلم بصحبتك لى ، لأن الجواسيس تتعقبنى أنى ذهبت ، وأخشى أن يكيدوا لى قبل نيل ما أسعى له ، فاذا سبقتنى إلى المحطة فاركب أخرى عربات القطار ، وسأركب أنا أولى العربات ، وعند كورنواى تتبعنى فى الطريق على بعد أمتار عـدة ، وهناك نتعاون فى الخفاء لتنفيذ التدابير التى أعددتها لإحباط المؤامرة .

ومرت سيارة فى هذه اللحظة فنادى الشاب السائق وقال لزميله :

ـ والآن يمكنك أن تأخذ هذه السيارة إلى المحطة دون انتظارى ، أما أنا فسألحق بك بعد عشر دقائق ، هيا ، أحب أن تعمل كما نصحتك ، لقد توكلت عليك بعد الله ، ولا أشك بتاتاً فى طيبتك ونبلك ، إلى الملتقى . . .

فحياه الشيخ وقفز إلى السيارة فى خفة الغزال ، وانطلق بها فى جوف الليل.

سار الشاب فى الطريق زمناً قصيراً ثم استقل سيارة وأخذ سمته إلى المحطة ، كان ساخطاً على نفسه لا يدرى أأصاب أم أخطأ فى إفشائه سره لهذا الشيخ ، وشعر فى أعماق نفسه أنه يعرف بعض الشىء عن هاتين العينين وصاحبهما ، وقد رآهما غير مرة ، ولكنه عاجز عن الوصول إلى حقيقة الشخصية الغامضة ... الرجل شريف وشعاع عينيه يدل تماماً على استقامته ونبله ، ولقد فحص هيئته ومعالمه فوجدها طبيعية لا تنكر فيها ، فهو بعيد جداً عن (فيجايا) وشروره ، ومن الاستحالة بمكان أن يكون فى شعاع هاتين العينين بصيص من الشر والخبث والإجرام ، ولكن بماذا يفسر اعتراضه له فى الطريق ؟ هل كان صادقاً حين سأله عن الوقت ؟ أم كانت خدعة أراد بها استدراجه لمعرفة وجهته وخطة سيره ليرفعه فى تقرير إلى (فيجايا) لينال من ورائه الجزاء ؟

وقفت السيارة ونزل الشاب يضطرب ويغلى من الغضب ، فقد اعتقد أن الرجل أوقعه فى الشرك ، وأنه حتما ملاق أوخم العواقب نتيجة سذاجته وتغلب عواطفه . وتحرج الموقف حين فكر فى الرجوع من حيث أتى حتى يوفر على نفسه متاعب جساماً أقلها وقوعه فى مكيدة من مكائد خصومه ، ولكن قلبه كان يخفق فوق خفقات الذعر والجزع خفقات الحماس لقرب التلاق ، فشعر بشىء من الطمأنينة والراحة حين فكر أنه إنما يجتاز الآن الطريق الذى يوصله إلى (نوليات) حيث الراحة والسعادة ، ذهب إلى مكتب التذاكر وكله حذر ويقظة وقد عول على ألا يدع صاحبه يشعر به أو يحس بوجوده فى فناء المحطة حتى يأمن غدره وغدر أعوانه ، ولكنه فوجىء بخبر قيام القطار منذ عشر دقائق ؛ ونزل الخبر على نفسه كالصاعقة فأذهلته ، إذ كان يتحتم عليه البقاء فى فناء المحطة نصف ساعة انتظاراً

للقطار الثانى ، وكل دقيقة يتأخرها تسهل على الأشقياء مهمتهم وتعجل من نهاية الأميرة والقضاء عليها، سار إلى فناء المحطة ثم تهالك على أحد المقاعد خائر القوى مضمضع الحواس ، وراح يتصور مصير الأميرة وتدبير الأشقياء والميتة الشنعاء التى أعدوها لها بالديناميت والبارود ؛ ولم يستطع أن يملك نفسه عن البكاء بعد أن عجز عن أن يملك قلبه عن الجزع ، فدارت الأرصفة أمام عينيه المغرورقتين بالدموع ، وأمسى لا يبصر ولا يسمع .

ولم يكن بالمحطة غير أفراد قلائل من عمال القطارات يروحون ويغدون على الأرصفة ، وتنبه الشاب بعد لحظات قاسية إلى نفسه حين وقع نظره على فتاة فى نهاية الرصيف الجالس عليه ، وسمعها تستفسر من العمال بقلق عن مواعيد القطارات ، ثم رآها تقترب جهته فهزه الفرح وابتهج فى نفسه وراح يحدث نفسه :

ـــ عساها تكون من أهل كورنواى ، ويا حبذا لو صاحبتى فى الطريق لتؤنسنى . ثم أخذ يرمقها خلسة فألفاها صبية حسناء فاتنة ، وأخذ يترقب الوقت والظروف التى تساعده على الاتصال بها ، على أنها ما لبثت أن أخرجته من تأملاته حين وقفت بالقرب منه حائرة لا تلوى على شىء ، ثم تقدمت نحوه وقالت فى قلق :

ـــ لا أدرى كيف فاتنى هذا القطار ؟ هل يسمح السيد باخبارى عن وقت قدوم القطار التالى ؟

فتبسم الشاب وقال : عشرون دقيقة ياعزيزتى ، وأكون سعيداً لو تفضلت الآنسة وشاركتنى هذا المقعد .

فعلت وجهها حمرة الخجل وقالت بأدب : الحق أنك أدركت مابنفسى . وما عتمت أن جلست بجواره وراح ينظر إلى فتنتها وسحرها ، وقد خيل إليه أنها البدر لاح له وسط هذه الحجب الحالكة ، فحن إليها وزال مابنفسه

من هموم ، وقد شمله سرور وغبطة بعثاه على إطالة التحـديق فى وجهها المليح ، حتى كاد ينسى نفسه فرحاً بمقدمها وجوارها .

* * *

كانت فى العشرين أو ما يقرب من هذه السن ، حبتها الطبيعة بكل ما تصبو إليه بنات جنسهـا من جمال وشباب وسحر . ولما دار بينهمـا الحديث وجدها طيبة القلب ، فهام بها وأطلعها على عزلته وهمومه فراحت تسعى لتدخل إلى فؤاده الهناء والسرور لـكى تخفف من أحزانه وأوجاعه ، فكان حسنها ولطفها بمثابة البلسم الشافى لشـدائده وآلامه . ومن غريب أمره أنه أخذ بمحاسنها ونسى المهمة الخطيرة التى قام لأجلها ، وخيل إليه أنه إنما يجنى على حياته وشبابه إذا بقى مصراً على الرحيل إلى كورنواى وإنقاذ الأميرة من ميتتها الشنعاء ، وصورت له الأوهام صوراً مخيفة أشنعها أنه سيموت بسبب الأميرة بعد ما لاقاه من شقاء وشدائد ، وبعد أن ذاق هو وغيره فى سبيلها الآلام والأوجاع ، وأنه بقى عاماً بتمامه فى أرق وفزع وخبل ، لا لشىء غير تعلقه بحب الأميرة والاخلاص لها دون أن يعود عليه كل ذلك بأدنى نفع ، وربما كانت الأميرة الآن فى قبرها أو عساها تكون فى بحبوحة من الحياة ونعيمها ، أو عساها قد هامت بغيره وضربت بحبه عرض الحائط ، سيان عنده كل هذه الأمور فقد شعر بحبه لهذه الفتاة واشتغل باله بحسنها ولم يعد يفكر فى الأميرة ، وراحت صورتها تتلاشى من مخيلته ، وهو يغذى عينيه وقلبه من جمال الجالسة إلى جواره وهواها .

تحادثا ملياً واستطاع الشاب أن يعرف اسم حبيبته والمكان الذى تقصد إليه ، فوقف على أنها تدعى (سوزان) من ملبورن باستراليا ، وقد جاءت فى أجازة لزيارة جدتها الوحيدة فى كورنواى ، وستمضى هناك بضعة أيام ثم تعود إلى لندن ، ومنها ترحل إلى أمريكا لزيارة إحدى شقيقاتها هناك

وتستأنف الرحيل من أمريكا إلى استراليا مباشرة .

قالت الفتاة : إنها سفرة بديعة ولا شك ، ولكن الذى أحزنى أننى كنت وحيدة وفى وحشة مضجرة .

فقال الشاب : ولم هذه الوحدة ؟ إنك جميلة فاتنة ياسوزان ولا أكاد أصدق بقاءك فى عزلتك إلا إذا كنت تفضلينها وترغبينها .

ـ لست الراغبة فى الوحدة ، ولكن يخيل إلى أننى لم أحسن بعد فنون ال...

ورفعت يدها إلى وجهها حياءً ، فابتسم الشاب وقال :

ـ لايخفى عليك أنك صغيرة السن ياسوزان ، لقد فهمت ، ويخيل إلى أنك لم تعلقى بحب رجل من قبل .

ـ صدقت ، ولا بد أن يكون هذا هو الذى جعل حياتى موحشة .

ونظر إلى عينيها السوداوين وقال : حبذا لو أتيح لى مقابلتك مرة أخرى فأدخل السرور إلى قلبك ، وأكون لك المؤنس الذى تريدين .

فأطرقت برأسها إلى الأرض ثم رفعتها بعد لحظة وثبتت نظرها فى وجهه

ت : ن ى لا أكاد أقوى على الاعتراف ، الحق أنك الشاب الوحيد الذى أحس نحوه بدافع خفى ملك على مشاعرى ، لقد أحببت لو رافقتنى إلى كورنواى ، هذا المكان الريفى ، فنمكث فيه بعيدين عن ضوضاء لندن ، وأمامنا عشرة أيام نقضيها سوياً فوق رمال كورنواى ومناظرها الجذابة .

فتنهد الشاب وقال : سوف أكون أسعد الناس بهذه الأيام ، لاتعجبى فإننى أحبك .

ـ لست أعجب من ذلك ، فانتى الأخرى قد أحببتك من النظرة الأولى ، لقد صدقت جدتى فى قولها حينما كانت تطرى خفة روح المصريين ورشاقتهم وكريم معاشرتهم ، حقاً إننى سعيدة .

ـ أشكرك ، ولكنى أحب أن أنبهك إلى أننى لست ابن أمير يقدم الهدايا ويبعثر الأموال ، كما أحب أن يكون حبك لى قائماً على غير هذا الأساس ، والآن ما رأيك فى الزواج ؟

ـ تعجبنى منك هذه الصراحة ، وأرجو أن تعتقد أننى مثرية وفى غنى عن كل ما ذكرت ، إننى أرضى بالزواج ما دمت مقتنعة بأن سعادتى وراحتى فى يدك .

فمال إليها وأمسك بيدها وطبع على جبينها قبلة تخفف من لوعة هيامه وكلفه بها ، وهى مستسلمة إليه ، وقد أدرك أنه لا يستطيع بعداً عنها وأنه يكون أسعد الخلق إذا شاركته حياته ، وراح يلوم نفسه كيف بقى إلى هذه المدة عبداً لحب خيالى لم يتذوق فيه حرارة القبلة ولذتها ، وكيف تعلق بحب الأميرة رغم اختلاف المركز وتباين المقام ، فلا هو يليق بها ولا هى تليق به ، حتى أقنع نفسه فى النهاية بأنه ما كان محقاً فى حب الأميرة وبقائه بعدها يقاسى الآلام والشدائد ، رغم أنه لم يلق منها وعداً صريحاً أو تلميحاً بالزواج ، ورغم أنه لم يتمتع وإياها بما يتمتع به كل عاشق مفتون .

وأقبل القطار فنهضا يتأبط كل منهما ذراع الآخر ، فركبا إحدى عربات الدرجة الأولى وأغلقا عليهما ديواناً منعزلا ، وأخذا يتناجيان ويتشاكيان ويبنيان صروح الآمال والأمانى والنعيم المقيم ، وطفق الشاب يقلب الأمر على وجوهه ، فوجد أنه من سوء حظه أن تكون أرض نعيمه وسعادته المرجوة هى الأرض التى تلاقى فيها الأميرة ميتتها وأوجاعها ، فأحس بألم قاتل يمزق فؤاده ويستقر فى أعماق قلبه ، ولكن حبه لسوزان طغى على كل شىء ، وكانت له الغلبة فى النهاية ، فرضخ ووجد الصواب كل الصواب فى تناسيه الأميرة وميتتها وقضاء أيامه العشرة هنيئاً بجوار من يحب .

وقف القطار بعد زمن فى محطة كورنواى ، فنزلت الفتاة وحبيبها يترنحان من نشوة السرور والفرح ، وكانت المحطة صغيرة بسيطة ، ولم ير الشاب على رصيفها غير عامل من عمال الطرق ، كما لم يكن بها مصباح يمزق أحشاء الظلام بنوره الضئيل ، وحينما نزلا إلى المحطة استقبلهما طريق ضيق يؤدى إلى بعض مساكن قروية ممتدة بجوار المحطة ، وفيما عدا ذلك ففضاء متسع محجب بالظلام ، أراض شاسعة مغطاة بالرمال لا حركة فيها ولا ضوضاء ، سكون شامل وحلكة ووحشة تبعث فى النفس الحائرة الرهبة والانقباض ... سارا طويلا حتى غابت المساكن القروية والمحطة عن ناظريهما وأخذا يضربان فى الفضاء الفسيح حتى بلغا منزلا صغيراً خفيا يحوطه الفضاء من جميع جهاته ، ثم طرقت الفتاة الباب ولما لم تلق جواباً أخرجت مفتاحاً من جيبها وأدارته فى ثقب المفتاح وهى تقول لصاحبها :

ـ لا بد أن جدتى نامت لتأخرى عن موعدى الأول .

وفتحت الباب ودخلت ودخل خلفها ، ثم أغلقته وراءه وأضاءت الحجرة فوقع نظره على أثاث فاخر دله على ترف الفتاة وغناها ، وبعد أن استراحا وغسلا وجهيهما من غبار الطريق ، دعته إلى تناول العشاء ، وجلسا قبالة بعضهما وهى تداعبه وتضحك بملء فمها ، بعد أن اعتذرت عن عدم إيقاظ جدتها خشية أن يسبب لها انتباهها نوبتها العصبية الشديدة .

ساد السرور وطفح البشر على وجهيهما ، فكانت سوزان تكثر من النكات والمداعبة ، ويقابلها الشاب بالمزاح والضحك حتى فرغا من الطعام ، ودخلت سوزان المطبخ وأحضرت كؤوس الخمر ، وتناول كل منهما كأساً مملوءة بالشمبانيا الفاخرة ، وجرعه جرعة واحدة ، شاربين نخب الحب والوداد ، ولكن ما كاد الشراب يستقر فى جوف الشاب حتى أحس بلهب يقطع

أحشاءه ، ثم تلته آلام مبرحة صرخ بعدها وأخذ يتلوى ويصيح ثم ارتمى على أرض الغرفة يصرخ صرخات الألم وهى تنظر إليه بعين جامدة ، وظل يتلوى ويصرخ مدة ؛ وحينئذ انقلبت هـذه الفتاة الحسناء الفاتنة إلى وحش كاسر ؛ وسرعان ما انقضت ناحيته تحمل كأساً صبت ما به على وجهه فى سرعة وهى تصيح :

ـ إلى الجحيم ياشقى !

وراحت تنظر إليه بعينين مملقتين تمتع النظر برؤية بشرة وجهه تتهدل وتحترق تحت تأثير السائل الـكاوى ؛ وهو ينئ أنيناً يفتت الأحجار .

ـ ارحمينى أيتها الآنسة ... إن كان قلبك يكذبك فهأنذا أقسم أننى أحبك رغم هذا الاعتداء الشنيع .... لم أخدعك يا آنسة ... إننى أحبك من أعماق نفسى بكل عواطفى وشعورى ، فأى برهان وأى دليل تريدينه منى أكثر من هذا الاعتراف بعد هذا الايذاء ؛ لقد رافقتك تحت تأثير العاطفة المشتعلة فى قلبى ، ولم أشك لحظة فى حبك وعطفك بعد أن أثلمتنى دموعك وهى تنهمر على خديك فى القطار ... فهل أذنبت يا آنسة ؟ تكلمى بربك ؟

فلم تنطق بكلمة واحدة ، وإنما إقتربت منه وهى تبتسم ابتسامة خبيثة ثم حملته بين يديها وقذفت به فى إحدى الغرف وأقفلت الباب عليه ، ولم تكد تفرغ من ذلك حتى خرجت من المنزل وأخذت تعدو فى العراء وتصيح بين آونة وأخرى ـ بيتو .... بيتو ـ وأخـذت تعدو هنا وهناك وهى لا تفتأ تصيح ـ بيتو .... بيتو ـ حتى لحق بها الغضب فوقفت ترقب الفضاء بعين حائرة ، وما هى إلا لحظة حتى علا دوى هائل تجاوبت أصداءه جوانب التلال والفضاء الشاسع ، ونظرت فرأت سحاباً قاتماً يعلو فى الفضاء عن كثب ، ولمحت قطعاً من الأحجار تتناثر فى الجو إلى مسافات بعيدة ثم ترامى على قمم التلال المجاورة ، فصاحت تقول : الحمد لله ، لقد نسف القصر .

وقفت مترددة لحظة ثم شرعت تخطو خطوات سريعة إلى مكان الانفجار، واستمرت تتدرج متلفتة يمنة ويسرة حتى لم يبق بينها وبين القصر إلا مسافة قصيرة ؛ وعلى حين بغتة سمعت طلقاً ناريا يدوى فى الفضاء وتبعه ثان وثالث. فجمدت فى مكانها ورقدت أرضاً وهى تنتفض انتفاضاً شديداً ؛ وما هى إلا لحظة حتى لمحت شبحاً يجرى ناحيتها فذعرت ذعراً بالغاً وأسرعت فأخرجت مسدسها ؛ وصوبته جهته تبغى قتله ؛ واقترب الشبح وسمعت صوت أنفاسه وهو يزفر زفرات الذعر والجذع فتريثت هنيهة ؛ وما كادت تلمح سحنته حتى هبت واقفة على قدميها وصاحت : بيتو ... بيتو ! ماذا حدث ؟

ودار هذا بنظره ثم أقبل عليها وهو فى أشد حالات الذعر والاعياء قائلا : شارلوت !... أسرعى ... إن (ماليز) فى إثرى .

وأخذا يعدوان بأقصى سرعة ؛ وفى أثناء ذلك أخبرته الفتاة بالقصة فابتهج الشقى ؛ وما أن أمنا أثر (ماليز) ودخلا منزلها حتى سرى عنه كربه وجزعه وجلس على المقعد يلهث ويزفر بينما شرعت فى الحال تعد له كأساً من الخمر ينعش قواه ويهدىء أعصابه. وضعت الكؤوس على منضدة فى الغرفة ؛ ثم دخلت غرفتها فتأنقت ولبست ثوباً شفافاً كشف عن محاسن بدنها وتقاطيعه، وخرجت تتألق حسناً. وما أن وقع نظره عليها حتى ابتسم ابتسامة المفتون الكلف وفتح لها ذراعيه فترامت فى أحضانه مرحة مسرورة فانهال عليها يقبلها بفمه القبيح ؛ وهى تغريه بالضحك والمداعبة وتقول :

ـ لست أدرى كيف وقعت فى شراك حبك يابيتو رغم دمامتك .

ـ تحبيننى لأنى رجل كامل وهى الصفة التى تنقص غيرى من الرجال .

ـ ترى ماذا يكون حالنا إذا وقف الزعيم على هذه العلاقة ؟

— أنت زوجته الشرعية يا شارلوت ، ولكن هذا لا يمنع بتاتا من نيل ماتشتهيه فى هذا المنزل .

قال ذلك ثم أبعدها عنه بلطف ، ثم قال : دعينى أبدل ثيابى من غبار البارود ، وأعدى لنا طعام العشاء ، ولننظر بعد ذلك فى جثة الشاب القتيل والخلاص منها .

وقام ودخل غرفته وأسرعت هى إلى المطبخ لتهيىء الطعام ، وبعد قليل كانا بجوار بعضهما إلى المائدة يتداعبان ويتمازحان ويلتهمان الطعام فى شهية وسرور ، كأنهما لم يلوثا يديهما بدماء أبرياء ضاعت دماؤهم نتيجة مكرهما وبطشهما وحيلهما الشيطانية هدراً .

ثم قاما عن مائدة الطعام يلتمسان بعض الراحة والمرح فى غرفة النوم ، وارتمى وارتمت عليه تأتى معه من أعمال الفحش والخلاعة ما لا يصدر إلا عن راقصة بغى ، وظل غارقاً فى مرحه وسروره مدة قام بعدها ليجلس إلى المائدة القائمة وسط الغرفة وهو يقول : لم أر فى حياتى مثل هذه الليلة يا شارلوت ، لقد كانت مزعجة جداً .

فالتفتت إليه وقالت : إننى لا آسف على شىء مادمت أراك أمامى بخير .

— أخشى أن يطول الأمر بعد خلاصنا من الأميرة ورفاقها ، والواقع أننى كلما فكرت فيك وفى زوجك أزداد ألماً ويخيل إلى أن مهمتى ...

فقطعت عليه حديثه بقولها : دعك من هذه الظنون ، لابد أنك تعلم أكثر مما أعلم عن (فيجايا) وسذاجته ، وأرى أن أمثال هذا الشاب يسهل وقوعهم فى كل شرك ، وربما لا ينقضى طويل زمن حتى نلزمه ببقائنا فى لندن ، وإذا شاء فليرحل إلى الهند ليباشر شئونه وميراثه الذى آل إليه

عدواناً وظلماً ، مسكينة هذه الأميرة ... اسمع ! هل كانت جميلة إلى ذلك الحد الذى جر عليها هذا الوبال وجعل لها هذا الجيش العرمرم من الشبان المدلهين العاشقين .

فاضطرب عند سماعه هذه الكلمة وظل صامتاً لحظة ثم قال : إنى ألد أعداء هذه الفتاة ، ولكن هذا لا يمنعنى من ذكر الحقيقة بينى وبينك، لقد كانت مثال الجمال الأسمى قبل أن تصل إليها أيدينا بسوء ، ومع ذلك فهى تحمل قلباً طاشت سهام المحبين عن صيده رغم ما كابدوه فى سبيل ذلك من آلام ومتاعب ، وتسألينى عن الشاب (فتحى) وهو الذى قالوا عنه إنه الشاب الوحيد الذى أفلح فى نيل الحظوة لديها، فأقول لك وأجزم: إنها ماتت وليس فى قلبها ذرة واحدة من الحب له، لقد كانت تعطف عليه عطفاً أخوياً كسائر زملائه أمثال ياغوس وغانم، وكان هو يعلم ذلك ولكنه لم ير بأساً من قلب الحقائق وكشف الأمر على غير حقيقته ، فكان ذلك من الدواعى التى حدت فيجايا إلى إنزال أقصى العقوبات بها ، غيرة وانتقاماً ؛ والواقع أنى لم أر فى هذا الشاب خنة تستهوى فتاة فاتنة كالأميرة ، ولم أر فى أصدقائه أحداً بلغ فى خلاعته وتهتكه مبلغ ذلك الشاب ، فان كان الشباب ، زينة فالآخرون أحق بهذا القدر من الفخار ، ولكنهم لم يتفننوا فى فجور الحياة وفسوقها ، إنى شجاع وجرىء وأحب الشجاعة ، فهل سمعت فى حياتك جرأة فى مثل جرأة الشاب (رمزى) كما وصف لنا (نصرتا) قبل إعدامه ؟ لقد زج بهذا الشاب إلى السجن، وكان إلى آخر لحظة جريئاً شجاعاً، فهل وقف أصدقاؤه على مجهوداته الخفية التى كان يبذلها ، لا جلباً للشهرة أو نيل حظوة بل لصالح أصدقائه دون انتظار لنفع من وراء ذلك ؟ ومثله فى ذلك مثل (حامد) الذى يقاسى اليوم شدائد الأسر وآلامه ، لقد

دفعها (فتحى) إلى الميدان واستتر خلفها ، ليقتطف الثمار فى حين فاضح ، فلما سقطا فى الميدان أنزل (عباس) و (عبد السميع) ، فلما وقعا فى الشرك انكشف الميدان أمامه . فلم يبق إلا أن يغامر بنفسه فكانت مغامرته غرامية أظهرت جبنه وتهتكه وفساد أخلاقه .

وسكت (بيتو) ثم نهض من مكانه وتمشى قليلا وظل يعبث بشعر رأسه مدة جلس بعدها على مقعده واستأنف يقول : إننا نفهم من شئون هؤلاء الشبان فوق ما يفهمون ، على أن الجانب المبهم من القصة هو (ماير) ، لم نصل بعد ، يا (شارلوت) إلى معرفة هذه الشخصية المستترة خلف القناع الأسود ، إننى فى حيرة عظيمة يا (شارلوت) من أمر هذا الداهية ، وأكاد أشعر أن الرجل منتقم هائل سلطته العناية ليثأر لهذه الضحايا ، ويخيل إلى أن الانتصار لابد حليفه مهما تكاتفنا وضاعفنا الحذر والحيطة ، لقد كان فى صفنا كما تعلمين ، وانقلب علينا بغير ما سبب ، وتمكن (فيجايا) من طعنه فى المعركة طعنة نجلاء سقط على إثرها لا يأتى حراكا ، وكنا نحسبه قد ذهب إلى غير عودة فأمنا جانبه ، غير أن ظهوره أمامى الليلة عقب نسف القصر ، كان ضربة قاضية على هذه الآمال حتى بت لا أخشى فى الناس غيره . . . انظرى إن جسدى يقشعر من مجرد التفكير فيه .

فحاولت أن تسليه وتسرى عن نفسه اضطرابه وقلقه ، ولكنه كان يزداد ارتباكا وشحوبا ، ونهضت من مكانها تتظاهر بالهدوء والثبات وقالت : إنك فى حاجة إلى شىء من الشراب ، لا أدرى كيف نسينا أقداح الشمبانيا فى الصالة .

فأجابها : حسناً . . هات ما عندك .

وذهبت شارلوت إلى الصالة ، ونهض عن كرسيه وتمشى ناحية النافذة وفتح مصراعيها ، وكانت زوبعة تهب بشدة ، والريح تئن كأنها تنذر بمصير

أسود وسط هذه الصحراء العظيمة المظلمة ، وثبت نظره فى الفضاء الفسيح ليرى هل من شبح يتحرك أو جاسوس يتصنت ، فلم يقع نظره إلا على كثبان الرمال وقمم التلال يخيم عليها ظلام حالك وصمت رهيب .

ودوت فجأة صرخة عالية بين أركان المنزل ، فاستطير قلبه خوفاً ورعباً ، وجرى نحو الصالة تائر الأعصاب ، فاذا به يرى شارلوت مستلقية على أرض الحجرة تتلوى وتصرخ صرخات الألم ، وتئن أنيناً موجعاً ، فأسرع نحوها وقد انخلع فؤاده من الفزع وانحنى عليها وهى تصرخ وتتلوى ، وما أن رأته بقربها حتى أمسكت به وهى تئن أنيناً مؤلماً ـ أنقذنى .... أنقذنى

فانحنى عليها يسألها فى جنون وذهول ورعب : ماذا جرى يا شارلوت ؟ أجيبينى ، تكلمى .

فصاحت بصوت خافت متقطع : لا أدرى ، فقد شربت السم .

فقال وهو ينتفض : كيف كان ذلك ياشارلوت ؟ كيف تبقين السم فى الأقداح ؟ إننى لا أكاد أقوى على فهم ....

فقاطعته : إنها أقداح جديدة يابيتو ، فى الأمر دسيسة .... أنقذنى ... أنقذنى بربك .

وراح يدور فى الغرفة ، وهو يتخبط كالمجنون لا يدرى كيف ينقذها من براثن الموت وهى تصيح وتولول ، وانقضت عليه الصاعقة فأذهلته وأسقط فى يده ، ولم يعد قادراً على إنقاذ معشوقته من ميتتها المؤلمة ، فوقف أمامها جامداً ذاهلا لا يبصر ولا يسمع ....

ودوت صرختها الثانية ، فانتفض مذعوراً وحملق إليها ، فاذا بها جثة هامدة جاحظة العينين متدلية اللسان .

الفصل الثامن

الشيخ ينتقم

لبث (بيتو) عدة ثوان يفحص الجثة وقام عنها وهو يعض على شفتيه وقد زاد ألمه وشعر بالحقد والغيظ وحب الانتقام يسرى فى عروقه مسرى الدم ، وهو يفكر فى شارلوت ومقتلها ، وتوجه إلى كأس السم وهو يزبد ويضطرب ويغلى الدم فى عروقه ، وراح يسائل نفسه : ترى هل أخطأت الكأس أم هى مكيدة دبرها خصم لدود ؟

رفع نظره بعد زمن عن الكأس الذى بيده فرأى فوهة مسدس مصوب إليه ، فتراجع إلى الوراء مذعوراً ، وانتقل بنظره إلى أعلى فرأى الرجل الذى أتى ليقتله .

لقد أخذ عليه تفكيره ، فى ميتة معشوقته المفاجئة جميع مشاعره وحواسه فلم يسمع ولم يبصر حتى أصبح الرجل المقنع أمامه وجهاً لوجه ، ولئن كان الرعب من هذه المفاجأة قد دخل إلى قلب (بيتو) ، فإن ملامح وجهه ظلت كما كانت عليه من قبل ، ونظر إلى القادم وقال بازدراء : إذن فأنت قاتل شارلوت يا مالير !

فهز مالير رأسه علامة الايجاب وقال باستخفاف : لا تقلق بالك كثيراً يا بيتو ، فلقد ضاعفت لها كمية السم جزاءً وفاقا ، ولئن أعيتك الحيل فى إنقاذها فذلك راجع إلى نوع السم الذى انتقيته لها ، أما الشاب المسكين فقد أفلحت بعد جهد فى إنقاذه ، على أن حالته لا تبشر بخير .

ورأى بيتو ما يشع فى عينى غريمه ، فجاهد فى ضبط عواطفه ، ثم ألقى بالكأس على المنضدة وقال : ألست ترى أن عملك هذا تعد لا يمكن السكوت عليه ؟

فضحك مالير ضحكة جوفاء وقال : تذكر أننى كنت أطاردك منذ لحظات قلائل عقب نسفك القصر .

فحدجه بنظرة نارية وقال : ولم كنت تود منع ذلك ؟

فابتسم (مالير) وقال باستخفاف : ليس هذا من شأنك ، ولكن هذا لا يمنعنى من أن أصارحك من جهة أخرى بالحقيقة ، هذا القصر ملك لى من أمد بعيد ، أليس من حقى إذن الذود عنه ومحاربة هادميه ؟

ورد عليه بيتو بقوله : كذبت ، القصر خاص بأحد علماء الجيولوجيا ، وأذكر أننى أخبرتك بذلك أيام صداقتنا القديمة .

فقهقه مالير عالياً وقال : لعلك كنت مغفلا فى تلك الأيام يابيتو ، كيف تصادق رجلا لا تعرف له خلقاً ؟ وهل تمنع هذه الصداقة من أن يكون (مالير) عالماً من علماء الجيولوجيا ؟ ها ... لقد دفعتم أنفسكم إلى خراب محقق بسبب هذه الصداقة .

وجهد (بيتو) فى جمع أشتات نفسه حتى استعاد رباطة جأشه ورد عليه بقوله : ما دمت تدعى ملكية هذا القصر فلك كل الحق فى الذود عنه ، وليس فى وسعى الا ن أن أسدد إليك ثمن ما أتلفته بك من خسائر ، ولكننى أستطيع أن أتفاهم معك فى الشروط التى تفرضها كتعويض لما أتلف .

فصرخ فيه بصوت كالرعد : إنك تهذى يامجرم ، لقد أتلفت روحاً عزيزة لا تعوض .

فحملق (بيتو) فى وجه خصمه وهو يهتز من الغضب وقال وهو يكظم

فى صدره ناراً متأججة : هذه هى الإهانة الثانية فماذا تقصد ؟

فقال بصوت مرتفع : أقصد أنك قاتل وقد جئت أثأر لهذه النفس البريئة التى لوثت يديك بدمائها .

فسأله متمهلا : أى نفس ؟ يخيل إلى أنك فقدت رشدك ، وأؤكد لك أنك ستنال على يدى عقاباً صارماً ، ألم تثب إلى وعيك وتعتذر لى عما بدر منك؟

فعاودت ماير ضحكته الجوفاء وقال ساخراً : لا تحتد وإلا انطلق هذا المسدس قبل أوانه .

وكظم (بيتو) غيظه وحاول جهده أن يتكلم بصوت عادى فقال : إننى لا أفهم عملك هذا ، لقد صارحتك بأننى مستعد لدفع التعويضات التى تفرضها بنفسك ، وأقسم لك أننى ما كنت أرمى بنسف القصر إلى إزهاق أرواح بريئة لا تمت إلى بصلة .

وتوقف عن الكلام لحظة ، ثم استأنف يقول فى شىء من الحدة : ألم يخطر ببالك أنك تستطيع الحصول على التعويضات دون حاجة إلى التهاون بإزهاق النفوس ؟ ثم ألم يخطر ببالك أيضاً أنك الآن قاتل ؟

فأجاب : كلا . . لم أقتل

وصوب بيتو نظره إلى جثة الفتاة وقال : ياللغرابة ! ... وماذا تقول فى هذه الجثة ؟

ـ القتل أنفى للقتل .

فصمت بيتو لحظة ، ثم رفع نظره وقال : لا أظن أن القانون يبيح ذلك ، ومع كل فقد وقعت الجريمة دفاعاً عن العرض ... أنه شاب ماجن .

فابتسم (ماير) وقال بازدراء وتهكم : القانون ! ! .. العرض !! إن فى استطاعتك أن تخدع بعض الناس ، ولكنك لا تستطيع أن تخدعهم جميعاً ،

فهل تعرف القانون ، وهل حميت العرض ؟ إنك مجنون (يابيتو) ، إن أقل ما يقال عنك إنك قاتل سفاح داهية انتهكت حرمة القانون بما أزهقت من أرواح طاهرة بريئة وانتهكت حرمة الأعراض بما اقترفته فى هذا المنزل مع زوجة زعيمك من فجور وفسق وإثم .

فألقى عليه (بيتو) نظرة ملتهبة وقال وهو يلهث من شدة انفعاله : ليكن ذلك ،ولكننى فى نجوة من كل ما يمس سمعتى،أما أنت فكل ما يقال عنك إنك زعيم عصابة الطليان ، يطاردك حفظة الأمن فى كل مكان حتى ضاقت بك الحال فأويت إلى هذه البقعة القفرة جائعاً لا تملك قوت يومك، وسوف أريك حالا أن هذا المسدس لن يمنعنى من أن أمثل بك أشنع تمثيل.

فصاح فيه صيحة شديدة : كلا ... لا تتحرك وإلا ...

ووضع فوهة المسدس على صدره وقال : أحب أن تعتقد أننى لا أخاف أحداً فى الوجود،فاذا فكرت أن تتحرك دون إذنى فسينطلق رصاص المسدس على الفور... إنك تظن يابيتو أننى لا أدرى من أمراركم شيئاً فدعنى أطلعك عليها بالتوالى ... سأفسر لك الأمر حالا فاجلس الآن على هذا المقعد وكن وديعاً حتى لا تستفز غضبى عليك قبل أن تعرف كل شىء .

وأدرك (بيتو) أنه لا مفر من الرضوخ لمشيئة السفاح الايطالى، فجلس على المقعد وجلس الآخر أمامه مصوباً مسدسه إلى رأسه ، ولزم (بيتو) الصمت وهو ينظر تارة إلى وجه الرجل الذى أتى يحاسبه ويعتزم قتله وتارة إلى فوهة المسدس المصوب إلى جبينه ، وراح ماليرو يقول :

ـ دعنا الآن من (ياغوس) فقد مات،ومن العبث التكلم فى سيرته ، ولكنك تعلم بأن حادثة (غانم) لا يمكن السكوت عليها لما أحاطها من غموض ولبس، أنت جرىء يا(بيتو)وذكى أيضاً ،ولا مفر من الاعتراف بذلك

ولقد حيرنى حادث (غانم) كل الحيرة ، ولئن كنت على يقين من أنك مدبر المكيدة ومنفذها فى آن واحد فقد تخبطت كثيراً فى تفسير غوامضها وأسرارها ، فأحب أن تتكرم على صديقك القديم بشىء مما فعلت .

فبهت (بيتو) لهذا القول ولكنه ما لبث أن قال فى هدوء : لم أفعل شيئاً ، ولو أننى أجرمت كما تدعى ، لكنت الآن رجلا طريداً يبحث عنى رجال الشرطة فى كل مكان .

فأجاب ماليز فى لهجة عادية : لقد ضللت البوليس زماناً طويلا ، ولكن هذا لا يمنع من أن يتوصل واحد منهم إلى كشف القناع عن جرائم حفظت فى سجلات البوليس ضد مجهولين حتى يظهر فيها جديد ، والآن وقد وضح كل شىء وتوصل المفتش (جيلبرت) بقلم المخبرين إلى (بيتو) يد (فيجايا) العاملة ، يمكننى أن أسوقك مكبلا بالأغلال إلى حيث تنال جزاء إثمك وعدوانك .

فذعر (بيتو) لدى سماعه هذا التصريح وقال ـ وهو لا يتمالك نفسه من إبداء دهشته :

ـ المفتش جيلبرت ! إنك مجنون يا ماليز .

فنظر إليه نظرة تفكير ثم قال : أتظن ذلك ؟ لقد كنت أتوقع منك هذه الدهشة وهذا الذعر ، ويلوح لى أنك فقدت نصف شجاعتك من مجرد تفكيرك فى مصيرك الأسود ، على أنه يمكنك أن تطمئن إذا وعدتك بالمساعدة وتخفيف العقوبة فى مقابل كشف القناع عن نكبة (غانم) ، وأود أن تتذكر أن وقتى أضيق من أن يتسع لتردد أو مماطلة وخداع .

ونظر (بيتو) إلى المسدس ثم حول نظره إلى ماليز وقال : هذا غريب حقاً ، كيف يعتدى رجل البوليس على حرمة المنازل ولا يكتفى بذلك ، بل

يجرؤ على قتل الأبرياء وإلصاق التهم الباطلة بالآخرين ... هذا كثير منك ياحضرة المفتش ، لا يمكن ان أحتمل أكثر من ذلك .

فأجاب فى هدوء : وهل تسمى الانتحار جريمة يعاقب عليها القانون ؟ لقد انتحرت شارلوت بيدها ، وأما قولك بأنى ألصق بك تهمة باطلة فهو هراء وقول مردود ، فماذا تقول فى جثة الشاب المسكين المطروحة داخل هذه الغرفة ؟

فهز (بيتو) كتفيه وقال ببرود : لقد انتحر هو الآخر .

فضحك المفتش وقال : حسناً ولكن لو سئلت كيف ينتحر فى كورنواى وفى استطاعته ارتكاب جريمة الانتحار فى مسكنه بلندن ، كيف تعلل وجوده بمسكنك فى هذه البقعة النائية ؟

فأجاب على الفور : شاب خليع تعقب شارلوت إلى مسكنها وجلسا سويا فى خلوة يتداعبان ، ولما ظهرت ووجدتهما فى حال مريبة آثرا الانتحار خلاصاً من العار والإيذاء .

فنظر إليه الشرطى فى دهشة وعاد يقول : حقاً ، لقد رأيت كثيراً من المجرمين وخبرتهم ، ولكنى لم أجد من بينهم واحداً فى مثل ذكائك .

فقال فى لهجة فاترة : ربما كان الأمر كذلك ولكننى لست مجرماً ، ليس ذكائى فى الجانب الشرير كما تدعى .

فأجاب الشرطى : مادمت تصر على عدم الإباحة بأسرار نكبة (غانم) فلننتقل إلى ناحية أخرى ، لا تنس أن مسألة الأميرة نوليات تحتاج إلى كثير من الإيضاح والتفسير .

فضحك (بيتو) ملء شدقيه وقال وهو يقلب كفاً على كف : ويحك أيها المفتش أؤكد لك أنك معتوه تلقى القول جزافاً ، وماذا أيضاً فى حادثة

الأميرة ... هل من جـديد ؟ لعلك كنت مشغولا بالعمل حين غرقت فى المانش منذ أشهر غير قلائل .

ـ لا يبعد أن يكون ذلك ولـكنك تذكر أننى (مالير) أيضاً ، وقد كنت فى رفقتكم فى حادثة القطار ، هل نسيت ؟

فعاودت بيتو ثورته وجز على أسنانه غيظاً ولم يحر جواباً . وتوقف المفتش عن الكلام برهة يطيل التحديق إلى وجهه وعاد يقول : إننى مسرور لهـذا السكوت ، لم تمت الأميرة فى حادثة القطار يا بيتو ، لقد علمت ذلك وأعلم أيضاً أنها أنقذت من الخطر الداهم بيـد (رمزى) وهو الذى خدر زامورا الذى انتحر عقب ذلك ،وهو الذى حملها من فوق الشريط وسار يبحث لها عن مأوى فلم يجد وسط العراء غير القصر الذى نسفته الليلة ، فوضعها فى إحدى الغرف وأحكم عليها الأبواب وأسرع إلى لندن لإخبار أصدقائه واستدعاء الطبيب،ولـكنه وقع فى المـكيدة التى دبرها له (فيجايا) بعد أن وقف على السر من (نصرتا) بواسطة تعذيبه ، وكانت نهـايته السجن يقضى فيه زهرة عمره ، ثم أرسلوك إلى هنا للبحث عنهـا ومكثت أياماً تتردد على القصر وغيره ، ولما عيل صبرك نسفته الليلة عساها تكون بين جدرانه فيتم خلاصـكم منها ويتم بذلك انتصـاركم على طول الخط ، وفاتكم أن عين الله ساهرة تحاسب الظالمين على ظلمهم ومابغوا ،فهنيئاً لـكم ياسافكى الدماء وممزقى الأشلاء نصركم المحدود وفوزكم المزرى .

لماذا دبرت مؤامرة القطار يا (بيتو) ؟ ولماذا أبيت إلا أن تـكون ميتتهـا تحت عجلاته ؟ السر فى ذلك تـكتمه فى بطنك ولـكننى واقف عليه رغم جهل الجميع به ، لقد أقسمت يا (بيتو) وأنت فى سن العاشرة لتنتقمن من الأمير سريار وذريته ،ذلك الرجل الذى قتل أباك وأعدمه تحت عجلات

قطار البنجاب عقب افتضاح أمره وضبطه متلبساً بجريمة الزنا مع فتاة من المقاطعة فرت على عجل واختفت خشية البطش بها وحملت وأتت بك سفاحاً فكنت لقيطاً فلما شببت عن الطوق غرست فيك عوامل الحقد للأمير وآل بيته. وهكذا نبتت فى نفسك بذور الاجرام منذ الصغر وأقسمت بين يدى أمك لتثأرن من الأمير وولديه. فلما ولدت نوليات وصارت هى وشقيقتها (جوجر) قبلة الأنظار وموضع إعجاب الجميع أخذت تسعى وتجد لتستطيع أن تبر بقسمك . وكان مرمى نظرك فى البداءة . الالتحاق بخدمة الأمير لتتخذ من ذلك وسيلة إلى ما تريد وحانت لك الفرصة حين طفق (فيجايا) واتسع نموذه فانضويت تحت لوائه وأخذت ترقب الوقت لتضرب ضربتك القاضية .

وما أن سمع (بيتو) هذا حتى هب واقفاً وقد شحب وجهه وأخذ يصيح :

ـ أنت مجنون .... ويلك ! . إنى لا أحتمل أكثر من ذلك .

وقبل أن يهم بالقيام كان (ماليز) قد مال عليه ووضع فوهة المسدس على قلبه قائلا :

اجلس يابيتو وإياك أن تبدى أية حركة وإلا كانت آخر حركاتك... ابق فى مكانك ولك أن تتكلم كيفما شئت .

ورأى (بيتو) من عينى ماليز دلائل الشر والعزم الأكيد فثبت فى كرسيه يتمتم تمتمة مبهمة، وتكلم الرجل فقال : هأنت ذا ترى أنى واقف على كل شىء . والآن أريد منك أن تخبرنى عن نتيجة المعركة التى نشبت بينكم وبين حامد قبل مجىء القطار .

وصمت بيتو ولم يجبه بسوى نظرة هائلة ، وعاد (ماليز) فتكلم بصوت

أجش فيه رنات الوعيد والغضب : استمع إلى أيها الشقى ، هذا هو آخر سؤال أطرحه عليك ، وثق بأنى لست ممن يلقون القول على عواهنه ، أجبنى ولا تدعنى أتبع معك طريق الشدة ... هيا ولا تضيع الوقت .

ولم يجبه (بيتو) وإنما صوب إليه نظرة احتقار صامتة. فهب الآخر واقفاً وهو يلهث من شدة انفعاله ومد يده إلى القناع فأسقطه عن وجهه فظهرت شعوره البيضاء ووجهه الشاحب تعلوه أمارات الغيظ والانفعال ثم دنا منه وصاح فيه : ألم تر هذه السحنة من قبل أيها الشيطان ؟ يحسن بك أن تفكر فى صاحبها البائس الذى عاش لينتقم منك لنفسه ولغيره ... انظر... ألا تعرف صوتى ؟

وذعر (بيتو) لهذه المباغتة واتسعت حدقتاه من فرط الرعب ثم ما لبث أن هب واقفاً وهو يصيح : يا الله !! أيمكن هذا ! !

وقبل أن يتم عبارته كانت يد الشيخ قد ضغطت بالمسدس على صدره وهمس يقول : اذهب الآن أيتها الأفعى .

وفى أسرع من لمح البصر انطلقت الرصاصة فاخترقت قلب (بيتو) فوقع على الأرض بشدة جثة لا حراك بها .

الفصل التاسع
الوجوه المشوهة

وقف الشيخ بضع لحظات ينظر إلى جثة (بيتو) وهى ترتعش فسرت فى بدنه القشعريرة لهذا المنظر ، وجهد حتى جمع شتات شجاعته فضم قبضتيه وهتف : أشكر الله أن قمت بدورى بأمانة، لقد أنقذتهم واستطعت أن أؤدى عملا عظيماً . ثم أردف يقول فى نفسه : يجدر بى أن أخفى شخصيتى عنها إلى الأبد ، ولكنى لا أرى مانعاً يمنعنى من إطلاعه على الحقيقة إذ لا يحسن أن أظل مجهول الشخصية حتى هذا الوقت ، أماهى فلا يجدر بها أن تعلم بوجودى وتقف على حقيقتى لأننى أرى . . . .

ولم يتم عبارته إذ خنقته العبرات وتخاذلت أعصابه فارتمى على المقعد يبكى وينتحب ويحدث نفسه بصوت متهدج : لقد قنعت بالحياة من أجلها وفى سبيل الذود عنها ، ولو لم يسبقنى (فتحى) إلى قلبها، أو بالأحرى لو أنه قدر لى أن أكاشفها بما أكنه لها فى قلبى وكشفت لها الستار عن الحقيقة ولم أحبس العاطفة التى تطورت من حب بعيد عن معنى الوله أيام الصغر إلى شعور متقد ملتهب ، لكان فى مقدورى أن أجابهها بالحقيقة المرة الان ، وأكشف لها القناع دون تردد غير آبه للهوة التى بينى وبينها .... هى فى ثوب شبابها الفاتن البهى ، وأنا فيما يشبه الشيخوخة وقبيح مظاهرها ... فأى أمل تحققه لى الايام وقد تحطمت مطامحى الكثيرة المتشعبة وحالت الظروف القاسية دون تحقيق أمنيتى فى الزواج منها .

واستمر يبكى ويكتم زفراته بضع دقائق تنبه بعدها على صوت الشاب ينادى فى غرفته ، فقام يمسح دموعه ويتظاهر بالهدوء والشجاعة ، ولما توسط الحجرة وجد الشاب على الفراش يدور بعينيه فى أنحاء الغرفة ، يزفر زفرات الألم فاقترب منه ووقع نظره على وجهه الذى شوهه السائل الكاوى فذهب بنضارته وأضاع معالم وجهه بما أتلف من بشرة وقبح من محاسن ، فصمت صمت العارف بالمصاب ، ووقف عند رأسه يخفف دموعه ويقول :

ـ أليست حالك أحسن الآن ؟

فأجاب بصوت متهدج : لقد سمعت الرصاصة ، فهل قتلتها أيها الشيخ ؟

ـ لم أقتلها بالرصاص ، أدرت عليها الكأس الذى أدارته عليك من قبل ... لقد ماتت شر ميتة .

فأخرج آهة طويلة محزنة وقال : إننى أحبها ، لا تحدثنى عنها ، هل أستطيع أن أراها قبل أن تذهب بجثتها ؟

فقال وهو يبتسم ويتأوه فى آن واحد : تستطيع ذلك ولكنها مجرمة ، إنك لا شك تعلم يابنى .

فقال وهو يبكى : لالا أيها الشيخ ، أمنيتى أن أراها قبل أن تذهبوا بها ، لقد غدرت بى وقابلت حبى وإخلاصى بالعدوان والإثم ، وسببت لى ما أعانيه من صنوف الألم والعذاب ... ولكن ... آه اعذرنى أيها الشيخ ! فقد طغى الحب على كل شىء ... لقد ألححت عليك منذ ساعة ورجوت منك ألا تمسها بسوء ولكنك لم تف بوعدك واختطفت روحها ، ولو كان فى مقدورى النهوض من فراشى ما ترددت لحظة فى عمل كل ما فى وسعى لإنقاذها من براثن الموت .

ـ ولكننى أنقذتك .

أعلم ذلك ، وأعلم أنك رجل طيب القلب لاتضمر السوء لأحد، ولكن ليس ثمة ما يمنعنى من لومك على فعلتك هذه .

فانحنى عليه يخفف عنه ما به وقال : إنها جيفة ملوثة بالأوحال والأقذار ، فاخلع عنك هذا الحب المزرى واحرص على ألا تسوىء سمعتك بعد ذلك بالذلة وعشق أمثال هذه النكرة ، إنها امرأة شريرة فاحمد الله على خلاصك منها لأنه من الجنون أن تكون لبغى ملطخة بالوحل .

وساد صمت وأردف الشيخ يقول : هل عدت إلى عقلك أيها الشاب ؟

ـ سيجازيها الله بما قدمت يداها. فاذا قدر لى ورجعت إلى الحياة ثانية فثق أننى لن أعرف المرأة ولن أقربها إلى الأبد . . . ستكون حياة كلها ندم وغفران وتوبة .

قال الشيخ : يبدو لى من أساريرك أنك تخفى أشياء تريد النطق بها ، لم الندامة ؟ هل أحببت أحداً من قبل ؟

ـ كنت عالقاً بأميرة هندية عرفت بواسطتها معنى الحب العذرى ، ونعمت بجوارها طويلا ولكنها لم تفاتحنى بحبها بل تقبلت اعترافى بشىء من العطف والارتياح، ولم يبد لى من أساريرها أن ما بها من الحب لى يعدل ما بى لها ، وأعتقد أن هذا هو ما سبب وقوعى فى شراك هذه الآثمة أخيراً بعدما تحملته من الآلام وما قاسيته من الأرزاء فى سبيل تعلقى بالأميرة ، فلما وقع نظرى على هذه المجرمة هممت بها لأول لحظة وشعرت بقلبى يخفق شدة حتى خشيت عليه أن يتمزق وكنت أحسب . . . .

فقطع عليه الشيخ حديثه بقوله : أذكر أنك أخبرتنى فى لندن عن مؤامرة يراد بها قتل إحدى قريباتك بنسمها فى قصر هنا ، فماذا كان مصير هذه المسكينة يارى ؟

فانتفض الشاب انتفاضاً شديداً وعاد يقول وهو يبكى : ماتت ياسيدى ولا شك .. إنها الأميرة التى حدثتك عنها .. رحمها الله لقد كانت كريمة السجايا طاهرة الذيل معبودة من الجميع .

واستمر يبكى بكاء شديداً والشيخ عند رأسه يخفف عنه آلامه النفسية، وقال وهو يشيح بوجهه عنه : ألا زلت تحبها يابنى ... مسكينة والله هذه الفتاة .

وفى صوت خافت أجاب الشاب وهو ينتحب : إننى أحترمها احتراماً عظيماً . أما قلبى فقد أخذته هذه الجرمة معها إلى قبرها .. لاتعجب ياسيدى فالحب يطغى على كل شىء .

ـ لقد ماتت الأميرة ميتة شنعاء .

ـ حقاً ولكنها استراحت مما كانت ترزح تحته من آلام ومصائب ... لقد كانت حياتها سلسلة مآس وأهوال تشيب لها الولدان، تأكد ياسيدى أنها قابلت الموت وعلى شفتيها ابتسامة الفرح والسرور .

فصمت الشيخ لحظة قال بعدها : هذا إذا كانت الأميرة قد قتلت حقيقة .

فنظر إليه الشاب دهشاً وقال : هل تريد أن تقول إنهم لن ينسفوا القصر ؟

فأجاب الشيخ : أريد أن أقول إنهم أفلحوا فى نسف القصر وفشلوا فى قتل الأميرة فشلا تاماً . فوضع الشاب يده على رأسه وصاح بصوت خرج من أعماق نفسه : ياإلهى إننى لاأفهم مما تقول شيئاً .. أحقاماتقول؟.

فنظر إليه الشيخ نظرة تفكير وقال : إذن استعد لمفاجأة عظيمة فالأميرة فى لندن منذ خمسة عشر يوماً .

فصرخ الشاب صرخة الفرح وقال وهو لا يتمالك نفسه من إبداء دهشته : وافرحتاه.. أيمكن هذا؟ وصمت الشيخ لحظة ليلقى نظرة سريعة على الشاب أثر هذا الخبر ثم قال : أتظن ذلك مستحيلا ؟ إذن دعنى أطلعك على بعض ما خفى عليك .

قال ذلك ثم أخذ مقعداً بجوار الفراش وإذ ما رأى الشاب مصوباً نظره إليه فى دهشة ولهفة استطرد فى الحال يقول : قد تظن أننى شيخ هرم ... ولكن لى قصة غريبة ربما تود سماعها .

ـ بكل سرور يأبتاه ـ

ـ أبتاه !! صحيح ولكننى أؤكد لك أننى لست كما تظن يا فتحى .

ودهش الشاب من تغير صوت الشيخ فجأة وعجب من أن يناديه باسمه فأخذ ينظر إلى ملامح وجهه يتفرسها ويدرسها جيداً حتى أخرجه الشيخ من تأملاته بقوله :

ـ قل لى ماذا ترى فى وجهى ؟ وأية عوامل نفسية تنتشر عليه الآن ؟ أعرفت شيئاً ؟ كلا إذ لا يمكنك أن تهتدى إلى ما اهتدى إليه (بيتو) ، سأقول أنا كل شىء ، سأكشف القناع وها هى ذى الأفكار تتزاحم فى مخيلتى ، لست أدرى من أين أبدأ ولكن (ياغوس) لا يزال كما تعهده ...

ولم تكد هذه الكلمات تطرق أذنى الشاب حتى صاح صيحة شديدة كادت تقضى عليه .

ـ ياغوس !!

ولم يقدر الشيخ على إتمام كلامه لأن العبرات خنقته فاقترب من الشاب وانحنى عليه يقبله ويتمتم بصوت يرتعد من التأثر : فتحى ... ها نحن نلتقى كما كنا نلتقى سابقاً ولكنه لقاء مؤلم ، ذوى شبابنا وذبلت زهرة صبانا

وأصبحنا أشباحاً بشرية تنبوعنها العين وقد كنا أزهاراً تتفتح عن محاسن ونضرة ، كنت أود أن أمضى فى صمتى الطويل . كنت عاقداً النية على ألا أظهر شخصيتى المستترة خلف شعورى البيضاء بعد ما توارد على من فواجع ومآس ، أما نكبتك هذه فهى التى أخرجتنى من صمتى ودفعتنى مرغماً إلى مصارحتك الحقيقة المرة لنعزى بعضنا بعضاً ونسعد فيما بقى لنا من أيام فدعك من الشقاء يزلزل حياتنا ، دعك من ذكرى المصائب المؤلمة التى أثقلت كاهلنا وذهبت بشبابنا وسعادتنا وتعال ننظر إلى الحياة بمنظار آخر ، سنعيش ولكن ليس كما اعتدنا ، ستلتقى عيوننا بعيون (نوليات) وسنعيش أبد الدهر إلى جوارها ولكن لن تواتينا الجرأة على مفاتحتها بالحقيقة وسنقطع كل أمل فى استعادة ذاهب أيامنا الغابرة ، لقد أنقذتها من الموت وأعدت لها عزها وفتنتها فهل درت أن هذا الشيخ الذى تعيش فى قصره يسبغ عليها النعم ، والذى تسميه الأب سيمون ، هو ابن عمها (ياثوس) الشقى البائس ؟ لم تدرك هذه الحقيقة ولن تدركها وسأظل الشيخ سيمون حتى الموت ، ويكفينى عزاءً أننى ألازمها وأرعاها فى هذا العالم.

فتحى ادعنى أصارحك الحقيقة ، دعنى أتكلم ، دعنى أزح عن نفسى حملها الثقيل ما دمت قد اعترفت أنت بكل شىء فقد احتملت ما لم يحتمله بشر وتجرعت الكأس حتى الثمالة ، هأنذا أعترف لأول مرة أننى كنت أحبها منذ الصغر وقد حال خجلى وترددى دون مفاتحتها بما يجيش فى صدرى من حمى الشوق ولهيب الحب فحبست عاطفتى فى أعماق صدرى حتى تحين الفرصة المناسبة ... فتحى ! لاتبك ... بربك ...

فقطع عليه الشاب حديثه حين أجهش بالبكاء ويد الشيخ بين يديه يغسلها

بدموعه الحارة ، وقال والألم يقطع أحشاءه : إننى أكاد أجن ... إننى لأكاد أصدق ... ياغوس! سامحنى .

فطفرت عين ياغوس بالدموع فاحتضنه يقبله ويضمه إلى صدره وهو يقول : ماجريرتك ؟ ... ماذا فعلت حتى تطلب الصفح منى ؟

فقال وهو يبكى بكاءاً شديداً : لقد جنيت عليك ياياغوس ! إننى أعلم الآن أن ثورة احتبستها بين جانحتيك . إننى أعلم الآن ماجاش فى نفسك حين استبقتك إليها امزق الستار عما أكنه لها فى قلبى ، كل لحظة من لحظات صداقتنا شاخصة امام عينى الآن لاتنكشف إلا عن تلك اللحظة التى اعترفت لها بحبى ... إننى أتألم يا ياغوس من مجرد تفكيرى فى ذلك ، لقد حرمتك منها إلى الأبد ، إننى أحتقر نفسى وأنزلها منزلة الآثمة المجرمة ؛ ذلك لأننى أسففت إلى حضيض الجنون وطاوعت العاطفة وتبعت قلبى الخائن المضل ، تحت تأثير هذه العاطفة جريت نحوها ألقى بقلبى عند قدميها فهل بادلتنى هذا الحب ؟ كلا وربى فما نلت أكثر مما ينال الأخ من شقيقته وعلى هذا الأساس مضينا والنار تسرى فى عروق وتلهب كيانى أتحرق إلى كلة أبنى عليها قصور الأحلام والمستقبل الزاهر فلم تتحرك من موقفها قيد شعرة ، فأدركت عندها أن نهايتى تقترب ، ومرت الأيام ، أيام المحن والشدائد ، فخفت تباريح الوجد والصبابة وتبدلت نفسيتى فرحت أسرى عن نفسى حمى الشوق حتى سلوتها أطهر ما تكون ذيلا وأعظم ما تكون عندى إجلالا . كل ما قدر كان وكل ما خفى من الأمر وضح ، ولم يبق إلا أن أطلب العفو منك وهأنذا أقسم لك أن أكفر عن هذه الزلة وأن أعوضك عما فقدت خيراً .

وبكى بكاءاً شديداً ووقف ياغوس عند رأسه يخفف عنه وهو لا يملك نفسه من الأسى وعينيه من البكاء :

ـ لا ، لا يافتحى ! وهل تشك لحظة فى حـ

اتهمت نفسك بما هى براء منه ، إنك آلمتنى حقاً بهذه التهم تسوقها وترمى بها نفسك الطاهرة ، لقد خانك تفكيرك فصورت الحوادث تصوير لا يقرها ضميرى ، إنك تغالط الحقيقة التى تعرف كما أعرف . إننى أجلك وأحترمك ، وهذه التهم البالغة لن تسمو إلى النيل من مكانتك عندى ، حاشاالله أن أرضى بما ألصقته بنفسك فى ثورتك هذه ، وقد وحدت يد السماء بين روحينا ... إننى أرى الدمع ينهمر من عينيك ، لم البكاء ؟ لم الأسى وقد انقشع الظلام وزال الكرب ؟

فقال بعد لحظة بلهجة مملوءة بالألم : ذلك لأننى أعلم الناس بآمالك فأى أمل منها يمكننا أن نحققه بعد أن أصبتك بهذه الطعنة القاتلة ، لقد سلوتها وأما أنت فستحبس عاطفتك فى أعماق صدرك إلى الأبد ، ولن يقف لهيب حبك عند حد مهما بالغت فى كبح عاطفتك المتقدة ، ولن تواتيك الجرأة على مصارحتها الحقيقة وأنت صاحب هذا الوجه الشاحب فى صفرة الموتى وهى مليكة الجمال ذات الحسن والفتنة ، بذلك ينهدم آخر ركن من الأمل لتحقيق أمنيتك فى الزواج منها ، وستقنع بالتطلع إلى شادق مكانها ، وستعطف عليها وتلازمها ، ولكنه من الاستحالة أن تلهمها العناية فتبصر على بعد صبابة الوجد والغرام المستترة خلف هذا العطف الأبوى وزهرة الشباب المحجبة بمظاهر الهرم القبيحة فترحمك وتشفق بك من سورة الحب ولهيبه ، وتنفخ فى جسدك قوة الحياة فتعود سيرتك الأولى .. إن قلبى يحدثنى بكل شىء ، إننى أتكلم كلام معتقد بالألم حتى مالم يزرع وحقت له المغفرة .

فتألم ياغوس من كلام صديقه ولم يتمالك نفسه أن قال : يافتحى ! . . . غفرت لك كل شىء مع يقينى بأنك لم ترتكب إثماً أو أمراً نكراً يستحق الصفح والغفران .

ـ ياغوس ! إن قلبى يكذبنى القول إذا تحدثت عنك فهل خرجت من القبر فى اليوم الذى دفنت فيه ؟

ـ يطول بى الحديث إذا حاولت سرد القصة فى هذا الوقت ويكفى أن أقول إنك أجبت عن سؤالك بنفسك ، نعم لقد خرجت من القبر فى مساء اليوم الذى دفنت فيه ، ثم فيه شاباً وخرجت شيخاً هرماً . لا تسألنى عن التفاصيل الآن . لقد أماتونى بالابرة السامة فقدر لى أن يكون السم وقتى المفعول . فاستيقظت وخرجت ، ويمكنك أن تتصور فزعى وارتياعى من مجرد التفكير فى وحشة القبر وظلمته هائماً ، وقد أقسمت لأنتقمن أشد انتقام . وهأنذا أوشك أن أبر به كاملا ، لا تتهمنى بخمود العاطفة فقد زرتك فى بيتك منذ شهور قلائل فكانت مقابلتك لى فى منتهى القسوة .

فصاح وهو لا يتمالك نفسه من إبداء دهشته : زرتنى ؟ قابلتك فى منتهى القسوة ؟ أين عقلك ؟

فابتسم ياغوس وقال بهدوء : زرتك فى شخصية (مالير) ... لا تعجب فمن يجرؤ على الخروج من القبر يأت بكل عجب ... والآن أحب أن تستعد للرحيل ... تقول : إنك سمعت طلقاً نارياً خارج غرفتك منذ زمن ؟

ـ أتذكر ذلك ؟ لقد كنت وشيك الاغماء

ـ حسناً ... لقد تخلصنا من (بيتو) يافتحى .

فحملق إليه دهشاً وقال : بيتو ! وكيف جاء هنا ؟

ـ نحن ضيوف عليه فى الواقع، لأن هذا المنزل مسكنه، وقد أعده لمراقبة القصر ، أما الفتاة فتدعى (شارلوت) زوجة (فيجايا)

فجزع فتحى وراح يسأله فى لهفة : أكانت تعرفنى عدواً لزوجها ؟

ـ بالطبع وهو الذى ساقها لإيقاعك فى الشرك .

فصرخ الشاب صرخة خافتة منشؤها الألم والدهشة: يالها من فضيحة، لقد كنت أتمنى ألا يكون هذا مصيرى .

ولبث ياغوس يفكر بضع دقائق ثم رفع رأسه وقال : إن أوفق حل هو أن نرحل فى الحال إلى لندن ، وستتقمص شخصية (ستيوارت) نجل فى جامعة أكسفورد . لقد تشوه وجهك وأصبح من المحال معرفة الحقيقة ، وخاصة إذا وضعت عوينات سوداء على عينيك ، لن تعرفك ولاسيما إذا اتقنت دورك فإذا سألتك عما سبب لك هذا البلاء فاذكر أنه نتيجة انفجار مواد كيميائية فى معمل الجامعة ، وسأحاول جهدى القيام بدور الأب قدر المستطاع ، هذه خاتمة حياتنا يافتحى ، حياة مرة مؤلمة، وليكن عزاؤنا أن نظل إلى جوارها نحرص على توفير أسباب راحتها وهنائها ، ونبدد سآمتها وننعش حياتها حتى تنسى آلامها وأحزانها ووحدتها .

ـ إن قلبى يخفق بشدة يا ياغوس ! ولاشك أننى سأقاسى الكثير عند مقابلتها ، الله يعلم وحده ما أنا فيه من ألم وتعاسة ، على أننى أعدك وأنت أعز مخلوق فى الحياة أن أكون أكثر دقة وحذراً، وأن أقوم بما أمرتنى به قدر المستطاع . إننى لا أكاد أتصور أية قوة تلك التى استطاعت أن تجمعنا بعد فراقنا الأليم ، سنتألم من جراء حالنا التعيسة أشد الألم ، ولكننا سنكسب حياة جديدة ، وحسبنا أن نكون حراسها الأمناء وسندها الذى

لا يقل ، وحسبنا هذا عزاءً ونعيما . إنى أفكر فيها وفى أصدقائنا القدماء وأكاد أحترق أسى ولوعة ، ها نحن أولاء نجتمع ولكنى سوف لا أنسى كاجمة (غانم) ، يالها من ساعة أليمة ، ساعة الغدر والفراق الأبدى .

وصمت ياغوس لحظة ثم قام وهو يجفف دموعه ويقول: يطول بى القول إذا حدثتك الآن عن كل شىء ، اعتقد أن ياغوس كما تعهده جريئاً فطناً لا تقف أبحاثه عند حد ، لقد تمت الاستعدادات ولم يبق إلا الضربة القاضية ، وبعد ذلك ينكشف الغموض الذى أحاط حادثة غانم ويتضح الموقف ، والآن دعنى أحملك إلى السيارة ، أما مصير هذا المسكين ومن فيه فالنسف بالبارود . اسمع . . . هل تريد أن تلقى نظرتك الأخيرة على جثة شارلوت ؟

ـ حاشا لله . . . إنى أعترف بينى وبينك أنى سأعود إلى الحياة بغير قلب .

الفصل العاشر

وجهاً لوجه

سارت الفتاة فى طريقها وكانت تشعر بانقباض شديد وملل لا حد له ؛ وبينا هى تسير على الإفريز على عجل، إذ مر بها (ستيوارت) الشاب التعس الذى عاملته الحيـاة بقسوة ولم تنصفه الأيام ، وكان يقود سيارته ذات المقعدين فناداها بعد أن أوقف السيارة : إلى أين يامولاتى؟هل تسمحين لى أن أقلك إلى المنزل ؟

فنظرت إليه بعينين تشعان ـ كعادتهما معه ـ حناناً ؛ وأجابت باسمة وهى تقفز إلى جانبه :

ـ أشكرك ياستيوارت ... أراك تسير على مهل ؟

ـ نعم ، ولا أظن فى لندن من يتعب تعبنا فى هذه الأيام ؛ أتعلمين أننى الآن عائد بعد مراقبة طويلة لمنزل ابن عمتك (فيجايا) ، لقد تجسست فوجدت أنه متغيب عن القصر منذ بضعة أيام .

ولاحظت الفتاة أن وجه الشاب تعلوه علامات الوهن والتعب وتأملت وجهه المشوه القبيح فسرت القشعريرة فى بدنها وعاودها الحزن على مصاب هذا الشاب المسكين الذى راح ضحية أبحاثه العلمية وباء بالخيبة والفشل دون أن يتمكن من جنى ثمار مجهوداته العلمية ، قالت له وكأنها تفهم آلامه وأحزانه :

ـ أتدرى يا استيوارت أننى كنت أود ألا يكون هذا مصير شاب متوقد الذهن مثلك ؟

فأشاح بوجهه جانباً وقال بصوت مضطرب : يكفينى عزاءً أنك تعطفين على يا أميرتى العزيزة ، أنت عندى وعند أبى كالدنيا بأسرها وملاذنا الأوحد .

ولم يستطع إلا أن تزدحم عيناه بالدموع ، ولكنه أبى أن يسكبها أمامها ، وأطرقت الفتاة برهة ثم رفعت رأسها الصغير وقالت : سأبقى معكما إلى الأبد . . . إننى أجد عزائى فى قربكما ، ألا ترى ياستيوارت أن الحياة كانت قاسية فى معاملتنا ، فاغرورقت عيناه بالدموع وأبى أن يبكى فجمد الدمع ولم يعرف كيف يتكلم واستطردت تقول :

ـ أنصح إليك ألا تفكر كثيراً ياستيورات ويحسن بك أن تدع ذكريات الماضى جانباً ، لقد رأيتك منذ أيام تخلو إلى نفسك فأشفقت بك من اندفاعك فى استعادة ذكرياتك المدرسية ... هاقد وصلنا ... لا أظن الأب سيمون قد حضر .

وقف (ستيوارت) بالسيارة أمام باب منزلهم الصغير ثم نزل وأخذ يدها ، وسارا سوياً فى الحديقة الصغيرة ، وكان يخيل إليه أنها باتت فى أكثر جمالا من جمالها السابق . وما كان الناظر إليه فى هذه اللحظة ليظن أنه (فتحى) الذى كان يعبدها والذى فرض على قلبه سلواها حتى تغلبت إرادته ، وقدر بعد جهد أن يمحو من ذهنه صور الماضى وذكرياته ، وأصبح ينظر إليها نظرة الرجل لزوج شقيقه .

وهكذا انتصر الوفاء على الحب رغم ماكان يهزه فى بعض الأحايين من حنين وعذاب .

لم يجدا الأب سيمون بالمنزل، وما عتما أن آثرا انتظار عودته فى الحديقة، فلما ملا بهما وعادا إلى الحديقة يطلبان الراحة فى طلاقة الهواء ونقائه؛ وكانت الليلة مقمرة تنتشر فيها الأشعة الفضية على الأشجار وتنفذ من غصونها وأوراقها فتلقى على الأرض ثوباً فاتناً. فجلسا بجوار بعضهما على مقعد خشبى تسوره أغصان وورود.

ولبث الشاب صامتاً يفكر بضع دقائق، ثم رفع رأسه والتفت إليهما وقال:

— لا تقلقى بالك كثيراً يا مولاتى، فربما نتمكن بعد أيام من تصفية حسابنا مع (فيجايا). حقاً لقد مر أسبوعان دون أن تثمر جهودنا، ولكن قلبى مع هذا يحدثنى بأن نهايتهم باتت على الأبواب.

وراح يتطلع إليهما وهى تتألق فى ثوبها الأبيض كالزنبقة، لكنها ما لبثت أن قالت: قد يكون هذا صحيحاً ولكنى أخشى أن تمتد أيديهم إليكما بسوء. إنهم غيلان مفترسة لا يشبعها إلا لحم الفريسة.

وهزت رأسها واستطردت تقول بلهجة الحزن والألم: لقد كنت أتمنى ألا أعود إلى الحياة ثانية ياستيوارت، لا تعجب من عودتى إلى قول هذه العبارة بعد توسلات والدك، إنك تعلم أى ألم يحز قلبى من مجرد تفكيرى فى ضحايا (فيجايا) وأتباعه، لقد راحوا جميعاً وهم فى زهرة شبابهم وميعة صباهم، ولطالما أهبت بهم ألا يدخلوا هذا الميدان المزعج المخيف فأبوا إلا اقتحامه فجاءت الضربة القاضية ...

ثم صمت قولها حتى طفر الدمع من عينيها الجميلتين وأخفت وجهها بين راحتيها واسترسلت فى البكاء فاقترب منها والأسى يقطع أحشاءه وقال يخفف آلامها النفسية: ولم البكاء أيتها الأميرة ما دام إيماننا برحمة الله ولطفه لم يخنا؟

فأجابته وهى تتنهد: ألست ترى ياستيوارت أن ذلك العذاب لا يمكن

أن تتحمله فتاة مثلى ؟ إننى معترمة الآن أن أسرد إليك بعض الوقائع التى كنت أحبسها فى صدرى بعد أن عشت فى كنف والدك ولقيت ما لم ألقه من أبى نفسه ، إننى أشعر أن فى والدك قوة كبيرة وصلابة وعزماً وشجاعة قلما نعثر عليها فى شيخ بلغ من عمره مابلغ .

فتكلف الشاب ابتسامة حزينة متكلفة وقال : أشكرك يانوال على شعورك النبيل نحوه ... أشكرك من أعماق نفسى وأتمنى أن يدوم بقاؤك معنا إلى الأبد ... ها هو ذا قد حضر .

وظهر الشيخ وأقبل نحوهما على مهل فنهضا لتحيته وانحنيا فقبلا يده فى أدب ، وانحنى فقبل كلا منهما فى جبينه وجلس بينهما ، وكانت تلوح عليه أمارات التعب ، وأرادت الفتاة أن تتعرف نتيجة مساعيه فسألته قائلة بصوت عذب رقيق :

ـ هل وجدت عثرات فى هذه المرة ؟

فأجاب وهو يلهث من التعب : يابنتى العزيزة ! لقد توسلت إليك وما زلت أتوسل أن تدعى الأمور تجرى فى أعنتها لأنه خير لنا ولك أن ترفعى عن نفسك الآن ، فهل تشكين فى إخلاصى ؟

ـ كلا ، إننى أراك مثال الاخلاص والحنان .

ـ إذن فما هذا الهم والحزن البادیان على وجهك ؟

وأسرع الشاب ويتولى الجواب فقال : مابها من شىء ياأبتاه ، لقد اعترمت أن تقص علينا سراً جديداً .

فهدأ بال الشيخ وابتسم ابتسامة الاطمئنان والسرور وقال : لقد كنت أرى منها شيئاً من التحفظ ، والواقع أن الوقت قد حان لأن توضحى لنا بعض الغموض الذى يحيط بأكثر من ناحية من نواحى قضيتك .

وفى صوت خافت ووسط سكون وسكوت راحت تقول : وحقيقة الحال أنكما تعرفان القضية من جميع نواحيها إلا نقطة كنت قد عولت على عدم إيضاحها واحتباسها فى أعماق صدرى ، أما وقد عرفت من صفاتكما ماجعلنى أطمئن إليكما ، فقد اعتزمت تمزيق الستار وإظهار ماخفى من الأمر .

حدثنى (ستيوارت) كثيراً عن (ياغوس) أيام كان زميلا له فى جامعة أكسفورد . والحق أنى كنت معجبة ومفتونة به كشاب استكمل كل الصفات التى تستهوى فتاة شريفة مثلى ، كنا نلهو ونلعب سوياً فى سن الصغر ولم تكن الأيام قد كشفت لنا الستار عن حقيقة الحب ومعناه ، ومرت الأيام تحمل فى طياتها أهوالا وماسى وشدائد فشعرت بميل شديد نحوه ، وتطورت العاطفة وما كدت أبلغ الخامسة عشرة حتى استسلمت لهذه العاطفة المتأججة ، ومالت بكليتى إليه ، ولكنى كنت أكره أن أجرح كبريائى وأنزل إلى مستوى الفتيات اللائى يندفعن فى طيش حالما تتفتح زهرة مشاعرهن تحت تأثير هذه العاطفة الجذابة ، فلزمت الصمت واضطررت أن أحبس عاطفتى فى أعماق صدرى حتى لا أشغل فكره ووقته المدرسى ، وحتى هيىء له السبيل إلى إتمام دراسته العالية ليحقق آماله .

كان الزواج به أمنيتى الوحيدة ، ولكنى حرصت على عدم إظهار ما يغالبنى من الشوق والحب حتى يجنى ثمار مجهوداته العلمية وتحين الفرصة المناسبة لاعترافى ، فاضطررت إلى أن أدارى عاطفتى المتقدة جهد المستطاع ، وأظهرت له من الجمود ماجعله يعتقد أننى منصرفة عن التفكير فيه أو الميل إليه ، وإن كنت أدرى مايعانيه من شوق ووجد وكمد ، كنت كالجبل الراسخ لايتحول ، مع أننى كنت أشد رغبة فى الاعتراف بما أكـ

قيل له ، وكان الناس يرمونني بالجمود والبرود ويقولون إنني فتاة بغير قلب، ذلك لأنني أعرضت عن جميع الذين تقدموا إلى يطلبون يدى ، وفضلت الوحدة والبعد عن اللهو والمرح ومجالس الرجال بعد أن أيقنت بأنه لم يعد من اللائق الاجتماع بالرجال فى مجلس والدى ؛ وأنا خطيبة ياغوس المتغيب فى لندن ؛ كنت كثيرة التفكير فيه وكان من الطبيعى أن أرفض كل خطيب يتقدم طارحاً قلبه عند قدمى رغم ثرائهم وجاههم العريض، لأن الهناء فى امتزاج الروحين واتحاد القلبين لا فى المال وبعد الصيت وسمو المرتبة ، ومرت الأعوام وظللت محتفظة بموقفى هذا حتى جئنا لندن كما تعلمون بغية عبور المانش ؛ كنت على يقين بقرب وقوع النضال يوما ما بين (فيجايا) و (ياغوس) ، وتعلمون من مجرى الحوادث كيف كان (فيجايا) يرتكب كل جرم فى سبيل بقائى بين يديه لتحقيق أمنيته فى الزواج منى ، خشيت على ياغوس قوة (فيجايا) ورجاله ، من أن تناله أيديهم بسوء ولكنى أبيت أن أظهر بمظهر المشفق به خشية بطش (فيجايا) به كما أبيت مفاتحة (ياغوس) بحبى وإطلاعه على الحقيقة لقرب امتحانه النهائى . وكان (فيجايا) يحبنى حباً عظيما لدرجة يبلغ حد الغيرة على من كل شىء ولذلك لم يسمح لى بكثرة الاختلاط بأصدقاء (ياغوس) مثل (فتحى) و (غانم)، لكن (فتحى) الذى كان صديق (ياغوس) الحميم لم يلبث أن شغف بى وما عتم أن اعترف لى بحبه ، فرأيت أن من القسوة أن أصدم هذا الشاب الطيب القلب الرقيق العواطف ، وأنا أحوج ما أكون إلى أصدقاء مخلصين مثله فتقبلت اعترافه بحنان وعطف ولم أزج بنفسى فى حياة الحب معه، لأن قلبى كان ينبض وقتذاك بشعور المحبة التى أكنها لياغوس حتى أنى أخذت أشعر بأنه أصبح جزءاً من حياتى لا يتسنى فصله، ولا عجب فقد كان ياغوس

يفوق أصدقاءه جميعاً فى جمال الوجه وفتنة المحاسن ورشاقة القوام .

ومن الجحود إنكار ما كان يمتاز به أصدقاؤه عنه ، فقد كان (غانم) سلوتى الوحيدة بكلامه الخلاب وأحاديثه الممتعة، خصوصاً وأنه لم يقع فى هواى ، وكان يخيل إلى أنه من الصنف الذى يرى تهافت الشبان على الفتيات لنيل الحظوة لديهن من ألاعيب الحياة ، فازداد إعجابى به وصرت أرى فيه مؤنسى الوحيد، وكان (فتحى) مثل صديقه فمحى اللون جذاب الملامح ولكنى مالبثت أن وقعت فى نفسه ، وكأنى به ـ وقد شعر بما فى نفسى من غصة وألم ـ أراد أن يسرى عنى همومى بصرفى إلى حياة الحب والمرح والمسرات حتى لأدفن شبابى فى رمس الأحزان .

وهكذا مرت الأيام وأنا أشعر فى هذا الوسط بالغبطة والهناء ، وكانوا يلازموننى فى حلى وترحالى دون أن تفترق إلا ليلا عندما أذهب إلى قصر (فيجايا) ويذهب كل منهم إلى بيته . كنت سعيدة بينهم أقضى حياتى فى هناء وسرور ولكن يد (فيجايا) أسرعت فحطمت كل مابنيناه من الأحلام والأمانى . فاختطفت منا (غانم) بعد تنكيل وتعذيب، ثم امتدت إلى ياغوس فأودت بحياته وأصابت (فتحى) إصابات قاتلة ، وتركتنى وحيدة فى هذا البحر الصاخب أناضل لجته العاتية دون أن تكون لى خبرة فى اتقاء أهواله ولاسيما بعد موت والدى واستيلاء (فيجايا) على ميراثى بعد أن ألقى فى روع الجميع خبر موتى .

هكذا قدر لى أن يموت (ياغوس) وأحرم منه إلى الأبد ، فأصابت الطلقة منه مقتلا ، ووقفت أمام هذا المصاب مشدوهة واللهب يستعر بين جوانحى ، وندمت على سكوتى هذا ندماً شديداً كاد يذهب بعقلى ، وتبين لى بعد ذلك أننى أجرمت جرما لا يغتفر إذ كان أجدى بى أن أعترف له بكل شىء

حين خفق قلبى للحب ولو أننى فعلت ذلك لعشت اليوم بضمير مستريح ولأيقنت بأنه يبيت الآن فى قبره ناعم البال هنيئاً . . . هذا هو السر يابنى . . . هذه هى النقطة الغامضة أصرح بها تفريجاً عن كربى وتنفيساً عن صدرى . . . إن أحشائى تتمزق من لوعة الذكرى ولذعة الألم .

وما كادت تنتهى من كلمتها الأخيرة حتى أجهشت بالبكاء ، ومالت برأسها على صدر الشيخ تغسله بدموعها الحارة وتقول فى صوت يشبه المناجاة :

— هذه خاتمتنا ياياغوس ، خاتمة محزنة مؤلمة ، ها هو ذا قلبى يذوب تلهفاً للقياك ، فهل ألقاك ؟ سأظل لك إلى الأبد ولن يرى جسدى رجل غيرك . . . أمنيتى أن أراك فتشهد عيناى وجهك الصبيح وتطرب أذناى بصوتك الحنون العذب . . . كنت أحس وأنت تتأبط ذراعى أنك تحترق وتهتز كالحموم فتظاهرت بالانصراف عنك ، خشيت بطيشى آمالك وأحلامك . إننى أذكر كيف كنت تختلس إلى النظر ولا تجرؤ على مصارحتى الحقيقة . . . لم أتبين الموقف . . . لا أدرى كيف . . .

وهنا لم يقدر الشيخ على امتلاك زمام أعصابه المتزايلة ونفسه المشتتة ، فقاطعها وفى عينيه دمعة تترقرق .

مامعنى هذا يابنيتى العزيزة ؟ ماهذا الضعف ؟ كفى كفى يابنيتى الصغيرة .

قال ذلك ثم نظر إلى ستيوارت ، وقال بصوت جهد فى إخراج نبراته ثابتة متزنة :

ستيوارت ! هيا بنا إلى داخل المنزل فانى أخاف عليكما من البرد .

وأشاح (استيوارت) بوجهه ليجفف دموعه ، ونهض من مكانه بعد لحظة وقال وهو يتظاهر بالشجاعة والهدوء :

هيا يا أميرتى ... لقد آلمتنا قصتك أشد الألم ، ولكنى واثق بأن فتاة

ظاهرة مثلك عسير عليها أن تدع اليأس يتسرب فى قلبها ... حرام عليك أن تستسلم لهمومك وأحزان نفسك . . .

وأراد أن يستأنف كلامه فلم يخرج الصوت من حلقه . ورفعت الأميرة رأسها ونظرت إلى ماحولها متسائلة : هل ما حدث كان حقيقة أم حلماً ، ولاحظت أن الشيخ فى حال غير عادية فسألته قائلة :

ـ ماذا جرى لك ياسيمون ؟ إنك مضطرب .

فتناول يديها الممسكتين بذراعه وفركهما بهدوء وقال ـ أظن أننى صبت ببرد يابنيتى العزيزة .

ومسحت الفتاة عينيها بمنديلها الصغير وقالت وهى تهم بالقيام :

لقد عرفنا القصة أجمعها والآن يمكننا أن نذهب إلى المنزل خشية البرد .

قالت ذلك ثم مدت يديها إلى الشيخ تعاونه على النهوض . وبيناهما فى الطريق قال الشيخ :

ـ أطلب إليك شيئاً واحداً ، وهو أن تتناسى الماضى وما فيه من طيب وردىء . وتتحاشى كل إشارة إلى هذا الموضوع ، وإنما يجب علينا أن نعمل لاسترجاع ميراثك الشرعى والانتقام من أعدائك أشد الانتقام ، ثم تمهد السبيل لرجوعك إلى إمارتك وموطن عزك وسلطانك .

وفى أثناء العشاء أخذ الرجلان يرقبان حركات الفتاة باهتمام وقد سرهما أنها استردت ابتسامتها الفاتنة . ثم لاحظا أنها تتكلم بلطف وهدوء كأن لم يحدث منذ لحظات ما أثار الشجون واستدر الدموع . وأخذ الشيخ يوضح لها الطريقة التى سيتبعها فى القضاء على (فيجايا) دون حاجة إلى تدخل البوليس ومعونته . وفى أثناء ذلك كان يرقبها ويختلس إليها نظرات ذا معناها ، وقد حدث نفسه بأنه إذا صح ما قالته الليلة . فأننى أكون أسعد الناس أوشقاهم فى آن واحد .

والواقع أن اعترافاتها أثارت جراحا بالغة فى قلب الشيخ ، ولكنه تجلد وتشجع مخافة أن تتبعه الأميرة ، ويفتضح الموقف .

وبعد العشاء جلس ثلاثتهم يلعبون الورق حتى الساعة الحادية عشرة ، ثم قبل الشيخ جبينى ولديه وانصرف كل منهم إلى حجرته .

وما كاد الشيخ يخلو إلى نفسه حتى ارتمى على أحد المقاعد خائر القوى مهدم الأعصاب وهو يجهش بالبكاء كالأطفال ، وبقى كذلك حتى دخل (إستيوارت) فنظر إليه الشيخ نظرة عميقة وكأنه أراد أن يقرأ ما فى صدره ثم سأله قائلاً :

— ماذا تقول يافتحى ؟

فتهالك على المقعد إلى جانبه وتدامتقع لونه واغرورقت عيناه بالدموع وأجاب بقوله :

— إنه يجب إطلاعها على الحقيقة ، لأن ذلك ينعش حياتها ويبدد ظلماتها ، ويمد لها فى أسباب السرور والبهجة .

فقال : — لا يعزب عن بالك أنها تكلمت عن ياغوس ، على أنه ذلك الشاب الحسن الجميل المملوء صحة وعافية ، وأنه ذلك الذى كانت تفخر به وتزهو عجباً كلما خطر أمامها ، وعلى أنه ذلك الذى كانت ترى فيه معقد آمالها ومنار حياتها وبشير سعدها ... وأنا أعلم الناس يافتحى بآمالها ومطامحها المتشعبة ، وهى فوق ذلك فتاة فى ريعان الصبا تطمح شأن الفتيات الكبيرات إلى أن ترى إلى جانبها شاباً يزيد بهجتها وسرورها ويغذيها بالحب ويبادلها عواطف الشباب المتأججة التى تهز أوتار القلوب وتملؤها بهجة وغبطة ، فأين منى أنا الشاحب الوجه الأشيب الشعر من شاب جميل صبيح الوجه ممتلىء قوة وحياة ... تأكد أننى لو صارحتها

الحقيقة لانقلبت حياتها مرة أليمة ؛ حقاً ، سأقاسى آلاماً نفسية وأنا أعالج كتم هذا السر عنها ، ولكننى أرى أن ويلات هذا الكتمان أخف من ويلات مصارحتها بالحقيقة .

فتعجب فتحى من كلام (ياغوس) وقال له : ما أغرب ذلك الذى اعتزمته ياياغوس ، هل نسيت أنك ماتزال شاباً لك مطامح كبيرة وآمال واسعة ومستقبل زاهر ، رغم مظاهر الكبر التى تستر حقيقتك عن أعز الناس وأخلصهم إليك ؟ لا تجعل الهم يتسلط عليك ، بل تحدث عن المستقبل الباهر الذى ينتظرك . وتحدث عن محاسن الحياة ولذائذ الحب ، فأنت تعرف الواجب وتزن الحقائق بميزان العقل ، ألست ترى معى أننا بتضليلنا إياها عن الحقيقة إنما نقف منها موقفاً مزرياً نربأ بأنفسنا عن النزول إليه ؟ ألست ترى معى أننا بذلك نلهو بعذابها ونزيد آلامها ونمد فى غمها وأحزانها ؟

وكان (ياغوس) فى أثناء ذلك مضطرب الفكر ، وقد ابتعد عن صديقه مخافة أن تثنيه كلماته عن عزمه وتجنب سماع حديثه . وصرف همه إلى أمر كان يريد أن يستشير صديقه فيه هذه اللحظة ، فلما انتهى فتحى التفت إليه الشيخ وقال : إن كل ما قلته صحيح ، وإن كنت لا أرى رأيك ، فلا أقل من أن أكون مرتاحاً إليه ، وكم كان بودى أن أكشف لها الستار عن الحقيقة لولا أننى رأيت وما زلت أرى أن هذا الاعتراف سيولد مأساة من أقسى المآسى ، دعنا الآن من هذه الناحية ، وتعال بنا نفحص بعض ماتوصلنا إليه من أخبار فيجايا ، إنك لم تصل إلى شىء ، أما أنا فسأفضى إليك بأمور ذات بال وإنى لأسر إذ أسرد لك فى هذا الوقت القصة بحذافيرها .

ـ قل ما تريد .

ـ أغرب ما فى القصة هو وجود (حامد) و (عبدالسميع) و (عباس)

على قيد الحياة ، ولكنهم فى حال يرثى لها ، يعانون أشد الألم فى أسر (فيجايا) ، ويذوقون أشد ألوان العذاب على يد (فيداس) ، أما (غانم) فلم أقف على شىء من أخباره ، ويظهر أنه قضى نحبه فى حادث العام الماضى ، ولم يكن الأشقياء يبتغون من ذلك اختطافه بل التنكيل به وتعذيبه ، وأعتقد أنه مات بعد ساعات من اختطافه ، والليلة فقط اهتديت إلى سجن الأصدقاء الثلاثة كما علمت سفر (فيجايا) إلى كورنواى ليستقصى أخبار (بيتو) وزوجته ، وعلى ذلك يمكننى أن أقول إن كل شىء قد تم ، وحانت الضربة القاضية ، وربما قضت علينا الأحوال بالبدء غداً .

ولما فاه (ياغوس) بذلك الكلام هم بالنهوض والتفت إلى صديقه الذى كانت تنتشر على رجهه سحابة ألم وهم وقال : أو لاتريد أن تنام ؟ أعذرنى فانى لا أستطيع أن أصارحها الحقيقة .

فنهض من مكانه وحياه وعلى ثغره ابتسامة متكلفة محزنة وانصرف إلى مخدعه .

الفصل الحادي عشر

طالع فيجايا

كان المنتظر أن يسعد (فيجايا) بنصره الذى واتاه طيلة العام على أعدائه وظهوره عليهم رغم جهادهم الطويل وصبرهم الجميل، غير أنه وإن كان قد أفلح فى إخفات أصواتهم ، وتمزيق شمل وحدتهم شر ممزق ، فقد كان فى فزع من شبح الفتاة وأمر خلاصها من الموت واختفائها العجيب هذا رغم ما بثه من عيون وأتباع ، ورغم مساعدة الحظوظ له فى كل خطوة يخطوها ، ورغم نسف القصر المنعزل فى كورنواى ، رجاء أن تكون بين سكانه ، فيخلصون منها ومن آثارها ، على أن الأمور صارت تجرى فى هذه الفترة من الزمن على غير ما تشتهيه نفسه سواء فى داخل القصر أم فى خارجه ، فأما فى الخارج فقد أفلح (فتحى) فى تضليل (شارلوت) التى أرسلت لاصطياده ، ولم يقف الأمر عند خلاصه بل تعداه إلى اختفاء شارلوت وعدم الوقوف لها على أثر ، وأصبح شبحه وشبح الأميرة بمثابة كابوس مزعج يقض عليه مضجعه ويسبب له الاضطراب الدائم والقلق المميت وخاصة بعد اختفاء (بيتو) ساعده الأيمن هذا الاختفاء المحوط بالابهام والغموض ، وأما فى الداخل فقد تسبب عن شدته مع خدمه بعد عجزهم عن الاهتداء إلى مقر (فتحى) و(بيتو) و (شارلوت) أن انقلبوا عليه وشقوا عصا الطاعة ولاسيما بعد غياب (بيتو) واختفائه، غير أنه أفلح فى النهاية فى قمع فتنتهم بمساعدة (فيداس) وأنزلهم فى الأقبية الغائرة من

القصر ليسرى عليهم عقابه الصارم الرهيب حتى تفرغ الأجان وينطفىء سراج الحياة . لم يبق بالقصر غير (فيجايا) و (فيداس) تخيم عليهما سحابة قاتمة من الكآبة والهم، تتناوبهما الهواجس المتماكة المقلقة. وتعبث الظنون براحتهما حتى قضت عليهما المضاجع ودوت بقلبيهما إلى قرار سحيق. وهل كان يزعج (فيجايا) أكثر من أن يرى الأميرة تفلت من يده، بعد أن أدار عليها كؤوس الذل وسياط عذابه. حتى مزقت أنانيته كبد السماء وقلب الأرض؟ وهل كان يزعجه أكثر من أن يرى الحياة وزينتها تتقلب في لحظة إلى شبح مخيف ينذره بالويل ويصدم آماله، فيرد بها موارد التلف ويهدم دعائم ما شادته يداه فيذروها كالهشيم.

لم يبق في يده غير سلاح مفلول يدخن به المعركة، ولم يكن بد — بعد أن فشلت كل محاولاته في الوقوف على آثار الأميرة — من استعمال هذا السلاح القصير بعد أن ألجأته الظروف وغلت يديه فألقى بنفسه في أحضان المنجمين والعرافين. عساه يصل بعلمهم إلى ما قصر عنه سعيه بينما راح (فيداس) من جهة أخرى يجوب الضواحي ويستقصي الأخبار ويتسقط الكلمات في المنتديات والقطارات ودور السينما، وبالرغم من ذلك فقد ظل سر اختفاء الأميرة وبيتو وشارلوت وفتحي هر هو من الغموض والظلام فأورثهما الغم والنكد، وعلت وجهيهما معالم اليأس وجدب الحياة.

* * *

في ذات مساء اقتربت سيارة من سور حديقة القصر ووثب منها رجل يرتدي ملابس أمريكية سوداء، وبعد أن تكلم مع السائق وزميل لحظات قليلة توجه إلى باب القصر الخلفي ودق عليه ثلاث دقات وفتح الباب قليلا وظهر منه رأس هندي كالح فقال القادم متسائلا :

ـ الزعيم فيجايا فى الداخل ؟

فأجاب الخـادم فى صوت جاف : إن الزعيم غير موجود فى القصر ياسـيدى .

فظهر على الرجل الواقف على عتبة الدار القنوط والملال ، وبدا عليه أنه لا يصدق ما ذكره له فعاد يقول :

ـ ولـكن بيننا موعـداً مضروباً فى السـاعة الثامنة ، إننى ادعى « كـندى » وقد حضرت بناء على طلب الزعيم لى .

فعاد الخادم يردد قوله السابق فى نفس اللهجة الجافة :

ـ إن الزعيم (فيجايا) ليس موجوداً بالقصر .

ـ حسناً ، هل أستطيع مقابلة (فيداس) ؟

فتردد الرجل ولـكن القادم قال له .

ـ إننى فى خـدمة الزعيم ، ثق ياسيدى أننى ما جئت إلا تلبية لدعوة الزعيم ، وبعد إلحاح من (فيداس) ، ولو درى أنك قابلتنى هذه المقابلة الجافةدون مبرر فلا أقل من طردك شر طردة .

فتجلت على الهندى ملامح القسوة وقال للقادم بترفع : لا يهمنى ذلك إننى أنفذ تعليمات الزعيم ، فحدجه القادم بنظرة صـامتة وقال وهو يـكظم غيظه :

ـ أوه ! إننى أعترف أننى أخطأت ، إن مهمتى فى غاية الخطورة ، فهل يمـكننى أن أعرف الوقت الذى يعود فيه .

ـ لست أدرى .

ـ أتعرف أين ذهب ؟

ـ كلا

ـ أنا أخبرك بقدوم من يدعى « كندى بندكت » العالم الروحانى ؟

ـ لا .

فتمتم القادم ببضع كلمات غير واضحة تدل على مبلغ تبرمه بهذا الموعد الذى ذهب سدى وقال :

ـ أشكرك ولعلى لا أثقل عليك إذا رجوت منك تبليغه عند حضوره أننى أتيت فى الموعد المحدد . فأحنى الهندى رأسه وقد انطفأ لهيب غضبه وقال فى صوت خافت :

ـ يمكنك أن ترجع بعد ربع ساعة ، وسأبادر بتبليغه أمر حضورك حال مجيئه .

ـ أشكرك

قال ذلك واستدار على عقبه وغاب فى أحشاء الظلام ، وما كاد يبتعد عن القصر حتى اقتربت منه السيارة وأطل منه رأس شاب جميل الوجه فتان الملامح قال فى همس :

ـ أكبر الظن أن حادثاً وقع فى القصر الليلة ؛ لقد سمعنا حركات وأصوات غريبة فى الحديقة ،ولم يسع (ستيوارت) إلا أن يتسلق السور ليجتلى الحقيقة .

فقال الرجل فى قلق : إذا كان (استيوارت) قد دخل الحديقة فليس لنا أن نبتعد عنه قيد أنمله .

ـ نعم ويحسن بنا أن نترك السيارة الآن ونحوم حول الحديقة .

قال ذلك وقفز بخفة من مقعد القيادة ، وسارا جنباً إلى جنب فى حذر ويقظة .

وقال الرجل بعد أن فكر قليلا : إن الليلة حالكة الظلام وأخشى أن نضل بعضنا بعضاً فى الحديقة فى طريق البحث عنه .

فالتفت اليه الشاب وقال : هذا لاريب فيه ولكنى أقترح قبل تسلق السور أن نصفر له صفيرنا المتفق عليه فقد يخرج إلينا .

— حسنا ، فكرة لابأس بها .

وشرع يصفر ، وتتابعت الدقائق ولم يجد الصفير شيئاً ، فقال بصوت مضطرب :

— أخشى أن . . .

ولم يتم عبارته فإن الشاب جذبه من ذراعه ويده على فمه محذراً .

— صه ، انظر ها هو ذا فيجايا يسير على مهل .

وصوب نظره إلى الناحية التى أشار إليها الشاب فرأى رجلا ضخم الجثة ، يخطر فى ممرات الحديقة وقد أطرق برأسه مفكراً ، ونظر الرجل إلى الشاب وقال : بماذا تشير ؟ ألانت مصمم على التنفيذ ؟ فهز الشاب كتفيه إزدراء وقال ببطء : حقا ، اننى أشعر بالدم يصعد إلى رأسى من فرط حقدى ، وكم أكون سعيداً لو أتيح لى أن أمزق الستار وأكشف له الحقيقة قبل أن أقتله .

ونظرا فرأيا الزعيم يجلس على مقعد ليستريح ، وعلى حين بغتة حدثت ضجة داخل القصر ، وتعالت صرخات حادة ، فنهض الزعيم مذعوراً ، ولكن قبل أن يخطو خطوة إلى الأمام تراجع إلى الوراء فزعاً ، ثم رأيا على حين بغتة شبحين يسقطان من نافذة ويقعان إلى الأرض ثم يجريان فى إثر بعضهما ويلهثان ويزفران ثم يختفيان وسط الأشجار ، وهم فيجايا بالمسير ، إلا أنه فى هذه اللحظة تسلق العالم الروحانى وزميله السور بخفة ونزلا إلى

الأرض دون أن يسمع لها صوت. ومن حسن حظها تراكمت السحب وحجبت خلفها القمر وساد ظلام حالك ولبثا في مكانهما إلى أن سمعا وقع أقدام تقترب، وما هي إلا هنيهة حتى غدا شبحاً يسرع ناحية الزعيم في حالة فزع، وسمعاه يقول لاهثاً : لقد فر يا مولاي بعد أن أصابني بطعنات قاتلة .

فارتد الزعيم مذعوراً وصاح متلعثماً : كيف هرب من الغرفة الحديدية ، ياويلنا منه يافيداس ، أسرع وابحث عنه في أنحاء الحديقة .

وانفصلا وجرى كل منهما في طريق يختلف عن الآخر يبحثان عن الهارب ، وسرعان ما انفصل العالم الروحاني عن الشاب ، وتبع (فيداس) بينما جد الشاب في إثر الزعيم، وما كاد (فيجايا) يختفي وراء الأشجار حتى اندفع الشاب وهجم عليه كالبرق وألقاه إلى الأرض بعنف ، ولم تمض برهة حتى كان الزعيم الجبار مشدوداً بالحبال ولما أمن الشاب الانتطاح رفع قبعته عن رأسه فتدلت شعوره الذهبية على وجهه الفاتن وانحنى نحوه وذهب يقول وهو من الجنون تلهبه وتثير أعصابه :

ـ هل تعلم من أنا ؟

فصاح في فزع وارتياع : نوليات !

فقالت وهي ثملة بانتصارها : لقد ظفرت الآن بما أشتهي، هأنذا أبتسم بعد طول عبوس وعذاب وقنوط ، انظر يا مبعثر الأرواح كيف أوقعتك وصرعتك هذه الفتاة الضعيفة البريئة التي ظلمتها ونكلت بها أشد تنكيل؟ أترى أيها الجبان العاتي كيف سلبك الله قوتك ودحرك أمام فتاة ضعيفة نالت من العذاب على يديك ما لم يتحمله قبلها بشر؟ لو تعلم كيف عذبني فراق ياغوس) وكيف استحال نعيمي إلى شقاء بسبب ما أنزلته به وبصديقه دون ما جريرة أو إثم لرأيت أن موتك بيدي لا يعوضني شيئاً مما فقدت.

وهنا اغرورقت عيناها بالدموع لهذه الذكرى ، ولكنها تمالكت نفسهاوقالت وهى تحدجه بنظرات نارية :

— لقد تعلمت كيف أتحمل الأحزان والمصائب فى سبيل الانتقام منك ، لقد أقسمت وهأنذا أبر به وأنا الذى نشأت على مبادىء الشرف والوفاء ...

فقال فيجايا وهو يتصنع الحزن :

— لوتعلمين كيف تألمت .

فانفجرت فيه تقول :

ـ صه يامجرم ، دعنى أتلذذ بساعة ظفرى .

فقاطعها فى صوت يشعر بالندم .

ـ افعلى بى ما يحلو لك يا نوليات ، فقد صممت على ألا أرد عليك بكلمة تسيئك ، وهأنذا ألتمس منك العفو عماسببته لك من آلام فى الماضى ، فقد كنت مجنوناً بحبك ولطالما اعترفت لك بذلك فما لقيت منك غير الصد ، إننى لا أقول ذلك خشية الموت فقد باتت الحياة موحشة مقفرة ، وليست لى إلا أمنية واحدة هى أن تغفرى لى ، لقد ندمت وهأنذا أرحب بالموت على يدك وأهنئك بهذا الفوز الذى هو فى الحقيقة ظهور الحق على الباطل واندحار تام لكل معتد أثيم ، فاذا ذكرت سرورى فاذكرى إلى جانبها أننى لم أنتهك عرضك وصنت عفافك أيام أسرك .

واشتدعليها الموقف حين ذهبت بفكرها تستعرض صور الماضى وذكرياته وأهواله وماآسيه ، وغرقت فى مهام التفكير زمناً أفاقت بعده إلى نفسها وهى أشد ما تكون اضطراباً وقلقاً وعجباً ... ونظرت فرأت الظلام والسكون يخيمان على أرجاء الحديقة ، فبدت لها وكأنها أرض الخيالات

والأشباح تغدو وتروح من حولها ، فسرت القشعريرة فى بدنها وأفاض عليها صمت المكان وعظم الموقف غمراً من الهواجس ، ثم ازداد اضطرابها حين التقى بصرها بعينى فيجايا تدوران فى محجريهما كقدحين من الدماء لا يستقر لهما قرار . وكادت أن تهتف بسيمون تسأله العون على أمرها لولا أن أخرجها فيجايا من حيرتها وصمتها الطويل حين خاطبها يقول :

ـ توليات ! الله وحده يعلم أى ألم يحز الآن قلبى ويحرق فؤادى ، إننى أتكلم كلام مستعشر بالندم لا يرجو من وراء ضراعته غير المغفرة .

فقالت بعد لحظة : إن شديداً على الضمير أن أجيبك إلى سؤلك ... إننى لا أجد فى قلبى المعذب ذرة من العطف عليك ... عجباً ! كيف تأمل أن تجد فى نفسى المنكوبة فرجة تتسع لك وأنت الذى أغرقت فى إيذائها وأسرفت فى التنكيل بها ، حتى بلغت فى القسوة عليها حداً لا يتصوره عقل بشر ... إن كورنوالى لتطل علينا فى هذه الساعة تلوح بذكرياتها وما سيها الفوادح ، فكيف أنساها يافيجايا ؟ وكيف تتناساها وأنت وحشها الكاسر وأنا فريستها المنكودة ؟ إن جريمتك وسيرتك لما تستوجب عقوبة الإعدام فى أفظع صورة ، إنك لا تستحق أن تعيش يافيجايا بعد اليوم ، ثق بأن الله لن يغفل أمرك انتقاماً لضحاياك الذين أدرت عليهم كأس المنون بعد أن لاقوا منك شر ما يلقى مستجير من مجيره ، ولقد وددت لو مكنتنى الظروف من الانتقام لهم منك ، ولكن الدم الذى يجرى فى عروقك هو دمى ودم أسرتنا المنكوبة بك ، وهو الذى يغل عن التمثيل بك فى هذه اللحظة ، وهو الذى يضطرنى إلى أن أتبع معك الطريق الذى يقره القانون وترضاه الشرائع ...

ودارت على عقبيها وهمت بالمسير ، ولكنه مالبث أن خرج عن طبيعته وخاطبها فى لهجة مشوبة بالتأثر والحزن : نوليات ! لاتقلقى بالك كثيراً ، أسرعى الآن إلى القصر وعجلى بإنقاذ عباس وحامد وعبد السميع من غرفهم الحديدية .. ثم هنالك سر آخر ...

وسكت وسكتت هى الأخرى لحظة واستأنف فيجايا يقول :

ـ لم يمت ظالم يانوليات ! وإنما هو إلى يومنا هذا حى يرزق . لقد أدار عليه بيتو فى الأسر هنا من العذاب مالم يره قبله بشر ...

فصاحت فى دهشة وذهول : ويلك ! أحقاً ما تقول ؟

فأجاب : نعم يانوليات ، لقد قسونا عليه وأسرفنا فى إيذائه . . . ولقد كان منذ لحظات سجين غرفة حديدية فى القصر ، نزل إليها وعاش فيها طيلة هذه السنين ...

فقاطعته بصوت عال : وماذا حدث ؟ أين هو ؟ تكلم يافيجايا ، أسرع ، إنى لا أكاد أقوى على حمل نفسى .

فقال فى هدوء : لا أدرى كيف فر من السجن ... لقد تبعه فيداس منذ دقائق ... عجلى بإنقاذهم .

ومن ثم ومضت فى سبيلها تكفكف دموعها وظل يشيعها بنظرات تائهة حتى اختفت عن ناظريه بين الأشجار ، ومكث يتلوى على أرض الحديقة من شدة آلامه النفسية ، وتملكه فزع شديد سلبه رشده وتعقله حين فكر فى الفتاة وظهورها الفجائى على تلك الصورة ، وبعد لحظة سمع صوتاً آتياً من قرب فأرهف السمع ، وما هى إلا هنيهة حتى أبصر رجلا يقترب لحيته فصاح يقول : من القادم ؟

فأجاب الرجل وهو يقترب فى الظلام : المستر « كندى بندكت » المعالم الروحانى ، من أنت ؟

فصاح الزعيم بصوت الفرح : أسرع إلى أيها الشيخ إننى أكاد أجن .

ووقف الشيخ بعد لحظة وانحنى عليه وهو يتول دهشاً : ماذا تفعل هنا أيها الزعيم ، ما هذه الحبال المشدودة إلى بدنك ؟

ففكر قليلا ثم قال : الأمر بسيط لقد تنكر لى (فيداس) وأوقعنى فى شرك نصبه لى ، أتستطيع أن تفك وثاقى ؟

ـ بلا شك

قال ذلك وجلس يعالج الحبال بيديه وأسنانه ولكن مضت دقائق عدة دون أن يوفق إلى إطلاق سراح جوارحه ، وظهر التعب والاعياء على وجهه الشاحب ، وأخيراً رفع رأسه وقال فى يأس وملال :

ـ ياله من شرير ، من الجائز يامولاى إطلاق سراح يديك بعد عناء ، ولكن من المحال كسر أغلال قدميك فهى من الفولاذ الصلب .

فصاح فى دهشة : أغلال فولاذية ؟

ـ نعم يامولاى .. والآن جئت بناء على طلبكم البارحة ؛ ولقد وقفت ببابكم طويلا ؛ فلما أعيانى وأملنى الانتظار قفزت إلى هنا لأنه يتحتم على إخبارك بطالعك هذه الليلة . . .

ـ هذه الليلة !

ـ نعم يامولاى

ـ ولكنك ترى أن حياتى فى خطر ، والوقت غير مناسب لسماع طالعى ، فهل لك أن تؤجل ؟

فقال فى خشوع : يامولاى ! أؤكد لك أنك فى أمان ، وما أظن الجن إذا عدلت الان عن سرد طالعك يغضون عنا الطرف بعد أن سخرتهم ليلة بطولها .

— إنك على حق ، بدأ الآن وقل كل ماتريد على عجل .

فتربع الشيخ على الحشائش ثم أخرج من جيب معطفه كتاباً متوسط الحجم أخذ يقلب فى صفحاته لحظة وهو يتمتم تمتمة غامضة . وبعد ثلاث دقائق وضع الكتاب على منكبيه وقال :

ـ « الزعيم فيجايا نجل السيدة نارجين شقيقة أمير أمراء البنجاب قتلت أمك وأنت فى سن العشرين ، وكان قاتلها واحد من أتباعك ـ بأمر منك ـ يدعى « بيتو » وفى نفس الليلة تمكن بعض خدمك من قتل خال لك هو « سابا » ثم من اختطاف زوجته وزوجة أخيه ، ثم تمكنت عقب ذلك من إصابة أمير المقاطعة « خالك الأكبر » بحقنة خبيثة سببت له الشلل ، وأصبحت لك السلطة الكبرى والنفوذ الشامل فى الامارة أجمعها فعثت فساداً ورحت تهدد خلق الله الأبرياء بشر البلاء ... كان لخاليك أبناء ثلاثة ياغوس ، جوجر ، نوليات ، أسأت معاملتهم للنهاية فاضطر ياغوس لتصفية تركة والده والرحيل إلى انجلترا ، ووضع أمواله فى البنوك الانجليزية ثم ألحقت به جوجر ليخلو لك الميدان بلا منافس ... أرسلت بيتو بعد أعوام لى لندن فقتل جوجر بإبرة سامة فى قلبه وعدها الأطباء ميتة طبيعية ودفن فى لندن ... شبت الصبية نوليات وعدت فتاة حسناء فعشقتها وهمت بها هياماً بالغاً ... ظهر لك أثناءه مزاحم عنيد من الأمراء الجاورين يدعى جوجايت ، فخشيت أن تفلت الفتاة من يدك فأغريتها بالرحيل إلى لندن لاجبارها على الزواج منك واستصحبت لذلك بعض أتباعك الأشرار ،

تصلت الفتاة فى لندن بابن عمها ياغوس وصاحبين له ، أحدهما « غانم » والثانى «فتحى» ...أحبها فتحى فتقبلت اعترافه بشىء من العطف ولكنها لم تبادله عاطفة الحب ... وقفت إنت على هذا السر فدبرت مكيدة أصابتهم بفجيعة ، فأرسلت (بيتو) إلى محل اجتماعهم فأفلح فى الغدر بغانم وفشل فى البدء فى قتل (ياغوس) الذى كان مقصوداً بالجريمة ... أسرعت الفتاة وصديقها (فتحى) لاستدعاء الشرطة وتركا (ياغوس) فى حراسة شقة (غانم) ، فتسلل (بيتو) فى الظلام وفاجأه بطعنة من إبرة سامة فسقط لساعته ... حمله (بيتو) وصعد به إلى شقته فى الطابق الثانى ووضعه على فراشه ثم كتب ورقة على لسان (ياغوس) يوصى فيها بدفنه فى المقابر الانجليزية ووضعها إلى جانبه وأغلق عليه الباب وأسرع آمناً ... جاء البوليس فى صبيحة اليوم الثانى بناءً على استدعاء بواب المنزل لهم، وبعد الفحص الطبى عدوها الأخرى ميتة طبيعة ودفن (ياغوس) بناءً على طلبه المزور فى المقابر الانجليزية ... شاء القدر أن يخطىء (بيتو) فى اختيار الأبرة التى طعن بها فريسته فكان مفعولها وقتياً غير قاتل وترتب على ذلك أن دفن (ياغوس) فى قبره فى مساء اليوم الذى دفن فيه ... »

وهنا صاح (فيجايا) صيحة الفزع والدهشة فقال :يا إلهى ..أيمكن هذا ؟

فاستطرد الشيخ يقول : ولكنه ارتاع فى القبر روعة أبيض لها شعر رأسه وأخيراً تمكن من الخلاص بعد أن هدم جانباً من جدار مقبرته ، ولاذ بالفرار إلى المدينة . فاستقر تفكيره عند ناحية واحدة هى الانتقام من أعدائه ، فنزل أحياء الأشقياء ليستعين بهم ولم يلبث أن صار فيهم زعيما تحت اسم (مالير) .

فخرجت من فم الزعيم صيحة الارتياع ترن فى أرجاء الحديقة — مالير ! ! !

فأجاب الشيخ وهو يتظاهر بالهدوء : بحق السماء لا تقاطعنى .

فترنح (فيجايا) وهو جالس ، وكاد أن ينكب على وجهة من الهلع فأسنده الشيخ وهو يقول :

— تشجع يامولاى ... تشجع وإلا عدلت عن إتمام كلامى

فقال وهو ينتفض : تكلم يا سيدى إن الشجاعة لابد منها ولاسيما فى هذا الظرف الذى أواجه فيه الموت ، فاستأنف يقول :

نعم تسمى (مالير) وتحت هذا الاسم ابتدأ النضال والكفاح ... سكن منزلا صغيراً فى حى وضيع قرب المجرمين ، وبذلك أمكنه أن يتصل ببيتو وصادقه واتخذه الأخير ساعداً له فى تنفيذ مشروعاته الجهنمية ، ولاسيما جريمة القطار التى انتويتم بها الفتك بابنة خالك شر فتك ، ومن هنا تتابعت الحوادث سراعاً فقد سهل على ياغوس حينئذ إفساد الخطة وإنقاذ الأميرة من الميتة الرهيبة فلما حان وقت الرحيل بها إلى كورنواى رافقكم إلى هناك بعد أن أعد العدة من قبل ، فاستأجر قصراً فخماً فى تلك الناحية المقفرة من أحد علماء الجيولوجيا ، وشاءت الأقدار أن تسوق لمساعدته أحد اتباعك (نصرتا) وصديقاً للشاب (فتحى) يدعى (حامد) متنكراً فى شخصية زامورا الذى انتحر بعد أن افتضح السر ووقف عليه كل من (حامد) و (رمزى) على حدة ، فأما (حامد) فقد عثر على مذكرات زامورا فى الطريق ومنها اهتدى إلى مكان الجريمة .

وشاءت الأقدار أن يلتقى رمزى بزامورا بعد قليل ، ويقف منه على سر الجريمة ، ثم يخدره ويسرع إلى قصرك فيدخله خلسة ويقابل الأميرة ويشجعها ثم يتفق مع (نصرتا) على تخديرها حتى لايدخل عليها الرعب

إذا حانت ساعة الرحيل بها وينصرف مسرعاً إلى كورنواى ليحطم التدبير الجهنمى ويهدمه من أساسه ، وتمت الاستعدادات وتوجهتم بالسيارات إلى موضع الجريمة ومن ثم ابتدأت الموقعة الحامية بينكم وبين (حامد) و (مالير) و (نصرتا) من جهة أخرى ... انتصرتم عليهم بعد كفاح وكان النصر وليد الفزع الذى تولى ثلاثتهم حين أقبل القطار يدوى عن كثب ... أقبل القطار ولم تكن المعركة قدانتهت فتملص (بيتو) وأسرع بالأميرة وألقاها على الشريط وسقط على الأثر مضرجاً بدمائه من رصاصة (مالير) الذى سلبه شدة الموقف وعيه فغشى عليه وبات هلاك الأمير أمراً محققاً ، وهنا نزل (رمزى) الميدان وانتشل الأميرة فى غفلة الجميع وسار بها إلى القصر المنعزل ، قصر (مالير) ، ثم تركها فى القصر دون أن يوقفها على حقيقته وأسرع إلى لندن لاستدعاء الطبيب والأصدقاء ، ولو كان يدرى المسكين أنه فى قصر صديقه القديم (ياغوس) لتغير الموقف ، ولما استطعت أن تناله بما قاده إلى السجن يقضى فيه زهرة حياته ... أفاق (مالير) بعد ساعات فلم يعثر لكم على أثر كما أنكم لم تعثروا عليه إذ جاءت رقدته بين كثبان الرمال ، ثم قام فى حال يرثى لها وتوجه إلى قصره يجر نفسه وهو يبكى وينتحب لمصير قريبته الأسود ، وفى هذه الليلة سمع صوتها فى إحدى الحجرات وعرفها ، وكادت الدهشة تذهب بصوابه ولكنه استعاد رباطة جأشه وعول على إخفاء شخصيته عنها إلى الأبد ، وفى الصباح دخل عليها فى شخصية شيخ وقور اطمأنت إليه وارتاحت إلى معاشرته وجاءت معه إلى لندن حيث عنى بها حتى استعادت صحتها وفتنتها ، وأطلق على نفسه الأب « سيمون » ... لم يكتف (مالير) أو بالأصح (ياغوس) بهذا النصر ، بل عول على أن ينال من الفوز أكبر قسط ، ولذلك راح

يراقب قصرك وأتباعك ويستقصى أخبار صديقه (فتحى) خلسة حتى علم ذات يوم بعزم (فتحى) على الرحيل إلى كورنواى، وبالتحرى وقف على المصدر الذى استقى منه (فتحى) أخبار كورنواى، ولم يكلفه هذا التحرى عناءً كبيراً بعد اهتدائه مصادفة إلى ما حل بعباس و عبد السميع صديقى (فتحى)... راقب (ياغوس) قصركم واستطاع أن يقف على الخطة التى أعتزمتهم تنفيذها للخلاص من (فتحى) فى كورنواى بواسطة (شارلوت) فأسرع إلى منزل (فتحى) وصادف أن رآه فى الطريق فاعترضه متقمصاً شخصية شيخ بائس، واستطاع إن يكون رفيقاً له فى سفرته، ولم يذهبا سويا إلى المحطة فكانت النتيجة أن سافر ياغوس فى القطار الأول دون أن يفطن إلى تعطيل رفيقه، الأمر الذى أدى به إلى ركوب القطار الثانى، ولما نزل (ياغوس) فى محطة كورنواى بحث عنه فلم يجده ولما كان يعرف الخطة المعتزم تنفيذها فى كورنواى لم ير بأساً فى التوجه إلى القصر انتظاراً لقدوم (فتحى) و(شارلوت)، وفى هذا الوقت كان (بيتو) يحوم حول القصر للتجسس ولحظه (ياغوس) خلسة من ثقب النافذة، ورأى ما معه من المفرقعات والديناميت، فأسرع إلى الخارج وكمن له ولكن (بيتو) تمكن من نسف القصر قبل شروع (ماليير) فى مهاجمته وإطلاق الرصاص عليه... هرب (بيتو) بعد مطاردة عنيفة. ولكن (ماليير) الذى كان خبيراً بمسالك هذه الناحية سبقه إلى المنزل الذى كان يسكنه منذ زمن وهناك وجد (فتحى) وشيك الموت من السم الذى تجرعه من يد (شارلوت) فأنقذه من الموت وضمد جروح وجهه التى شوهها السائل الكاوى وراح ينتظر قدوم (بيتو) و (شارلوت) وما هى إلا هنيهة حتى أقبلا سويا ودخلا الغرفة يلهثان من التعب والفزع، وتشاء الظروف

الأليمة أن تفضح سراً جديداً أمام عينيه حين وقف على علاقات أثيمة بين (بيتو) و (شارلوت) ، فكان ذلك داعية إلى تفجر الحمم فى صدره وإسراعه إلى البدء فى انتقامه ... غافلهما وهما فى سكرة ونشوة ومرح ووضع السم فى كأسيهما، فلما قامت (شارلوت) لتجرع كأسها ، نزل السم فى جوفها فأماتها لساعتها ، وكان انتقاماً عادلا، ولم يبق إلا إنزال عقوبته ببيتو عدوه الألد ، ولم يكلفه ذلك عناءآ كثيراً ، إذ مالبث أن تخلص منه برصاصة واحدة أصابته فى مقتل ، بعد أن واجهه بحقيقة أمره ،بذلك انقشع الغمام ولم يبق أمامه فى الميدان غيرك ، فراح يعد العدة لانزال الضربة القاضية ، ورجع بصديقه إلى منزله فى لندن بعد أن أوقفه على الحقيقة وتسمى (فتحى) باسم (ستيوارت) ، وكان لوجهه المشوه أكبر الأثر فى إخفاء معالمه عن الأميرة ، فعاش ثلاثتهم وهى لاتعلم من حقيقتهما شيئاً ؛ ذلك لأنهما رأيا أن فى إخفاءهما لحقيقتهما عنها تنفيساً للكرب وتفريجاً عن النفس لأنهما كانا يحبانها كثيراً ، فأما (فتحى) فقد تبدل عشقه لها إلى حب أخوى حتى لا يخون الصداقة التى بينه وبين (ياغوس) ، وأما (ياغوس) فقد كان يعبدها منذ الصغر ، وكان يمنى نفسه بالزواج منها ، ولكن ظروفه الأليمة ومظاهر الشيخوخة القبيحة حالت دون مصارحتها الحقيقة ، وإباحته لها بحبه لتكون زوجته وشريكة حياته ، وبقى بجانبها مكلوم النفس حزينها يحبس النفس بين جوانحه ناراً متأججة وعواطف ملتهبة ووجداً مبرحاً، وحصر همه هو وصديقه البائس فى تفقد شئونها ،يسهران بجانبها ويتفانيان فى خدمتها وإسعادها ، حتى استعادت ذاهب فتنتها وشبابها الغض ، وصار (ياغوس) لها أباً تناديه بالأب (سيمون) ولم يخطر ببالها قط أن هذا الشيخ الشاحب إن هو إلا ابن عمها الشاب الشجاع الذى

أحبته منذ الصغر ، والذى كان قلبها يهتف باسمه وتحنو إليه ، ولو فرض ووقفت على الحقيقة ما صدقت أنه حى يرزق ، وأنه ذلك الشيخ صاحب الوجه المخيف ،وقد ظلت هذه حالهم حتى استقر الرأى على غزو قصرك فى هذه الليلة ، فتنكرت الفتاة فى زى فتى . . .

وما كاد الشيخ يقف عند كلمته حتى صاح (فيجايا) بصوت مملوء بنبرات الدهشة والذعر :

ـ ياإلهى ... أنت تعرف كل الشىء ؛ ويلاه...أحشائى تتمزق ، أحس بنار حامية تلهب كيانى ، لقد رأيتها وهى التى أوثقتنى يامستر « كندى » ، أريد أن أرى (ياغوس) فأودعه الوداع الأخير ، أسرع تكلم بربك أين هو ؟ إننى أشعر بالروح تفارقنى . . . نهايتى تقترب ... أين هو ؟ خذنى إليه ، أمنيتى الأخيرة أن أراه . . .

قال ذلك وهو يتمايل فى جلسته ذات اليمين وذات الشمال ، وينتفض كالمحموم ، وثبت العالم الروحانى نظره فى وجهه وحدجه بنظرات نارية هائلة ، ثم اقترب منه ببطء وهو يجز على نواجزه ولم يتكلم فمال إليه (الزعيم) وقد دخل عليه الرعب ووقفت دقات قلبه عند ما لمح خنجره يقترب إلى صدره وسمعه يقول :

ـ تريد أن تراه أيها المجرم الظالم الذى لم يرحم صغيراً ولم يعطف على كبير ، تريد أن تراه بعد أن خربت بيته وسلبته عزه وأوديت بحياة أبيه وأمه وتركته شريداً وحيداً ، وخلفت له الحزن الدائم حتى احترق وانطفأ نوره وفنى شبابه ، تريد أن تراه وهو الذى ذاق من صلفك ومكرك ما حطمه وأذبله وقضى على آماله ومطامحه الفسيحة المتشعبة ، ؟

وهنا حاول (فيجايا) أن يتكلم فماتت الكلمات فى حنجرته وارتمى على

الأرض خائراً . فتقدم منه الشيخ وصاح فيه صيحة شديدة :

ـ انظر إلى (ياغوس) فى ساعة ظفره ، انظر إليه قبل أن يستل روحك ، انظر إلى الحق كيف يصرع الباطل ، انظر إلى الظلم كيف يذوب أمام عدل الرحمن وقوته ... . فيجايا مابالك لا تتكلم . . . .

وسادت صمت رهيب ورفع (فيجايا) رأسه فجأة وقال فى صوت مرتعش : عرفتك ، اغفر لى ، اقتلنى الآن كيف شئت .

فصاح بأنفة : حاشا أن ألوث خنجرى بدمك النجس ، فلتتول عدالة القضاء عقابك ، سأتركك حيث أنت حتى آتيك بمن يحملونك إلى غياهب السجون .

فقال (فيجايا) بصوت متهدج وهو يمزق الحشائش بيديه وأسنانه : اقتلنى بيدك يا (ياغوس) ، اقتلنى ولا تطل عذابى . . . قوى تخور ، أحشائى تتمزق ...

غير أن (ياغوس) لم يجب لأن (ستيوارت) برز من بين الأشجار عن كثب ، وصاح يناديه : سيمون . . . أسرع لقد عثرنا على (عباس) و (حامد) وشقيقه ، إننا فى حاجة إلى معونتك . فقد وجدنا فى الغرف الحديدية بعض هنود سجناء من اتباع (فيجايا) . . . أسرع فان المعركة بيننا وبينهم لم تنته بعد .

وما كاد يتم عبارته حتى كان (ياغوس) قد أطلق ساقيه ناحية القصر وهو يصيح :

ـ أسرع يا فتحى . . . . أسرع إننى أخشى أن تكون الأميرة فى خطر

وما هى إلا هنيهة حتى غابا خلف الأشجار ، وأخذ (فيجايا) يرهف السمع وهو ينتفض لا يقوى على الحركة ، وقد خيل إليه من فرط الرعب

أنه قد سمر بالأرض ؛ وبعد لحظة انقشع الغمام وظهر القمر وقد نشر أشعته على الحديقة الفسيحة الصامتة ، ولمح (فيجايا) فجأة شبحاً يظهر من بين الأغصان ويقترب وهو يلتفت حذراً فتأمله قليلا ثم صاح بصوت مرتعش :

ـ أقبل . أقبل .

فسمع الصوت يقول :من أنت ؟ . . . لاتتحرك وإلا انطلق مسدسى

ـ لاتخف . . . إننى (فيجايا) . . . إياك أن تطلق النار .

وتوارى الشبح فجأة واختفى عن النظر، ولبث (فيجايا) فى حيرة من أمره إلى أن سمع صوتا وراءه، وفى أسرع من لمح البصر انتصب أمامه رجل ما إن رآه حتى فغر فاه وصاح مذعورا :

رباه . . . .

ولم يتم عبارته فقد عقد الرعب لسانه وظهر على وجهه المريض ملامح الذعر والارتياع، أما الرجل فقد أمسك بخنجره ورفعه إلى أعلى، ثم أهوى به فأغمده فى صدره وهو يقول وعينه تسطع بأشعة الشرر وبريق الانتقام.

ـ إلى الجحيم أيتها الأفعى .

قال ذلك ثم أخذ يرمق جثته وهى ترتعش ارتعاشها الأخير ، وبعد قليل مضى إلى سبيله يخطر فى أسماله البالية ويعرج فى مشيته ، والتفت إلى الجثة يلقى عليها نظرته الأخيرة فوضح وجهه الشاحب النحيل على ضوء القمر ، وكانت له عين واحدة ، أما الأخرى فقد أتلفها شق غائر يمتد إلى أعلى الجبهة وجالت العين فى أنحاء الحديقة واستقرت على الجثة المخضبة بالدماء ، واستمرت ترمقها بنظرات حافلة بنور الشر، وارتسمت ابتسامة التشفى على ثغر ذابل الشفاه ، واختفى الشبح وراء الأشجار واختفى باختفائه المنتقم المجهول الذى تلذذ وسعد بانتقامه .

الفصل الثانى عشر

الشـــــهيد

فتح السجان باب الغرفة وقال بلهجة حافلة بالتأثر وقال :

— إننى جد مغتبط بانقضاء أيام بؤسك وساعات نحسك ، وإن آسف فلا آسف إلا على فراق رجل عاشرنا خمس سنوات كان فيهـا مثال الدعة وحميد الخصال .. أهنئك ياعزيزى برجوعك إلى الحرية ...

قال ذلك ثم تقدم نحو السجين بعد أن أغلق عليهما الباب وأخذ كرسياً إلى جانب سريره .

وتحركت الشفتان الذابلتان وتمتم السجين يقول :

ـ أشكرك يامستر باتريك ، إنك لاتدرى وقع كلماتك الطيبة فى نفسى، كم الساعة الآن ؟

فقال : نحن الآن فى تمام الثالثة بعد نصف الليل ؛ وسيطلق سراحك فى التاسعة صباحاً .

ومضت بضع ثوان قبل أن يسأله السجان

ـ ألك أقارب هنا ؟

فانحدرت الدموع على وجنتيه الغائرتين، ولم يشأ أن يكفكفهما ثم هز رأسه وقال بصوت حزين :

ـ لم يبق لى أحد فى هذه الدنيا بعد أن تبرأ منى والدى وأهلى لغير ما سبب . . . أظنك قد أطلعتنى على هذا الخبر منـذ أربع سنوات ونصف سنة .

فأجابه بصوت خافت : نعم وأذكر أن والدك ذكر فى الجرائد أنه يتبرأ منك بناء على ما وصل إليه من المعلومات عن حادثة التصادم ، فقـد اتهموك بأنك كنت فى أثناء قيادة السيارة فى حالة مرح مع فتاة حسناء، لاتحزن فانى وأهلى فى خدمتك .

فبدت على وجهه علامات الأنفة وعزة النفس وقال :

ـ إننى مازلت قادراً على العمل وسوف أجد لنفسى عملا عن قريب ، لاأحب أن أعيش عالة على غيرى ياباتريك ... اعذرنى .

وكان السجان ينظر إليه وهو جالس على حافة سريره الحديدى فى حالة تبعث أقسى القلوب على الاشفاق والرحمة . كان الشاب ممدداً على سريره أصفر الوجه نحيل الجسم بارز عظام الخدين ، وقد جحظت عيناه وصعب تنفسه وهو ما يزال فى ريعان شبابه، وشعر السجان بأن قلبه يذوب لأجل هذا الشاب المسكين الذى أنكرت عليـه الحياة كل شىء ، وحاربته الأقدار محاربة قاسية ،فوضع يده على كتفه وربت عليها مواسياً،فالتفت إليه الشاب وقال :

ـ لاتخش على .

فسأله بحنان : ألا تنوى النوم ؟

ـ كلا ، أود أن تمكث معى حتى الصباح .

وصمت السجان برهة ثم قال : إذا خرجت فى الصـباح ولم تجد عملا

فلا بد أن ترجع إلى لأننى الرجل الوحيد الذى يود أن يقدم لك كل خدمة فى سبيل الاستمتاع بك وبأحاديثك .

فأجابه الشاب وقد ضعف صوته من التأثر والحزن :

ـ أشكرك على نبيل شعورك يا باتريك ، لم أحزن يا باتريك إلا على شيئين وهما أننى سأحرم منك بعد أن خدمتنى وعنيت بى فى أيام محنتى وكنت أحن على من أب شفيق ، والأمر الثانى أننى أعود إلى الحياة فلا أجد (فيجايا) لأقتص منه وأشفى غليلى .

ـ حقاً ولكن مادام الرجل قد قتل من يد منتقم مجهول كما أخبرتك منذ أعوام، فليس هناك مايدعو إلى حزنك وأسفك .

وطلع الصباح باهتاً شاحباً ، ووقف السجان يودع الشاب العليل على عتبة السجن ويقول :

ـ إننى فى انتظار رجوعك إلى منزلى ؛ ومن العار أن تأوى إلى غيرى .

ولم يجب الشاب لأن التأثر بلغ منه مبلغاً عظيما ، وقال السجان والأسى يقطع أحشاءه :

ـ لا تنهك قواك فأنت أحوج الناس إلى الراحة ، اذكرنى دائماً ، أذكر أنك ستعيش فى منزلى سعيداً ، إلى اللقاء يا . . .

ولم يقدر على إتمام كلامه لأن العبرات خنقته . فحول وجهه وأخذ يكفكف دمعه ، بينما ابتعد الآخر وتوارى عن الأنظار .

سار (رمزى) وهو يشعر بالأرض تدور به دوراناً مزعجاً من شدة الضعف بعد ما قضى خمس سنوات فى السـ ـن ، ذاق فيها من العذاب والآلام ما هد قواه ذهب بنضارة شبابه ، وهو لم يزل بعد فى الخامسة

والعشرين من عمره إلى هزال لم يبق من جسمه غير عظم وجلد .

ظل سائراً إلى غير وجهة وهو يشعر بحمى تلهب رأسه وتحرق كيانه ، حتى دخل زقاقاً ضيقاً ، وما كاد يتوسطه حتى شعر برأسه تنبض من شدة الألم ، بينما دارت عيناه الزائغتان فى محجريهما فوقف يجاهد فى امتلاك زمام أعصابه ، ولكن بدنه الهزيل وقواه الخائرة لم تتحمل أكثر مما لاقت وأدت ، فسقط تحت جدران أحد المنازل مغشياً عليه من فرط الكلال والاعياء .

قام فى المساء وكان الميل قد أرخى ستائره ، فنفض ما علق بثيابه البالية من الأتربة وأخذ يهيم على وجهه فى الشوارع كاسف البال حزين النفس يفكر فيما آلت اليه حاله بعد عز ومجد ، وكان الجوع يقرص معدته كلما طارت الى أنفه رائحة الأطعمة من نوافذ الفنادق والمنازل ، فقد مضى عليه زهاء تسع ساعات ولم يتذوق مايسد به رمقه ، وكانت أصوات الملاعق فى الفنادق الكبرى ترن فى أذنيه فتمزق أحشاءه وتزيد فى ضرام النار المشتعلة فى معدته ، وظل يتنقل من مكان الى آخر وهو يتطلع الى الحوانيت بعينين زائغتين يتجسم فى نظراتهما مايلهب أحشاءه من حمى الجوع حتى كلت قدماه وكادتا أن تعجزا عن حمله ، فاقترب من باب أحد المطاعم ، وقد عزم على استدرار سخاء بعض الآكلين لأنه أيقن بأنه لابد هالك والجوع كافر لايرق ولايرحم ، ولكنه ما كاد يضع قدميه على عتبة الباب حتى تراجع الى الوراء مذعوراً ، ووقف فى هذه اللحظة رجل وخطا نحو الباب بخطوات سريعة وكانت تلوح عليه إمارات الشر والاجرام ، ولكنه ما كاد يخطو الى الخارج حتى وثب رمزى واعترضه فى الطريق وقد تبدل شعوره وتجهم وجهه ، وقال بصوت خافت حافل بنبرات التهديد :

ـ يحسن بك أن تنتظر قليلا يا (فيداس) ، فأنت تعرفنى ولا شك ـ

فذعر الرجل لهذه المباغتة وما كاد يتأمل سحنته حتى صاح بفزع :

ـ رمزى ! !

فأجاب الشاب بهدوء : نعم وأحب أن أحادثك قليلا

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع من التأثر : إن وجهك تعلوه صفرة الموت ، إننى فى خدمتك فماذا تريد ؟

فظهرت على وجه الشاب علامات الكبرياء وقال : إنك تعلم أننى برىء وليس هنا مجال البحث فى هذا الموضوع . فقد ألقى نحبى بعد دقائق ، ويهمنى قبل كل شىء أن أقف على بعض أخبار الأميرة وأصدقائها وأرى أن تسرع قبل أن أقضى . . . هيا تكلم

ولم تكد هذه الكلمات تطرق أذنى الرجل حتى شعر بألم شديد كاد يصرعه لو لم يستند على جدار الفندق . فقال له الشاب العليل بصوت هادىء : أرى أنك تتألم يا فيداس ، لقد آلمتك لحظة ، أما أنا فقد تألمت خمس سنوات تجرعت فيها من العذاب ما لا يستطاع تحمله ، لقد ضاع كل ما أملكه من حطام الدنيا وكل ما كنت أرجوه فى الحياة ، أليس فى ذلك ما يملأ القلب حسرة ولوعة ؟

فاصفر وجه (فيداس) حتى صار كوجه الأموات ، وشعر بالحزن يقطع أحشاءه على مصير هذا الفتى البائس الذى فقد كل شىء بسبب مكرهم وغدرهم ، ووضع يده على كتفه وقال بصوت يرتعد من التأثر :

ـ سامحنى يا بنى ، سامحنى فإنك لا تدرى ما عانيت طوال هذه السنين ، من مجرد التفكير فيك وفى أصدقائك ، ولكنى أحمد الله أننى أستطيع أن أكفر عن سيئاتى الآن . إن لدى أسراراً جليلة الشأن ويهمنى قبل كل شىء أن أعنى بحالتك .

وسرت فى هذه اللحظة سيارة فخمة فنادها (فيداس) وطلب من الشاب الركوب ، بينما أسرع هو إلى المطبخ فأحضر صندوقاً مملوءاً بالأطعمة وضعه بجانبه ثم أسر إلى السائق بعنوان المنزل .

وأخبره فى الطريق بالقصة أجمعها ، فذكر حوادث القصر المنعزل وفضح شخصية (ماير) وكيفية هرب (ياغوس) من القبر وتقمصه لشخصيات عدة ورجوعه بها من القصر فى كورنواى فى لندن وعيشه معها متكراً فى شخصية الأب سيمون ، ثم عمله بعد ذلك على الانتقام من (فيجايا) ومقتل (بيتو) و (شارلوت) وإنقاذ (فتحى) من السم وتشوه وجهه ورجوعه به إلى المنزل الذى يقيم فيه مع الأميرة وتنكر (فتحى) بعد تشوه وجهه تحت اسم (ستيوارت) ثم مهاجمتهم قصر (فيجايا) وإنقاذ أصدقائهم من الأسر ثم مقتل (فيجايا) بيد مجهولة فى الحديقة وعدم الاهتداء الى القاتل ، وذكر بعد ذلك حادثة (غانم) وفراره فى الليلة التى أتوا فيها لغزو القصر وعدم العثور على أثر له ، ثم سفر الأميرة وحاشيتها إلى الهند وتتويجها أميرة على المقاطعة ، ثم زواجها من الأب سيمون لأنها لم تشأ الزواج بشاب حزناً على (ياغوس) و (غانم) و (فتحى) ولم تزل تبكيهم وتندبهم ليل نهار ، إلا أنها رأت فى (عباس) و (حامد) و (عبد السميع) عزاءاً لها وسلوى ، وإلى هذه اللحظة لم يقف واحد منهم على حقيقة (سيمون) ونجله (ستيوارت) ، فقد صما على الصمت إلى الأبد .

وقفت السيارة بعد قليل أمام منزل صغير فى شارع ضيق مظلم فنزلا ، وفتح الباب خادم شاحب الوجه بادى الاضطراب ، فصاح فيه (فيداس) :

ـ لقد قلت لك أكثر من مرة ألا تلقانى بهذه الحال المضطربة .

ولكن الخادم قاطعه قائلا :

ـ آسف ياسيدى ، فإن فى الداخل رجل دميم يود مقابلتك

فصاح (فيداس) غضباً ـ هكذا قدر على أن يعكر صفوى كلما . . .

ولم يتم كلامه إذ حذره الخادم قائلا :

ـ صه ياسيدى إنه فى الحجرة المجاورة

فدخل فيداس وتبعه (رمزى) وقد ثارت مخاوفه وشكوكه ، وقاده فيداس إلى إحدى الغرف ليخلع فيها أسماله البالية ، ثم استأذن منه ليرى الزائر .

ارتدى (رمزى) ثيابا أنيقة وارتمى على مقعد يفكر فى أمره ، وذهبت ذاكرته تعرض أمام عينيه صور الماضى وذكرياته الأليمة ثم أخذ يدرس قصة (فيداس) ومبلغ صحتها ، وتعمق فى تفكيره حتى نسى نفسه ومرت اللحظات وتنبه فجأة على صوت جلبة فى البهو ، وماهى إلا هنيهة حتى طرق أذنيه صوت استغاثة وزمجرة وصدام فوقف شعر رأسه وازداد اصفرار وجهه ، وكاد يسقط أرضاً لكنه تمالك نفسه ووقف وسط الحجرة لايدرى ماذا يفعل ، وقد عقل الخوف لسانه وضعفت نفسه . سكتت الأصوات بغتة وخيم على المنزل صمت رهيب وطرق أذنيه بعد لحظة صوت ضعيف أشبه شىء بجر جسم على الأرض فكاد يجن من الفزع والرعب ، وهم بالتقدم نحو الباب ليستطلع الخبر ولكنه مالبث أن تراجع الى الوراء مذعوراً ووضع يده على رأسه وصاح بصوت خرج من أعماق نفسه :

ويلك ! من أنت ؟

ولم يقو على الوقوف فسقط على الأرض وهو يحملق بعينين زائغتين ناحية القاتل ، واقترب الرجل الملوث بالدماء ببطء ، فظهر وجهه على ضوء

لمصباح شديد الاصفرار عليه دلائل العزم والمراس ، بينما كانت عينه اليمنى تضيء بأشعة الشر ،أما الأخرى فقد أتلفها شق غائر يمتد الى أعلى الجبهة . وما كاد يدنو منه حتى صاح الشاب بارتياع : اقتلنى . . . أسرع ولاتخيفنى بهذه الخلقة المرعبة، وسقط مغشياً عليه فانحنى عليه وأخذ يرمقه مايا وخنجره يدنو من صدره رويداً ، ولكنه ما كاد يتحقق شكله حتى تراجع الى الوراء : وهو يصيح كالمذهول : يا إلهى ! ومن جاء به الى هنا ؟

وحانت منه التفاتة فرأى ثياب السجن على أحد الكراسى فأمسك بها يقلبها بين يديه ثم نظر إلى وجه الشاب ووجنتيه الغائرتين وعظام وجهه البارزة ، فراح يقول فى نفسه والعبرات تلهب وجنتيه :

ـ ماذنب هذا الشاب المسكين يعامله الدهر هذه المعاملة الجائرة ؟ لقد أنقذها من الموت ملبياً داعى الانسانية فماذا كان جزاؤه ؟ كان جزاؤه أن زج به فى غياهب السجون فتحطمت آماله كما تحطمت آمالى من قبل ، ولا يبعد أن يلقى حتفه بعد قليل ، لقد انتهى أمرى وحققت كل ماكنت أرجوه . وازداد امتقاع وجهه من الذكرى الأليمة وقد جحظت عيناه وسعل سعالا حادا ،فأخذ يدور فى الغرفة يقول فى نفسه : إذا لطف الله به وأنقذه من الموت أكون قد حققت أمنيتى الأخيرة فى الحياة

وأبصر مرآة معلقة بالحائط فتطلع الى وجهه فيها فرآه شديد الاصفرار كوجوه ،الموتى وأبصر عينه السليمة وقد أحاطت بها هالة زرقاء بينما كانت عينه المفقودة وشقها الغائر يزيدان فى دمامته وقبحه فقال فى نفسه : لم أعد أصلح للحياة ، ولن تطول حياتى بعد من هذه الليلة

قال ذلك ووقف أمام جثة الشاب يبكى ويقول :

ـ لاتخش شيئاً ياصديقى القديم فإنك بخير وستعود إليك نضارة شبابك

يوما ما وستهنأ بأطايب الحياة وتعود الى سيرتك الأولى .

قال ذلك وخرج من الغرفة إلى حيث جثتى (فيـداس) وخادمه فسحبها إلى المطبخ وأغلق دونهما الباب ، ثم خرج من المنزل وسار فى الشارع قليلا حتى وصل إلى سيارة مختبئة فقادها وعاد ثانية إلى المنزل ، ثم حمل جثة الشاب ووضعها على المقعد الخلفى وانطلق بها فى جوف الليل .

وبعد نصف ساعة وقفت السيارة أمام فندق فاخر للنوم ، وأسرع الخدم ، ففتحوا باب السيارة الأمامى فنزل الرجل فى إعياء ، وانحنى الخدم احتراما وتقدم كبيرهم وقال فى أدب :

ـ لقد أقلق غيابك البارحة البرنسيس ياسيد (فينج) ، وصعد زوجها إلى طابقك الخاص ليستفسر عن صحتك فلم يجدك ، وربما كنا نحن معشر الخدم أكثر النازلين بالفندق اهتماما بصحتك وراحتك ، أليست حالتك أحسن الآن ؟

فابتسم الرجل رغم أنه كان يشعر بألم يفترس قلبه افتراساً ، وقال :

ـ أشكركم .... هل حضرت البرنسيس من السجن ؟ هل قابلت السجين ؟

ـ كلا ياسيدى . . . صه . . . هاهى ذى سيارتها تقترب

وسمعت جلبة وصفير الكونستبلات فى الشارع ، واصطف الخدم لأداء التحية ، وبعد لحظة كانت السيارة أمام الباب تشع بأنوارها البراقة وألوانها الزاهية ، وأسرع الخدم إلى الباب ففتحوه وانحنوا إجلالا ، بينما أسرع رجال البوليس فعملوا نطاقا ليحولوا دون دنو الجماهير المعجبين من الأميرة ، وماهى إلا هنيهة حتى ظهرت الأميرة على سلم السيارة فى قوامها الفاتن وثيابها الفاخرة ، وظهر بجانبها زوجها الشيخ السعيد ونجله البائس والأصدقاء

الثلاثة فصاح الناس على الافريز : تحيا الأميرة ... تحيا الأميرة
وتعالى الهتاف والتصفيق وارتفعت الأذرع ملوحة بمناديلها فى الهواء .

وبينما هى تأخذ طريقها إلى باب الفندق إذ لاحت منها التفاتة فرأت المستر (فينج) الرجل المريض الفانى، فهرولت إليه وفى إثرها حاشيتها ثم حيته قائلة :

ـ أين كنت يامستر (فينج) ؟لقد أقلقنا غيابك كثيراً ، وكم كنت أود أن ترافقنا فى هذه المهمة ، إننى أرى حالتك الصحية قد ساءت كثيراً . ماذا حدث ؟

ومضت فترة صمت كان (فينج) يتطلع خلالها إلى وجها الجميل بعينين داميتين ظهر فيهما بؤسه وشقاؤه ، وأخيراً قال بصوت مخنوق : أشكرك يامولاتى على هذا العطف الذى تغمرينني به فى ساعات شدتى ومرضى المميت ؛ لقد كنت أشعر بآلام هائلة منذ لحظات ؛ولكن كلماتك هذه أزاحت عنى هذا كله .

ولاحظت الأميرة أن وجه الرجل تعلوه صفرة شديدة ، وأن عينيه وفمه قد أحاطتهما دوائر زرقاء ،فهزتها الشفقة على هذا المريض المسكين وقالت :

ـ هل تسمح يامستر (فينج) أن نأخذك إلى طابقنا للعناية بك ، فان حالتك على ما أرى فى حاجة إلى مثل هذه العناية ؟

وتقدم فى هذه الآونة زوجها الشيخ ووضع يده على كتف المريض وقال : كم مرة أحجت عليك باخلاء طابقك والسكنى معنا يا (فينج)فأبيت إلا أن تبقى فى عزلتك المضجرة المملة ، وأنت أحوج الناس إلى راحة الفكر وراحة البدن .

فتمتم يقول بصوت يرتعد من التأثر : أكرر لك شكرى يامستر(سيمون)

ولتعرف أن ليس هناك من أمل مطلقاً ، فقد أخبرنى الطبيب أنى سوف ألقى ربى بعد أيام قلائل .

فجزعت الأميرة لهذا النبأ ، وبان الألم على وجهها الجميل ، ووقفت تنظر إليه وهو يجاهد فى الوقوف وامتلاك زمام قواه ، وإذ ذاك قررت مايجب أن تفعله فقالت :

ـ من الاجرام أن تتركك وحدك هذه الليلة ، يجب أن ترضخ لمشيئتنا يامستر (فينج) ، فان حالتك لاتبشر بخير ، وأنا أرجو أن تجد بعض الراحة بجوارنا ... هيا معنا .

فقال وفى عينيه دمعة تترقرق ـ : أمنيتى الوحيدة يامولاتى أن أموت وسطكم ، ولكن هل أستطيع أن أصعد إلى طابقى لأداء مأمورية قد لا تستغرق أكثر من نصف ساعة ، ثم أعود إليكم لأسعد بجواركم ؟ فأجابت : حسنا ... إننا فى انتظارك .

وصعدت وفى إثرها عدد كبير من الأنصار والأصدقاء والحراس ، بينما وقف المريض يختلس إليها نظرات دامعة حتى غابت ، فأسرع إلى سيارته وطلب من رئيس الخدم مساعدته فى حمل (شقيقه) المغمى عليه إلى طابقه الخاص بالفندق .

وبعد دقائق كان جالساً الى مكتبه فى غرفة فخمة من طابقه الذى يعلو طابق الأميرة أمام جثة (رمزى) على فراشه ، وتناول القلم بيد مرتجفة وراح يكتب وهو يبكى وينشج :

« عزيزى رمزى !

« قلبى المعذب وفؤادى الكليم يدفعاننى الآن إلى كتابة هذه الرسالة إليك على عجل ، لتقف منها على ماخفى من الأسرار ، وترى فيها رأيك ،

وأحسب أن الأوان قد آن لأخرج من صمتى الطويل الذى تعمدته لتحقيق مطامحى الكثيرة المتشعبة . . .

« لاشك فى أنك تذكر جيداً صديقك (غانم) الذى كان زميلا لك فى جامعة مصر ، ثم زميلا لصديقك (فتحى) فى جامعة لندن .. أنت تعلم ذلك وتعلم النكبات والمآسى التى تواردت علينا فمات من مات، واختطف من قدر له أن يحيا شقيا، وسجن من كتب له أن يخرج إلى الحياة صفر اليدين من مركزه وعلمه وكرامته، إنى أكتب هذه الكلمات وعيناى تذرفان الدمع السخين لأننى أعرف الحال والمصير، ولكن لاتحزن ولاتبك كثيراً فقد تركت لك الحياة طيبة خالية من الهموم والآلام والأعداء ، سألقى نحبى عاجلا ولكنى اموت سعيداً هانئاً مرتاح النفس والضمير بعد أن انتقمت لنفسى ولكم من أعدائنا الذين نكبونا وأفسدوا علينا حياتنا وحطموا أمانينا وشبابنا... سيخيل إليك أنه لايوجد فى العالم كله من هو أشقى منك، لأنك فقدت شرفك وعلمك وعزك، ولكنك حين تقرأ هذه الرسالة إلى نهايتها تنقلب وجهة نظرك فى الحياة وتشعر بلذة السعادة التى تنكرت لك طويلا . . .

« فى الليلة الغبراء من العام الماضى التى شاء فيها (فيجايا) أن ينزل بنا ضربته القاتلة كنت فى غرفتى فى انتظار عودة الأميرة و (ياغوس) و (فتحى) من شقة (ياغوس) على أثر رؤية الأخير لبيتو فى شقته يعبث بأوراقه ، كان لهذا الخبر أشد وقع على نفسى لما كنت أسمعه عن هذا الهندى من الشر وحب الاجرام، ولكنى لم أستطع اللحاق بأصدقائى إلى الشقة العليا ففضلت الانتظار فى غرفتى استعداداً للطوارىء ولم تمض لحظات قلائل حتى سمعت حركة غير عادية بالغرفة، وسرعان ما انتصب أمامى (بيتو) و(فيداس) فى صورة مرعبة ، ثم انقضا على فصرعانى بعد مقاومة سالت فيها

دمائى من أكثر من جرح ، وانتهى الأمر بانزالى بواسطة حبال رفيعة إلى الأرض من النافذة ،ومن هناك حملونى فى سيارة مقفلة إلى قصر (فيجايا) حيث أفردت لى حجرة حديديّة فى بهو مظلم تحت الأرض،وهناك أخذوا يديرون على من صنوف التعذيب ما صيرنى بعد أيام حطاماً ، وقد كنت أعتقد بأن منعى من الطعام أياماً هو آخر ما يمكن أن يذهب إليه (فيجايا) فى تعذيبى وإيلامى،غير أن الحقيقة تكشفت عما هو أشد هولا، إذ ما لبثت أن رأيت عزتى تهوى إلى مواطىء النعال،بل إلى أسفل وهاد الذل والمهانة، فقد صدرت الأوامر إلى (بيتو) بجلدى ثلاث مرات فى كل يوم ، فكان يأتى فى الميعاد وينهال على جسدى العارى الموثق بسوطه فى وحشية هى منتهى ما يمكن أن يصل إليه إنسان فقد أشرف مواهبه العقلية ، وناهيك عن مبرح الألم الذى تذوقته تحت وقع ضرباته الجارحة . وأقسم لو أنهم فكوا وثاقى وقتذاك ما ترددت فى تقبيل قدميه خلاصاً من نيران لا يحتمل لظاها بشر . كنت أغيب عن رشدى من شدة الألم وفظاعة المشهد،فكانوا يفيقوننى ببعض العقاقير،ثم ينهال بيتو على ثانياً ليكمل العدد المطلوب منه، وقد جف ماء العين بتوالى أيام العذاب فجفت العين وتحجرت، وتمزق الجسد وتناثر الجلد وذهبت من البدن حساسيته فصار جماداً لا يؤثر فيه الايلام مهما اشتد الضاربون صرامة وعنتاً ، وخمدت الحياة إلا من أنفاس ضراعة كنت أرددها طالباً الموت إشفاقا من أوجاع بلغت فى شدتها المنتهى . وأخيراً نفذ الشيطان إلى يغرينى بالانتحار،ولكن مع كل هذا البلاء.فقد كان ضميرى وقلبى ومشاعرى فى نجوة من اليأس من رحمة الله الواسعة، وكنت أرى ـ رغم اغبرار الجو المحيط بى وسواده ـ بصيصاً من نور الله يوحى إلى بعينه الساهرة .ولعمرى ما زاد فى عنادى إلا إيمانى بقوة الله وعدله رغم

صرامة المعتدين وطول ايام شقائى بينهم ، ورغم أنى أصبت من يد (بيتو) بضربة أفقدتنى عينى ، وأخرى هشمت ذراعى ، حتى صرت كومة بشرية محطمة.

«حانت الفرصة لخلاصى بعد شهور طويلة مرة ؛ وذلك أننى تمكنت من ثقب الجدار بآلة حديدية من آلات التعذيب تركوها سهواً بجانبى ، ثم تسللت إلى القصر أزحف على بدنى من شدة الضعف زحفاً ، وغافلت الخادم الحارس وسحبت خنجره ثم طعنته به فى قلبه فخر مضرجاً بدمائه ... ما ألذ الانتقام !!! فى هذه اللحظة شعرت بنفسى الطاهرة تستحيل إلى شريرة مرادها القتل وسعادتها فى سفك الدماء ... قفزت من النافذة إلى الحديقة وسرعان ما رآنى (فيداس) فجد فى إثرى وسمعت ضجة كبرى ورائى ، ومع ذلك فقد شعرت بقوة غريبة تدب فى جسدى عندما استنشقت نسيم الحرية ، وتمكنت بعد قليل من تضليل المجرم ، واختبأت خلف شجرة كثيفة الأغصان ... كان الظلام حالكا فتهالكت على الحشائش استعيد قواى ، ولبثت فى حيرة من أمرى إلى أن سمعت صوتاً خافتاً يشبه الهمس فنهضت فزعا واختلست النظر هنا وهناك ، حتى أبصرت جثة على الحشائش تتحرك فاقتربت منها على حذر ، وما كان أشد دهشتى حينما رأيت (فيجايا) موثقا بالحبال يستغيث ويتألم فلم أتمهل لأتبين الموقف . . . لقد شعرت بالحمم تتفجر فى صدرى وغلا الدم فى مرجلى ، ولم أشعر إلا وأنا أنقض عليه أغمد خنجرى فى صدره فى جنون ، ولم أتركه إلا وهو جثة هامدة تسبح فى بركة من دمائها النجسة . لم أقنع بذلك كله إذ ما لبثت أن تسللت إلى قصره فراعنى بعثرة أثاثه فى حالة تدل على عبث بعض العابثين به وبمحتوياته ، ولم أجد واحداً من أتباع الشقى ، فقد كان القصر خالياً من كل حركة ، فاغتنمت الفرصة ورحت أبحث فى أوراق (فيجايا) وخزائنه حتى اهتديت بعد مجهود إلى

مذكرات الشقى، ومنها وقفت على كل ما كان يجرى فى الخارج وقت أن كنت أسيره ، علمت بميتة (ياغوس) وحوادث الأميرة توليات وأصدقاء (فتحى) حتى حادثة القطار فى كورنواى وإنقاذك إياها، ثم حادثة التصادم التى قادوك بعدها إلى السجن ، ونسف (بيتو) القصر المنعزل بعد أن أعيتهم الحيل فى الاهتداء إلى الأميرة ، ثم اختفاء (بيتو) وزوجة لفيجايا تدعى (شارلوت) ، واختفاء (فتحى) فى كورنواى ، وقلق (فيجايا) وفزعه بعد ثورة خدمه عليه .

« هذا ماقرأته فى مذكرات (فيجايا) ، معولت للحال على بذل كل مجهود لمعرفة ما تم لفتحى ومصير الأميرة فى القصر المنعزل ، وكان طبيعياً أن أمد يدى إلى أموال (فيجايا) فأغترف منها مايزيد على ثلاثمائة ألف جنيه لأستعين بها على معالجة نفسى ومواصلة أبحاثى . سافرت إلى كورنواى بعد أيام ولكنى لم أصل إلى نتيجة تذكر فرجعت إلى لندن أواصل أبحاثى فيها، وفى هذا الوقت تدهورت صحتى تدهوراً أدى بى إلى دخولى إحدى المستشفيات لاستعادة بعض قواى وعافيتى ، فلم يغنى الدواء ، وأشير على بالسفر إلى بلاد حارة فاغتنمتها فرصة وشددت الرحال إلى الهند عساى أقف على بعض أخبار الأميرة وحاشيتها. ولما وصلت إلى الهند فوجئت بأخبار لم تخطر لى على بال ، فقد علمت بوجود الأميرة فى إمارتها ، ثم وقفت على أن الذين أنقذوها وعنوا بها إلى أن جاءوا بها إلى موطن عزها رجلان: شيخ يدعى (سيمون) ونجل له يدعى (ستيوارت) ، وقد أبقتهما معها اعترافاً بجميلهما ، وكذلك علمت بوجود كل من (عباس) و(حامد) و (عبد السميع) فى الامارة ، يتقلدون فيها أسمى المناصب ، وهؤلاء قرأت عنهم فى مذكرات (فيجايا).

« وعند ذلك أدركت أن مأموريتى قد انتهت ولم يبق لى إلا أن ألحق

بـ(ياغوس) و(فتحى)، وقد كان من المحال أن أذهب إليها وهى على أريكة عزها، فأطلعها على حقيقة أمرى رغم يقينى بطهارتها وطيبة نفسها، فقد كانت هناك عاطفة مدفونة فى طيات صدرى، عاطفة متأججة ملتهبة تحرم على مصارحتها الحقيقة المؤلمة، وتحت تأثير هذه العاطفة رجعت أدراجى ولكن إلى أين؟ . . . إلى الشرق، إلى معارك الصين الدموية عساى ألقى نحبى شهيداً لا كافراً ولا جاحداً، فسافرت إلى الصين خالى الوفاض، فقد تركت جل أموالى فى البنوك الانجليزية بلندن، وكانت الحروب الأهلية فى الصين على أشدها، فنزلت الميدان ضمن المتطوعين ورأيت أهوالا وشدائد كنت أبتسم لها عسى أن يكون الموت فى طياتها، ولكنى مع هذا لم أمت وشاءت الظروف القاسية أن أقع أسيراً ويحكم على بالسجن أربع سنوات مع الأشغال.

« خرجت من السجن منذ شهور قلائل هائماً أبحث عن الموت فاذا الموت يعز على عن المنال، وأخيراً تذكرتك فأسرعت إلى هنا أنتظر يوم خروجك، وقضيت عشرة أيام أجول شوارع لندن ليل نهار تزجية للوقت وملل الانتظار؛ وفى ليلة مارأيت (فيداس) فى الترام فاهتاجت أعصابى وأسرعت على الفور، فتبعته حتى باب منزله، ورحت أعد العدة للانتقام منه، ولكن حظه الحسن ساعده على الافلات مرات عدة من المكائد التى نصبتها له، وانتهى الأمر بسفره إلى باريس لمهمة خاصة فأجلت كل شىء لحين رجوعه؛ لاسيما وقد كان هناك ما هو أهم منه، إذ علمت بحضور الأميرة وحاشيتها إلى لندن، واهتديت إلى الفندق الذى تنزل فيه مع حاشيتها فأخذت أتردد على طابقها الخاص عساى أسمع صوتها الحنون أو أرى وجهها المشرق فلم أفز، فاتصلت بالحراس الحافين بها، ونشأت بينى وبينهم صداقة متينة، فعلمت منهم أمر

خواجها من الشيخ (سيمون) وفاءً لأصدقائها القدماء ، كما علمت أنها لم تحضر إلا استقبالك يوم خروجك من سجنك اعترافاً بصنيعك ويدك البيضاء عليها ، ومن ثم صمت بقدر ما أستطيع ، وقد شعرت بالنار تلهب كيانى من تأثير هذا النبأ الهائل الذى انقض على كالصاعقة ، ورحت أفكر فى الأمر ملياً . فوجدت أن خير ما أفعل هو أن أستأجر الطابق الذى يعلو طابقها ، فقد يؤدى ذلك إلى نشوء صداقة بينى وبينها ، وفى ذلك سلوى وفيه عزاء جميل . ونجحت وفزت بما كنت أبتغى ، وصرت ألقب بينهم بالمستر (فينج) ، وصاروا يعطفون على أشد العطف ويترددون على طابقى للاستفسار عن صحتى فطبت نفساً وقررت حيناً ، وقنعت بهذا القسط من الحنان .

« أعترف بينى وبينك أننى كنت أحبها إلى حد الوله والجنون ، ولقد وقع فى مها ثلاثتنا منذ النظرة الأولى ، فأما (ياغوس) فقد كان يهيم بها ويعبدها عبادة ويمنى نفسه بالزواج منها ، ولكنه كان كتوماً خجولا على أنه وإن كان قد أفلح فى مغالبة شعوره وحبس عواطفه أمامها ، فقد اعترف لى بأمانيه الفسيحة ورغبته أن تكون شريكة حياته ، وكانت النتيجة أننى كتمت حبى فى أعماق صدرى واقفلت دونه باباً من فولاذ ، حتى لا أخون عهد الصداقة والوفاء ، ولكن شاءت الظروف الأليمة أن تدمى القلب الصامت حين ذهب إليها (فتحى) يمزق الستار ويكشف لها عن حبه فيصيب قلبها وينبه عواطفها ويقضى على حب (ياغوس) وفسيح آماله التى شادها منذ الصغر ، ولو أنها وقفت من قبل على العاطفة الكامنة فى قلب ابن عمها ، ما سهل على (فتحى) بلوغ غايته ، ولكانت حاله اليوم حالى من التعاسة والبؤس . لقد مات (ياغوس) مفجوعاً مطعوناً فى قلبه وحشاشته ، أما أنا ، ذلك الذى برصا سببها هيكلا بشعاً مشوهاً ، فما زلت أحبها وأقدسها وأرثيها كضحية

تستحق التقديس والعبادة ما حيينا .

«قد تعلم فيما بعد أن (غانم)هو ذلك الأعرج المحطم الذى كانت تشفق عليه وتحنو ، وقد تعلم أن (غانم) هذا المستأجر للطابق فوقها ينتشى بخمر أنغامها وسحر حديثها ويشكو حبه الضائع وآماله التى عقدها ، فحطمتها يد الدهر القاسية ، وقد تقدس هذا الذى فقد أهـله وعلمه وعافيته وزينته بسببها وفى سبيل مرضاتها ، وقد تبكى كثيراً وتنوح كثيراً فلا تسد خرقا ولا تعوضنى بما فقدته شيئاً ، وسأبقى أنا هو هذا البائس المنكوب فى كل ناحية من نواحى حياته .

« سأنزل اليها الآن بناء على طلبها ،وسأتزود بنظرة ربما تكون الأخيرة فى رحلة شاقة طويلة ، فاذا ارتفع الضجيج وبلغك الخبر فأسرع واطلب إليها أن تقبل جبينى كثيراً فهو يتحرق إلى قبلة من شفتيها... هأنذا أحاول أن أنتهى ولا أراها . . . فدعنى أودعك .. فقد لاترانى إلا وقد فارقنى الروح » ؟

م . غانم

« منقذك من مخالب فيداس »

* * *

وضع (غانم) القلم فى صمت وهدوء ، ثم نهض بجهد،وسار إلى ناحية الفراش ووقف عند رأس النائم دامعاً حزيناً ، ومد يده فوضع الرسالة على الوسادة ، وتمتم يقول بصوت مختنق :

ـ كنت أحب ... كنت أتمنى أن أظل معك لأخفف عنك بعض الآلام وأرفه عنك فى ساعات ضيقك وضجرك ، وكنت أود أن يمد الله فى حياتى فنسعد سوياً ونتعاون فى تناسى ما ألم بنا من حزن وهم ويأس ، ونسيان

خيالات الذكرى المؤلمة وما انتهى إليه أمرنا ، ومازلنا فى روض الشباب ، ولكن ماأمر الحقيقة ! لن نلتقى يا أخى إلا فى دار الآخرة فاقطع كل أمل فى لقائى فى هذه الدار. أخى ! إن دموعى تتساقط لأنى مفارقك بعد لحظات ، إنى لا أضن بحياتى ... فلطالما سعيت إلى الموت سعياً ، فسلبنى الدهر حتى هذه الأمنية ! ستظل روحى ترفرف حولك وستتكاتف روحى وروحا ياغوص وفتحى على ملازمتك ، نعم ستظل أرواح ثلاثتنا تطل عليك وترعاك فى هذا العالم . والسلام عليك من صديقك القديم الباكى عليك ورحمة الله .

وانحنى عليه فقبل جبينه قبلة طويلة ، ثم قام إلى مصباح صغير فأشعله ووضعه إلى جانب الفراش واتجه نحو باب الغرفة بهدوء ثم أغلقه خلفه وسار فى البهو حتى وصل باب الشقة ، فخرج منه ونزل درجات السلم متمهلا حتى وصل طابق الأميرة ، فلما رآه الحراس نهضوا فحيوه أجمل تحية ، وقاده أحدهم إلى غرفة الاستقبال حيث كان فى انتظاره ، الأميرة وزوجها وحاشيتها ، وإذ راته الأميرة استوت واقفة ووجهها يطفح بشراً وإيناساً ، وابتدرته قائلة :

ـ لم نشأ الصعود إليك رغم انتظارنا الطويل خشية التشويش عليك يامستر (فينج)

فابتسم ابتسامة متكلفة محزنة وأجاب : ـ لا أدرى كيف غلبنى النوم وأنا ممدود على الفراش أنشد بعض الراحة .....

ولما جلس سأله (ستيوارت) قائلا: ماذا كانت نتيجة الحبة التى أعطيتها لك البارحة يامستر (فينج) ؟ لعلك شعرت ببعض الراحة ....

وكان (ستيوارت) يعلم علم اليقين ، كما يعلم جميع أفراد الحاشية ، أن الرجل يدنو من القبر بخطوات سريعة وأن حالته فى هذه الآونة صارت فى غاية الخطورة واليأس ، ولذلك صرفوا همهم إلى تسليته إذهاب كآبته وحزنه

تارة بالموسيقى الوترية، وأخرى بإنشاد الأناشيد والأغانى، وطوراً بتحويل دفة الحديث إلى مناحٍ شتى ، ولكنه كان يشعر رغم هذا كله، بالغيبوبة تعتريه وهو يختلس النظر إلى الأميرة ، ويستعيد ذكريات الماضى المؤلمة فيزيد ألمه وتحترق حشاشته، ويشعر برغبة جامحة فى الاعتراف لها بالحقيقة ، حتى ينام نومته الأخيرة مرتاح النفس قرير العين ، ولكنه يعود فيأبى أن يفضى اليها بشىء والموت يسرى فى أعضائه بطيئاً ، وحمى الحزن والألم تحرقه وتلهب كيانه . وخيل إليه بعد لحظة أن جسده يميل ويكاد يسقط من فوق مقعده ، فجاهد ليعتدل ولكنه شعر بدوار شديد وبوجود غلالة سوداء تحجبهم عن عينيه ، فأدرك كل شىء... أدرك أنه الموت يستل روحه من بين جنبيه، أدرك أنه مفارقها الفراق الأبدى بعد لحظات قلائل ، فنظر إليها نظرة صامتة طويلة وهى تتراقص أمام عينيه فى الظلام الدامس ، وأغمض عينيه وزفر زفرة عميقة ، وقال بصوت متقطع من رعشة الموت : نوليات ! !

فأسرعت إليه وقد سرت فى جسدها قشعريرة هائلة لدى سماعها هذا الصوت ، ولكنها ما كادت تصل إليه حتى ارتمى على مقعده جثة هامدة .

* * *

تعاون الجميع على نقله إلى الفراش ، وأسرعت الأميرة إلى البهو وصاحت فى الخدم : أطلبوا الدكتور بالتليفون .

وفى أثناء ذلك لحق بها (عباس) بوجه شاحب وقال لها متلعثما :

ـ أيتها الأميرة ! يخيل إلى أننى أعرف هذا الصوت ، إننى لا أذكر المناسبة ولكنى أجزم بأنه صوت كان مألوفاً لدينا .

فأجابت فى صوت مضطرب وفى عينيها بريق الحيرة : ياللغرابة ! لقد حسبت أننى واهمة حين هزنى هذا الصوت ، ويخيل لى أننى أعرف

بعض الشيء عن هذا الصوت ولكن ... ولم تتم كلماتها لأن (حامد) أسرع إلى ناحيتهما ، وقال فى صوت يشوبه القلق والارتباك :

— يجب أن تدعوا الدكتور على عجل ، فقد أغمى على المستر (سيمون) وستيوارت منذ دقائق ، فصاحت بفزع : يا إلهى ! ماذا تقول ؟

إننى لا أستطيع تصوير الحادث تماماً فقد حدث عقب خروجك أن اقترب كلاهما من جثة المستر (فينج) وأزاحا عن رأسه القبعة وما كادا يفحصان شعر رأسه حتى صاحا صيحة فزع ، وارتميا على الأرض مغمى عليهما وقد نقلناهما إلى حجرة أخرى حتى يأتى الطبيب .

فنظرت الأميرة حولها نظرات حائرة وقالت بصوت مرتفع حافل بنبرات الاضطراب والدهشة :

— إننى أكاد أجن ، إننى لا أقدر على جمع شتات نفسى ... أسرع ياعباس واطلب الدكتور .

وهنا بدت حركة بين الحراس عند الباب الخارجى وظهر من بينهم شاب أخذ يشق الصفوف ، حتى تمكن من الدخول إلى مكان الأميرة ، ثم اقترب منها وهو أصفر اللون يكاد يسقط أرضاً من شدة الاعياء والاضطراب وسألها قائلا : أمات حقيقة ؟ .

وما كاد (حامد) و (عباس) يتأملان سحنته حتى تراجعا إلى الوراء وصاحا فى صوت واحد :

— رمزى ! ! . !

ووقفت الأميرة مكانها جامدة شاردة اللب ودارت الدنيا تحت قدميها من تأثير المفاجآت المتوالية ، ومرت اللحظات وتنبهت إلى الشاب الجرىء يحادث أصدقاءه القدماء ، فأسرعت إليه تسأله فى صوت مختنق والدموع

تنهمر من عينيها : رمزى ! إنى أسعد الناس ، وأشقى الناس فى هذه اللحظة آه لو تعلم . . .

وانتفض الشاب وازداد امتقاع وجهه وقال : هل اعترف لك بالحقيقة ؟

فحملقت إليه دهشة وقالت ـ أى حقيقة ... لقد مات المستر (فينج) فهل تعرفه ؟

فجمد الشاب مكانه وكاد ، يفقد توازنه ويسقط أرضاً لولا أنه تمالك نفسه وقال برباطة جأش :

ـ بل قولى مات (غانم) صديقك القديم ومحبك الصامت

انقضت عبارته كالصاعقة فأذهلتهم وعادوا لا يبصرون ولا يسمعون ، كأنها العاصفة انطلقت داوية فصمت الآذان وأذهلت العقول فسلبتها وعيها ورشادها .

أسرع الشاب إلى غرفة الميت خائر القوى مهدم الأعصاب ، فارتمى عند قدميه لا يلوى على شىء وهو يجهش بالبكاء كالأطفال ، وانتبه بعد دقائق إلى نفسه فرأى الأميرة جاثية بجانبه تندب الميت وتقبله وهى تئن أنين الثكلى ، ومن حولها أصدقاؤه يبكون وينتحبون .

انتصب (رمزى) واقفا بعد هنيهة وهو يمسح عينيه ثم أدار عينيه فى الواقفين وقال بهدوء :

ـ كفى بكاء ونحيباً فقد مات الميتة التى كان يرجوها ؛ مات بين يديك أيها الملاك فتحققت أمنيته وطابت نفسه . إنا لله وإنا إليه راجعون ، هـذا مصير كل من على سطح البسيطة ، وارحمتاه له لقد خرج من الدنيا أطهر مايكون ذيلا ، وأعظم ما يكون عند الله أجراً ، اطلبوا له الرحمة من السماء

الخاتمة

حالما خرج الجمع من غرفة الميت ، عرجوا إلى غرفة الجلوس لسماع رسالة (غانم) وهناك لحق بهم الطبيب وطمأنهم على حالة المغمى عليها ، وسألهم عدم إزعاجها حتى يعودا إلى رشدها ، فأجابوه الى ماطلب وجلسوا فى خشوع ينصتون لعبارات الراحل واعترافاته ، ولما فرغ (رمزى) من القراءة استوت الأميرة واقفة تجفف دموعها بمنديلها الصغير ، وقالت بصوت متهدج محزون :

ـ وارحمتاه لك ياطاهر القلب ، فكثيراً ماتألمت صامتاً كتوماً ، فكنت وفياً فى صداقتك شريفاً فى حبك ، عظيما فى تضحياتك ، ففى سبيل الله ياغانم ماخسرنا بخسارتك ، وفى ذمة الله روحك الطيبة الطاهرة ، سنبكيك ما شاء لنا البكاء وسنذرف الدمع على قبرك مختلطا بحبات القلوب ... فوداعاً إلى أن يجمع الله بينى وبينك ، وبيننا وبين (ياغوس) و (فتحى) .

قالت ذلك ثم جلست تبكى بكاء شديداً ونهض ، (رمزى) وقال :

ـ أيتها الأميرة ! ياأخت الملائكة ، كفكفى عبراتك ، وارفهى عن نفسك ، واستمعى إلى نبأ جديد فيه راحة لقلبك النبيل وفؤادك المكلوم . إذا كان الله يامولاتى قد قبض (غانم) إلى جواره ، وحرمنا منه إلى الأبد ، ففى (ياغوس) و (فتحى) عزاء باق عن كل ذاهب ، لاتدهشى يامولاتى فقد عثرت عليهما حيين يرزقان .

وصمت الشاب لحظة ثم اختلس النظر إلى القوم ، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ، فلم ينبسوا ببنت شفة ، وحملقوا إليه بعيون حائرة تائهة ، فاستأنف يقول :

ـ نعم وجدتهما حين ولكن فى صورتين أخريين غير مألوفتين لنا ، فى شخصيتين مغايرتين لشخصيتهما المعروفة ، ماأصعب الحقيقة وأقسى يد الأيام!

وهنا لم تتمالك الأميره نفسها فوقفت تصيح فى دهشة قائلة:

ـ تكلم يارمزى ، وقل كل شىء فاننى أشعر بالغيبوبة تعترينى . هل أنت واثق من قواك العقلية أم سلبك مصاب (غانم) عقلك ؟

فقال بهدوء : كلا يا أميرتى فاننى ما أزال مالكا قواى وصوابى ، ولكن قبل كل شىء ! هل يمكنك امتلاك زمام أعصابك ؟

فقالت : تكلم بربك أين هما ؟

فأجاب على الفور : إنهما فى الغرفة المجاورة ياسيدتى ، دعينى أقص عليك ماسرده (فيداس) . وراح للحال يسرد عليها القصة بحذافيرها كما سمعها من فم(فيداس) ، وما أن أتمها حتى وثبت الأميرة ، وهى تصيح : أيمكن هذا ؟ أيمكن أن يكون هو ؟ ولكن سرعان مافتح الباب وظهر على عتبته كل من (سيمون) و(استيوارت) وهما يصيحان :

ـ نعم . نعم ... لقد صدق رمزى يانوليات !

وارتمى فتحى يعانق(رمزى) باكيا وكذلك ارتمى(ياغوس) على صدرها يبكى ويقول : هاهوذا ياغوس يانوليات ! فابكى ماشاءلك البكاء على مصابه وبلواه ، لقد آثرت الصمت مدى هذه السنين لأنى أحبك ، ولأننى أصبحت قبيح الوجه كريه المنظر وأنت جميلة فاتنة ، هذا مادعانى إلى الصمت يابنة العم ، رغم زواجى منك وارتباطنا برباط وثيق لاتنفصم عراه ، كنت أود يانوليات أن أتقدم إليك شابا قويا جميلا يوم الزفاف ، فأبت الأقدار إلا أن أتقدم كهلا قبيح المنظر دميم الوجه ... الجسد شوه أما الروح روحى التى لازمتك طويلا فهى هى روح (ياغوس) الطاهرة النبيلة .

وفى صوت مختنق قالت وهى تطوقه وتضمه إلى صدرها

ـ الجسد مصيره الفناء ، ولو كان فى قلبى يا(ياغوس)متسع لحبك لأحببتك اليوم أكثر من قبل .

(انتهت)